

## مُباحثاتُ لِسَانِيَّةٍ في ظواهرِ قُرْآنيَّةٍ

الدكتور مهدي أسعد عرار  
أستاذ اللسانيات والعلوم اللغوية  
دائرة اللغة العربية وآدابها بجامعة بيرزيت

### الإهداء

إلى مَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ بَيْنِنَا وَنَزَّلَ...إِلَيْكَ سَيِّدِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ  
وَسَلَّمَ.

إلى مَنْ نَزَلَ بِهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ شِدَادٍ...إِلَيْكَ جِبْرِيلُ الْأَمِينُ.  
إلى مَنْ تَلَقَّوهُ فَصَرَفُوا أَبْصَارَهُمْ تِلْقَاءَهُ، فَكَانَ لَهُمْ فِيهِ ذِكْرٌ وَتَذَكُّيرٌ وَذِكْرَى وَادِّكَارٌ...  
إلى الْحَفَظَةِ وَالْقَرَاءَةِ وَالْبَحْثَةِ مُنْذُ شَاءَ إِلَى مَا شَاءَ.

### عِرْفَانٌ وَشُكْرٌ

يَطِيبُ لِنَفْسِي أَنْ أُزْجِيَ مِنَ الشُّكْرِ الْمَوْصُولِ بِأَسْبَابِ الْمَحَبَّةِ وَالتَّقْدِيرِ أَعْطَرَهُ وَأَطْيَبَهُ  
إِلَى أَخِي الصَّدِيقِ الصَّدُوقِ، وَالْعَالِمِ الْعَامِلِ، الْأَسْتَاذِ الدُّكْتُورِ "مَحْمُودِ بْنِ مَبَارِكِ السَّلِيمِيِّ" عَلَى  
حُسْنِ التَّوْجِيهِ وَالْإِفَادَةِ وَالرَّعَايَةِ، أَدْعُو اللَّهَ أَنْ تَبْقَى الْأَقْدَارُ جَارِيَةً عَلَى مَحَبَّتِهِ، مُتَوَرِّدَةً عَلَيْهِ  
بِعَوَائِدِ الْحُبُورِ وَالظَّفَرِ.

### بَابُ الْقَوْلِ وَمُفْتَتِحُهُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اصْطَفَى الْعَرَبِيَّةَ لُغَةً لِلْقُرْآنِ، وَجَعَلَهُ مَحْفُوظًا بِأَمْرِهِ، وَسَخَّرَ لَهُ مَنْ يَتَصَدَّرُ لِحِفْظِهِ وَدَرَسِهِ، وَيَسْتَشْرِفُ فَرَائِدَهُ وَقَوَائِدَهُ، فَعَدَا سِرَاجًا وَهَاجًا يُسْتَنْضَاءُ بِهِ، وَمُعْجَزَةً مُعْجَبَةً خَالِدَةً مَا كَرَّرَ عَيْدًا، وَأَوْزَقَ عَوْدًا، وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ الْأَتَمَانَ الْأَكْمَلَانَ عَلَى الْمُصْطَفَى الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ لِيُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ.

وَبَعْدُ،

فكثيرًا ما كانت الدواعي تقوم في نفسي ملحةً عليّ بإيلاءِ الدرسِ القرآني عَيْنَ العِنايةِ، والتأملِ، والتدبُّرِ، وكثيرًا ما كنتُ أجدُ الدرسَ القرآني الآخذَ في شعابِ الأنظارِ اللسانيةِ التحليليةِ قوِيَّ التجاذبِ لي، وكثيرًا ما كنتُ أصغي مُستجيبًا لتلكمُ الدواعي وقد سَكَنَتِي التَّهَلُّلُ، والتَّبَرُّكُ، والتَّأْمِيلُ:

- التَّهَلُّلُ بِالفِكرَةِ الْمُتَخَلِّقَةِ فِي النَّفْسِ.
- وَالتَّبَرُّكُ بِمِضْمَارِ الدَّرْسِ.
- وَالتَّأْمِيلُ بِاسْتِزْبَاحِ النَّوَابِ، وَبِأَنَّ يَكُونُ هَذَا الصَّنِيعُ زُلْفَى وَقُرْبَةً مِنَ الْقُرْبَاتِ، وَحُجَّةً لِي لَا عَلَيَّ يَوْمَ العَرَضِ عَلَى وَجْهِه الكَرِيمِ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْآثَارَ وَالْأَخْبَارَ النَّقْلِيَّةَ وَالْعَقْلِيَّةَ الَّتِي أَتَتْ عَلَى فَضْلِ التَّنْزِيلِ العَزِيزِ وَلُغْتِهِ الْعَرَبِيَّةِ مَعًا كَثِيرَةٌ، بَلْ مَا كَانَ أَكْثَرَهَا! وَأَجِدُنِي فِي مُفْتَتِحِ هَذِهِ الْمُبَاحَثَاتِ اللِّسَانِيَّةِ أَسْتَحْسِنُ التَّعْرِيجَ عَلَى ثَلَاثَةٍ مِنْهَا مِنْ ثَلَاثِ فُرَحٍ: مِنْ كَلَامِ رَبِّ النَّاسِ تَقَدَّسَ اسْمُهُ، وَكَلَامِ نَبِيِّ النَّاسِ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَوَاتِ وَالتَّبَرُّكَاتِ أَطْيَبُهَا وَأَشْرَفُهَا، وَكَلَامِ النَّاسِ.

أما أولها فقد جاء في قول الحق -تتره-: "لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين"<sup>(1)</sup>، وكذلك في قوله الحق: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"<sup>(2)</sup>، ولا يخفى على ذي نهيية أن الله -تبارك وتعالى كما تجلّى في الآية الأخيرة- قد تعهد التنزيل العزيز بالحفظ والرعاية حفظاً مفرراً مستحكماً مؤكداً، وقد بدا ذلك التوكيد في ثلاث صورٍ لسانيةٍ مُعجبةٍ تتضافر في تفرير هذا المعنى وإحكامه:

- أولها حرف التوكيد "إنا"، ولا ريب أنه يقوي الخبر ويعضده.
- وثانيها اللام المزخلة التي تزيد التوكيد توكيداً، والمعنى ثقويةً وتعزيراً.
- وثالثها تأكيد اسم "إن"، وهو الصمير المتصل بها "إنا" بضمير الجمع المنفصل "نحن"، وقد شفع هذا الخطاب القرآني -من وجهة أسلوبية- بصيغة الجمع دلالةً على التعظيم، فطوبى للعربية لغة القرآن الكريم، وطوبى لنا معشر العربية قرأةً، وبحثه، ورؤاه، وطلاباً.

أما الذي هو ثانيها فقد جاء فيما أثير عن الصادق الأمين -صلى الله عليه وسلم- في غير موضع، وغير عبارة، ومن ذلك قوله الشريف: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"<sup>(3)</sup>، وكذلك قوله في سياق آخر شريف: "أعربوا القرآن فإته من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات، وكفارة عشر سيئات، ورفع عشر درجات"<sup>(4)</sup>، وفي رواية أخرى: "أعربوا القرآن فإته عربي"<sup>(5)</sup>، وفي سياق ثالث قال -صلى الله عليه وسلم-: "أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي"<sup>(6)</sup>.

وأما ثالثها، ومضمار ذلك كلام الناس، فقول الثعالبي وهو يستفتح كتابه "فقه اللغة" بعبارة وهاجة مُعجبة أتى فيها على فضل العربية لغة التنزيل العزيز: "من أحبب الله -تعالى-

(1) الآية (الحجر، 103).

(2) الآية (الحجر، 9).

(3) أخرجه البخاري في الصحيح، باب "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" (1)، (4739)، وأحمد في المسند، مسند عثمان بن عفان، (412)، وأبو داود في السنن، باب في ثواب قراءة القرآن (350)، (1452)، والترمذي في السنن، باب ما جاء في تعلم القرآن (5)، (2907).

(4) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه محمد (7574).

(5) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، باب ما جاء في إعراب القرآن، (29914)، والطبراني في المعجم الكبير، (8686).

(6) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، عطاء بن عباس (398)، (11441)، والنيسابوري في المستدرک على الصحيحين، فضل كافة العرب (398)، (6999).

أَحَبَّ رَسُولُهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَنْ أَحَبَّ الرَّسُولَ الْعَرَبِيَّ أَحَبَّ الْعَرَبَ، وَمَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ أَحَبَّ الْعَرَبِيَّةَ الَّتِي بِهَا نَزَلَ أَفْضَلُ الْكُتُبِ عَلَى أَفْضَلِ الْعَجَمِ وَالْعَرَبِ، وَمَنْ أَحَبَّ الْعَرَبِيَّةَ عُحِّيَ بِهَا، وَثَابَرَ عَلَيْهَا، وَصَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَيْهَا،...، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْإِحَاطَةِ بِخَصَائِصِهَا، وَالْوُقُوفِ عَلَى مَجَارِيهَا وَمَصَارِفِهَا، وَالتَّبَخَّرِ فِي جَلَالِهَا وَدِقَائِقِهَا، إِلَّا قُوَّةَ الْيَقِينِ فِي مَعْرِفَةِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، وَزِيَادَةَ الْبَصِيرَةِ فِي إِثْبَاتِ النَّبَوَّةِ الَّتِي هِيَ عُمْدَةُ الْإِيمَانِ، لَكَفَى بِهِمَا فَضلاً يَحْسُنُ فِيهِمَا أَثَرُهُ، وَيَطِيبُ فِي الدَّارَيْنِ ثَمَرُهُ، فَكَيْفَ وَأَيُّسَرُ مَا حَصَّهَا اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بِهِ مِنْ ضُرُوبِ الْمَادِحِ يَكُلُّ أَقْلَامَ الْكُتَّابَةِ، وَيُتَعَبُ أَنْامِلَ الْحَسَبَةِ"<sup>(1)</sup>.

لَعَلَّ مَا تَقَدَّمَ يُلْمِحُ، بَلْ يُصَرِّحُ بِمَكَانَةِ الدَّرْسِ الْقُرْآنِيِّ أَوَّلًا، وَمَكَانَةِ مَنْ يَتَصَدَّرُ لَهُ ثَانِيًا، وَمَكَانَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي هِيَ لُغَةُ الْقُرْآنِ، وَمَسْتَوْدَعُ نَفَاقَةِ الْأُمَّةِ، وَصِبْغَتُهَا الْفَارِقَةُ ثَالِثًا.

### مِهَادٌ وَتَأْسِيسٌ

أَمَّا الْمُبَاحَثَاتُ اللَّسَانِيَّةُ الْمُثَبَّتَةُ فِي هَذَا الْكِتَابِ فَعِدَّتُهَا حَمْسٌ، وَالْجَامِعُ الْعَرِيضُ الَّذِي يَنْتَظَمُ عَقْدَ سَيَرُورَتِهَا، عَلَى مَا بَيَّنَّهَا مِنْ تَبَايُنٍ فِي الْمَوْضُوعَاتِ، هُوَ انْتِسَابُهَا إِلَى مِضْمَارِ الْبَحْثِ اللَّسَانِيِّ:

- فَقَدَ كَانَتْ الْمُبَاحَثَةُ اللَّسَانِيَّةُ الْأُولَى خَائِضَةً فِي الْإِعْجَازِ الْبَيَانِيِّ.
- وَالثَّانِيَةُ مِضْمَارُهَا الْمَشْكِلُ الْقُرْآنِيُّ عَامَّةً، وَاللَّغْوِيُّ خَاصَّةً.
- وَفِي الثَّلَاثَةِ تَعْرِيجَةٌ عَلَى ظَاهِرَةِ التَّطَوُّرِ الدَّلَالِيِّ فِي الْقُرْآنِ، وَأَثَرٌ ذَلِكَ فِي التَّلَقِّيِ وَالتَّوَاصُلِ.
- وَفِي الرَّابِعَةِ تَحْلِيلٌ لِسَانِيٌّ مِضْمَارُهُ قِرَاءَةٌ شَادَّةٌ.
- وَفِي الْخَامِسَةِ اسْتِشْرَافٌ لِللُّغَةِ الْجَسَدِ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ.

وَلَعَلَّ هَذَا السَّرْدَ الْمُتَقَدِّمَ بَيَانُهُ أَنْفًا مُحْتَاجٌ إِلَى بَسْطٍ مِنَ الْقَوْلِ وَتَجْلِيَةٍ، فَأَقُولُ:  
أَمَّا الْمُبَاحَثَةُ الْأُولَى فَكَانَ مِضْمَارُهَا الْإِعْجَازَ الْبَيَانِيَّ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ، وَقَدْ كَانَ فِيهَا مُحَاوَلَةٌ لِلْكَشْفِ عَنِ مَلْحَظِ دِلَالِيٍّ ارْتَضَيْتُ لَهُ اسْمَ "انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ الشَّرِيفِ": وَجَةٌ مِنْ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ الْمُعْجَبِ"، وَلَيْسَ الْمَقْصِدُ الْمُتَعَيَّنُ مِنْ هَذَا التَّأْوِيلِ، بَلْ تَعَدُّدُ الْمَعَانِي فِي السِّيَاقِ الْوَاحِدِ، وَتَضَافَرُهَا فِي دِلَالَةِ السِّيَاقِ الشَّرِيفِ، وَانْفِتَاحُ الدَّلَالَةِ ذَاكَ مُتَجَلِّ فِي

(1) انظر: الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (429هـ)، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق مصطفى

السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، دار الفكر، دمشق، 1997م، 21.

مُسْتَوِيَاتِ اللُّغَةِ الْمُتَبَايِنَةِ: الصَّوْتِيَّةِ، وَالصَّرْفِيَّةِ، وَالنَّحْوِيَّةِ، وَالْمُعْجَمِيَّةِ، ثُمَّ جَاءَ عَقِبَ هَذَا احْتِرَاسٌ مِضْمَارُهُ أَنَّ الْإِنْفِتَاحَ الدَّلَالِيَّ لَيْسَ مُلْقَى عَلَى عَوَاهِينِهِ، فَقَدْ يَقِفُ الْمَرْءُ وَجَاهَ آيَاتِ كَرِيمَاتٍ يَتَجَلَّى فِيهَا "انغلاقُ الدلالة" واقتصارها على وجهةٍ معنويَّةٍ واحدةٍ، ثُمَّ قُفِلَتْ هَذِهِ الْمُبَاحَثَةُ بِالتَّغْرِيجِ عَلَى اسْتِشْرَافِ الْعِلَلِ الَّتِي يُفَسِّرُ بِهَا "الانفتاحُ الدَّلَالِيَّ".

أَمَّا الْمُبَاحَثَةُ الثَّانِيَّةُ فَكَانَ عُنْوَانُهَا الرَّئِيسُ الدَّالُّ عَلَيْهَا هُوَ "المُحْتَكَمَاتُ الَّتِي صَدَرَ عَنْهَا ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي تَأْوِيلِ مُشْكِْلِ الْقُرْآنِ"، وَلَمْ يَكُنِ الْمَقْصِدُ الْمُتَعَيَّنُ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ تَرْجَمَةً لِابْنِ قُتَيْبَةَ، أَوْ عَرَضًا لِكِتَابِهِ "تَأْوِيلُ مُشْكِْلِ الْقُرْآنِ"؛ إِذْ إِنَّ الْمُبْتَدِعَ الْأَوَّلَ أَنْ تَكُونَ نَظْرًا اسْتِيبَانِيًّا يُؤَدِّنُ بِاسْتِشْرَافِ الْمُحْتَكَمَاتِ الَّتِي صَدَرَ عَنْهَا ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي تَصْنِيفِهِ كِتَابَهُ، لِيُبَيِّنَ عَلَى ذَلِكَ الْاسْتِشْرَافِ دَرَسَ لِظَاهِرَةِ الْمُشْكِْلِ الْقُرْآنِيِّ اعْتِمَادًا عَلَى تَصَوُّرِهِ عَلَى وَجْهِ مِنَ التَّعْيِينِ وَالْإِحْكَامِ، وَصَفْوَةَ الْمُسْتَخْلَصِ مِنْ هَذِهِ الدَّرَاسَةِ أَنَّهَا تَتَرَدَّدُ بَيْنَ ثَلَاثَةِ مَطَالِبَ رَئِيسِيَّةٍ:

- أَوْلَاهَا: مَوَاضِعُ الْمُشْكِْلِ.
- وَثَانِيهَا: بَوَاعِثُهُ.
- وَثَالِثُهَا: دَرَجَاتُهُ؛ إِذْ لَيْسَتْ كُلُّ الْمُثَلِّ الَّتِي أُثْبِتَهَا ابْنُ قُتَيْبَةَ سَوَاءً فِي دَرَجَةِ الْإِشْكَالِ.

أَمَّا الْمُبَاحَثَةُ الثَّالِثَةُ الْمَعْقُودُ لَهَا الْعُنْوَانُ: "أَثَرُ اسْتِشْرَافِ التَّطَوُّرِ الدَّلَالِيِّ فِي فَهْمِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ: نَمَازُجُ جُرْتِيبَةَ وَمَوْجِهَاتُ كَلِمَةٍ" فَكَانَتْ دِرَاسَةً لُغَوِيَّةً تَنْتَسِبُ إِلَى الْأَنْظَارِ اللَّسَانِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ عَامَّةً، وَالْمُعْجَمِ اللَّغَوِيِّ التَّارِيخِيِّ خَاصَّةً، وَصَفْوَةَ الْمُسْتَخْلَصِ مِنْهَا أَنَّهَا قَائِمَةٌ عَلَى اسْتِشْرَافِ مَلْحَظٍ لِسَانِيٍّ مَضمُونُهُ احْتِرَاسٌ مِنْ أَنْ يَفْهَمَ اللَّاحِقُ كَلَامَ السَّابِقِ كَمَا يَفْهَمُهُ فِي عَصْرِهِ ظَانًا أَنْ تَلْكَمُ الْأَلْفَاظُ الْمُتَقَادِمَةَ كَانَتْ تَعْنِي عِنْدَهُ -عِنِي السَّابِقِ- مَا تَعْنِيهِ الْيَوْمَ، وَلَقَدْ عُنِيْتُ وَأَنَا أَقَارِبُ هَذَا الْمَطْلَبِ وَالدَّرْسِ بِاسْتِشْرَافِ مُثَلٍّ مِنَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ وَقَعَ فِي دِلَالَةِ بَعْضِ كَلِمَاتِهَا تَطَوُّرًا، فَأَفْضَى هَذَا إِلَى انزِيَاحِهَا عَنْ مَعَانِيهَا الْمُتَقَادِمَةَ، وَلِذَا لَيْسَ ثَمَّ بَدٌّ مِنْ اسْتِشْرَافِ مَلْحَظِ التَّطَوُّرِ الدَّلَالِيِّ، وَأَعْرَاضِهِ، وَبَوَاعِثِهِ، تَحْقِيقًا لِمَطْلَبَيْنِ عَزِيزَيْنِ، وَهُمَا:

- تَبْيَانُ لِلْمَقْصِدِ الَّذِي رَمَى إِلَيْهِ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ أَوْلًا.
- وَاحْتِرَاسٌ مِنْ أَنْ يَقَعَ الْمَرْءُ فِي مَحْظُورٍ يَرُدُّ عَلَيْهِ عِنْدَ التَّجَافِي عَنْ مَلْحَظِ التَّطَوُّرِ الدَّلَالِيِّ ثَانِيًا.

أَمَّا الْمُبَاحَثَةُ الرَّابِعَةُ فَكَانَ مِضْمَارُهَا الْقِرَاءَاتِ الشَّادَّةَ عَامَّةً، وَقِرَاءَةَ ابْنِ مُحْيِصِنٍ خَاصَّةً، وَقَدْ وَسَمْتُهَا بِ"تَحْلِيلِ الظَّوَاهِرِ النَّحْوِيَّةِ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مُحْيِصِنِ الْمَكِّيِّ الشَّادَّةِ"، وَلَعَلَّهُ يَظْهَرُ مِنْ عُنْوَانِهَا أَنَّ مِضْمَارَهَا الرَّئِيسَ يَأْخُذُ فِي ثَلَاثِ شُعَبٍ:

- أولها استِشْرافُ ظواهرِ نَحْوِيَّةٍ مَخْصُوصَةٍ.
- وثانيها قِراءةٌ شاذَّةٌ.
- وثالثُها المُقرئُ ابنُ مُحَيِّصِنٍ.

وَالْحَقُّ أَنَّ تِلْكَمُ الظَّوَاهِرَ -كَمَا سَيَتَبَيَّنُ بَعْدًا- مُتَعَدِّدَةٌ مُفَرَّقَةٌ، وَالسَّبِيلُ إِلَى تَحْقِيقِ هَذَا الْمُبْتَغَى جَمْعُهَا تَحْتَ عُنُوانَاتٍ دَالَّةٍ، وَمِمَّا وَقَفَ عِنْدَهُ بِالتَّجْلِيَةِ وَالشَّرْحِ ظَاهِرَةٌ الاجْتِزَاءِ الظَّاهِرِ وَالْمُقَدَّرِ، وَالتَّلَقُّقُ، وَالْحَمَلُ عَلَى الْمَعْنَى، وَأَثَرُ تَغْيِيرِ صِيغَةِ الْفِعْلِ فِي السِّيَاقِ الْبِنْيَوِيِّ، وَتَعَاوُرُ حُرُوفِ الْمَعَانِي، وَالْوَقْفُ، وَقَدْ تَرَدَّدَتْ فِي مُنَاقَشَتِي الْمُتَقَدِّمَ بَيَانُهُ بَيْنَ الْعَرَضِ؛ عَرَضِ الظَّوَاهِرِ، وَالتَّلْحِيلِ، وَالْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الْقِرَاءَاتِ، وَقَدْ بَدَأَ أَنْ قِرَاءَةَ ابْنِ مُحَيِّصِنٍ تَلْتَقِي فِي كَثِيرٍ مِنْ وُجُوهِهَا بِالْقِرَاءَاتِ السَّبْعِ عَامَّةً، وَقِرَاءَةَ ابْنِ كَثِيرٍ خَاصَّةً، وَلَعَلَّ الْبَاعِثَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهَا مَكِّيَّانِ.

أَمَّا الْمُبَاحَثَةُ الْخَامِسَةُ فَقَدْ كَانَ مِضْمَارُهَا ظَاهِرَةً "التَّوَاصُلِ غَيْرِ اللَّفْظِيِّ" عَامَّةً، وَاللُّغَةُ الْجَسَدِ" خَاصَّةً، وَقَدْ ارْتَضَيْتُ لَهَا الْعُنُوانَ: "لُغَةُ الْجَسَدِ فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ الشَّرِيفِ: أَمْثَلَةُ جُرْنِيَّةٌ وَمَوْجِهَاتٌ كَلِّيَّةٌ"، وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ هَذَا الْعُنُوانِ الْعَرِيضِ أَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْطَابٍ مُؤَبَّسَةٍ:

- أَوْلُهَا لُغَةُ الْجَسَدِ.
- وَثَانِيهَا النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ.
- وَثَالِثُهَا نَمَازُجُ جُرْنِيَّةٍ تَعَقُّبُهَا مَوْجِهَاتٌ كَلِّيَّةٌ.

أَمَّا لُغَةُ الْجَسَدِ فَهِيَ بَابُ الْقَوْلِ وَمَطْلَبُ الْبَحْثِ، وَأَمَّا النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ فَمِضْمَارُ الْبَحْثِ وَمِيدَانُهُ، وَأَمَّا النَّمَاذِجُ الْجُرْنِيَّةُ فَهِيَ أَمْثَلَةُ الْبَحْثِ وَأَدَوَاتُهُ الْمُجَلِّيَّةُ، وَأَمَّا الْمَوْجِهَاتُ الْكَلِّيَّةُ فَهِيَ صَفْوَةٌ الْمُسْتَخْلَصِ لِمَا وَرَدَ فِي الْبَحْثِ مِنْ فِكْرٍ وَمَبَاحَثٍ فَرَعِيَّةٍ، وَقَدْ وُلِّئْتُ وَجْهِي فِيهَا شَطْرَ تَمَثُّلِ "لُغَةُ الْجَسَدِ" فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ الشَّرِيفِ، فَوَقَفْتُ عِنْدَ مَبَاحَثِ فَرَعِيَّةٍ أَهْمُهَا تَلَمُّسُ الدَّلَالَةِ بَيْنَ جَسَدِ اللَّغَةِ وَلُغَةِ الْجَسَدِ، وَتَلَمُّسُ دِلَالَاتِ حَرَكَةِ الرَّاسِ وَهَيْئَاتِهِ، وَدِلَالَاتِ حَرَكَةِ الْعَيْنِ وَهَيْئَاتِهَا، وَدِلَالَاتِ حَرَكَةِ الْيَدِ، وَالْوَجْهِ وَإِحْيَاءِهَا، وَحَرَكَةِ الْأَصَابِعِ، وَالْمِشْيَةِ وَأَنْوَاعِهَا وَإِحْيَاءِهَا، وَالْمَتَمِّمَاتِ الْمُسَانِدَةِ فِي لُغَةِ الْجَسَدِ.

وَبَعْدُ، فَمَاذَا عَسَى أَنْ أَقُولُ؟

أَقُولُ: إِنَّ الْبَصَرَ قَدْ يَزِيغُ وَقَدْ يَطْغَى، وَالْخَاطِرَ قَدْ يَغْفُلُ، وَالْفَهْمَ قَدْ يَعْتَرِيهِ مَلَالٌ أَوْ كِلَالٌ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، وَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ... اللَّهُ الْعَظِيمُ أَسْأَلُ أَنْ يَسْتَرْ بِسْتَرِهِ الْجَمِيلِ الْعَثَارَ وَالزَّلَلَ، فَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ، وَبِاسْمِهِ الْأَجَلِّ أَسْتَقْتِحُ.



كتبه

مهدي عرار - القدس الشريف

22/ذو الحجة/1428هـ

31/كانون الأول/2007م

## "انفتاح الدلالة في النص القرآني الشريف وجه من وجوه الإعجاز المعجب"

في هذه المباحثة محاولة للكشف عن ملحظ دلالي ارتضيت له اسم "انفتاح الدلالة"، وليس المقصد المتعين من هذا التأويل، بل تعدد المعاني في السياق الواحد وتضافرها في دلالة السياق الشريف، وانفتاح الدلالة ذاك منجل في مستويات اللغة المتباينة: الصوتي، والصرفي، والتركيبي، والمُعجمي، ثم جاء عقب هذا احتراس مضمارة أن الانفتاح الدلالي ليس ملقى على عواهنه، فقد يقف المرء وجاء آيات كريمات يتجلى فيها "انغلاق الدلالة" واقتصارها على وجهة معنوية واحدة، ثم فقلت هذه المباحثة بالتعريض على استشراف العليل التي يُفسر بها "الانفتاح الدلالي".

## تقديم:

لَمَا كَانَتْ مُعْجَزَةٌ كُلِّ نَبِيٍّ مِمَّا شَاعَ عِنْدَ قَوْمِهِ، وَلَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ أَهْلَ لَدَدٍ وَفَصَاحَةٍ -لَمَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ- نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ عَلَى سَبِيلِ التَّحْدِي وَالْإِعْجَازِ، فَأَفْحَمَ الْخُصُومَ، وَأَفْضَى بَعْضَهُمْ إِلَى النَّقْرِ بِأَنَّ عَلَيْهِ طَلَاوَةٌ، وَأَنَّ لَهُ حَلَاوَةً، وَأَنَّ أَعْلَاهُ مُثَمَّرٌ، وَأَنَّ أَسْفَلَهُ مُغْدَقٌ، وَمَا هُوَ يَقُولُ بَشْرٍ، وَالْحَقُّ أَنَّ اسْتِشْرَافَ الْبَوَاعِثِ الَّتِي أُذِنَتْ بِهَذَا النَّقْرِ مِنْ رَجُلٍ يَنْتَسِبُ إِلَى أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَمْتَلِكُونَ نَاصِيَةَ اللَّغَةِ، وَالْمَلَكَةَ الْبَيَانِيَّةَ الْمُعْجَبَةَ، يُفْضِي إِلَى الْمَكْثِ فِي تَلْمُسِ وُجُوهِ إِعْجَازِهِ، وَفِي هَذِهِ الْمُبَاحَثَةِ مُحَاوَلَةٌ لِلْكَشْفِ عَنْ مَلْحَظٍ دِلَالِيٍّ ارْتَضَيْتُ لَهُ اسْمَ "انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ"، وَلَيْسَ الْمَقْصِدُ الْمَتَعَيْنُ مِنْ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ التَّأْوِيلُ، بَلْ تَعَدُّدُ الْمَعَانِي فِي السِّيَاقِ الْوَاحِدِ وَتَضَافُزُهَا مَعًا فِي دِلَالَةِ السِّيَاقِ الشَّرِيفِ، وَقَدْ بَدَأَ لِي أَنْ انْشِغَالِي بِهَذَا الْمَطْلَبِ أَنَّ مَثَلًا مَا أُرِيدُ تَمَثُّلَهُ مُنْكَاثَرَةً، وَأَنَّهَا تَقَعُ فِي مُسْتَوِيَّاتٍ مُنْبَاطِيَّةٍ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَقَعُ فِي مِضْمَارِ الْمُسْتَوَى الصَّوْتِيِّ، وَالصَّرْفِيِّ، وَالتَّرْكِيبِيِّ، وَالْمُعْجَمِيِّ<sup>(1)</sup>.

وَلَعَلَّةَ يَحْسُنُ أَنْ أَقْدِمَ لِكَلَامِي هَذَا اخْتِرَاسًا مَضمُونُهُ أَنْ انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ -فِي غَيْرِ السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ الشَّرِيفِ- قَدْ يَكُونُ ذَا صِنْعَةٍ سَلْبِيَّةٍ؛ إِذْ إِنَّ الْمُتَكَلِّمَ قَدْ يَأْتِي بِهِ لِإِبْهَامِ دُونَ الْإِحْكَامِ، فَلَا يَقْفُ السَّمَاعُ عَلَى مُرَادِهِ إِلَّا بِالتَّوَهُّمِ دُونَ التَّحْكُمِ، وَإِخَالًا أَنْ هَذَا الْعُنْوَانُ الْعَرِيضُ "انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ" مُحْتَاجٌ إِلَى فَضْلِ بَيَانٍ لِيُنْتَقَلَ بِهِ الْبَاحِثُ مِنْ مِضْمَارِ التَّنْظِيرِ إِلَى مِضْمَارِ التَّطْبِيقِ بُغْيَةً تَجْلِيَّةً بَوَاعِيهِ وَمَوَاضِعِهِ، وَلِذَا سَأَخُذُ بَحْثِي بِقَوَائِلِهِ مُبْتَدِئًا بِانْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ فِي:

### المستوى الصوتي:

ثُمَّ بَاعِثَانِ عَلَى انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ فِي الْمُسْتَوَى الصَّوْتِيِّ: أَوْلُهُمَا الْمَفْصِلُ، فَهُوَ سَكْتَةٌ كَلَامِيَّةٌ خَفِيْفَةٌ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ أَوْ الْجُمَلِ؛ إِذْ إِنَّهَا سَبِيلٌ مِنْ سُبُلٍ تَعْيِينِ حُدُودِ الْكَلِمَاتِ، وَذَلِكَ نَحْوُ "إِنَّمَا" وَ "إِنْ Δ نَمَا"، وَسَبِيلٌ مِنْ سُبُلِ انْفِصَاحِ نَسِيْجِ التَّرْكِيبِ الْجُمْلِيِّ<sup>(2)</sup>، وَمِمَّا يَتَّصِلُ بِمَطْلَبِ الْحَدِيثِ عَنِ الْمَفَاصِلِ الصَّوْتِيَّةِ الْحَدِيثُ عَنِ الْوَقْفِ وَالْإِبْتِدَاءِ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ؛ إِذْ إِنَّهُ مَطْلَبٌ

(1) نشر هذا البحث في مجلة "إسلامية المعرفة" في أمريكا سنة 2001م في العدد السابع والعشرين.

(2) انظر تعريف المفصل:

Robins, R.H., General Linguistics, Longman, New York, 1989, P.145.

وباي، ماريو، أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، جامعة طرابلس، طرابلس، 1973م، 95.

لَهُ حَظْرُهُ فِي إِقَامَةِ الْمَعَانِي، وَ"يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ، وَاسْتِنْبَاطَاتٌ غَزِيرَةٌ، وَبِهِ تَتَبَيَّنُ مَعَانِي الْآيَاتِ، وَيُؤَمَّنُ الْاِحْتِرَازُ عَنِ الْوُقُوعِ فِي الْمَشْكَالَاتِ"<sup>(1)</sup>.

وَقَدْ قَالَ عَنْهُ الْقَسْطَلَانِيُّ مُعَرِّجًا عَلَى سُهْمَتِهِ فِي بَيَانِ الْمَعْنَى: "وَلَا مَرِيَّةَ أَنْ بِمَعْرِفَتِهِمَا تَظْهَرُ مَعَانِي التَّنْزِيلِ، وَتُعْرَفُ مَقَاصِدُهُ، وَتَسْتَعِدُّ الْمَفْكَرَةُ لِلْعَوُصِ فِي بَحْرِ مَعَانِيهِ، عَلَى دُرِّ فَوَائِدِهِ،... وَبِهِ يُعْرَفُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَعْنِيِّينَ الْمُخْتَلِفِينَ، وَالنَّقِيضِينَ الْمُتَبَايِنِينَ، وَالْحُكْمِيِّينَ الْمُتَغَايِرِينَ..."<sup>(2)</sup>.

وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ الَّتِي يَتَجَلَّى فِيهَا انْفِتَاحُ الدَّلَالَةِ الْآتِي مِنْ تَبَايِنِ وَجْهِ الْقَوْلِ عَلَى الْمَفْصِلِ قَوْلُ الْحَقِّ -تَنْزَهُ-: "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ"<sup>(3)</sup>، فَالظَّاهِرُ أَنَّ تَبَايِنَ الْمَفْصِلِ يُفْضِي إِلَى انْفِصَاحِ نَسِيجِ التَّرْكِيبِ، لِيُؤَدِّنَ هَذَا إِلَى انْفِتَاحِ دِلَالِيٍّ، فَقَدْ تَبَايَنَ وَجْهُ الْقَوْلِ عَلَى إِعْرَابِ الْمَصْدَرِ "أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ"، فَقِيلَ:

- هُوَ بَدَلٌ مَجْرُورٌ مِنْ "سَوَاءٍ" أَوْ مِنْ "كَلِمَةٍ".

- أَوْ هُوَ مَرْفُوعٌ، وَالنَّقْدِيرُ: هِيَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ.

وَفِي هَذِهِ الْمَعَانِي يَظْهَرُ الْكَلَامُ مُتَوَاشِجًا غَيْرَ مُتَفَاصِلٍ، وَمَوْضِعُ الْمَفْصِلِ: "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ Δ".

وَقِيلَ -وَهَذَا الْمَفْصِلُ يُؤَدِّنُ بِاسْتِشْرَافِ لَمَحَّةٍ إِعْجَازٍ - إِنَّ الْكَلَامَ تَمَّ عَلَى "سَوَاءٍ"، ثُمَّ اسْتُؤْنِفَ، فَعَدَا السِّيَاقُ الشَّرِيفُ:

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ Δ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ".

(1) انظر: الزركشي، بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن (794هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل

إبراهيم، دار الجيل، بيروت، 1987م، 342/1.

(2) انظر: القسطلاني، شهاب الدين (923هـ)، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق عامر السيد

عثمان وعبد الصبور شاهين، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1972م، 249/1، ومن

أقسام الوقف: التام، والكافي، والحسن، والقبيح، انظر: ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن

قاسم (327هـ)، إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، تحقيق محيي الدين رمضان، ط1،

مجمع اللغة العربية، دمشق، 1971م، 149/1.

(3) الآية (آل عمران، 64).

و"سواءٍ" ههنا صفةٌ لـ"كلمةٍ"<sup>(1)</sup>، وَقَدْ تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَهَا لِيَأْتِيَ فَضْلُ الْمَفْصِلِ الصَّوْتِي فِي انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ، لِيَعْقَبَ هَذَا اسْتِحْسَانٌ مَرْدُهُ إِلَى تَخَلُّقِ خَاطِرٍ مَضمُونُهُ أَنَّ النِّظْمَ التَّرْكِيبِيَّ الْوَاحِدَ قَدْ يَكُونُ حَمَلًا لِأَوْجِهٍ مُتَعَدِّدَةٍ؛ إِنَّ ذَلِكَ مَرْدُهُ إِلَى الْمَفْصِلِ، وَيَعْدُو الْمَعْنَى الْمُتَعَيَّنُ فِي الْوَجْهِ الثَّانِي، وَهُوَ: "بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ" كَقَوْلِ أَحَدِنَا فِي مَقَامِ تَرْغِيبٍ أَوْ تَرْهِيْبٍ: "بَيْنِي وَبَيْنَكَ هَذَا الْأَمْرُ"، وَالَّذِي يُنْمِي تَخَلُّقَ الشَّعْوَرِ بِالْإِعْجَازِ فِي النَّفْسِ هُوَ أَنَّ نَمَّ وَجْهَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ فِي قِرَاءَةِ هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ، وَفِي كُلِّ وَجْهِ تَقْدِيرٌ يُنْبِئُ عَلَيْهِ حُكْمٌ، وَلَكِنَّهُمَا يَتَّفِقَانِ وَدِلَالَةَ السِّيَاقِ الْكَلِمَةِ، وَهِيَ: بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ قَوْلُ الْحَقِّ -تَبَارَكَ-: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا"<sup>(2)</sup>.

يَظْهَرُ أَنَّهُ يَتَّبِأَيْنُ الْمَعْنَى ثَانِيَةً يَتَّبِأَيْنِ الْمَفْصِلِ الصَّوْتِي، فَقَدْ يَكُونُ الْوَقْفُ الْكَافِي بَعْدَ قَوْلِهِ: "عَلَيْكُمْ"، وَالتَّقْدِيرُ: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ Δ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالْمَصْدَرُ الْمُؤَوَّلُ "أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا" فِي مَحَلِّ رَفَعِ حَبْرٍ لِمَبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ "هُوَ".

وَقَدْ يَكُونُ الْوَقْفُ بَعْدَ "رَبِّيكُمْ": "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيكُمْ Δ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا"، وَلَا رَيْبَ أَنَّ تَمَّ انْفِتَاحًا فِي الدَّلَالَةِ هَهُنَا، وَالْمَعْنَى هُوَ الْإِغْرَاءُ، وَالْعَامِلُ فِيهِ "عَلَيْكُمْ"<sup>(3)</sup>، وَهُوَ كَقَوْلِنَا: عَلَيْكَ الذَّهَابُ الْآنَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَى ذِي تَبَصَّرٍ أَنَّ كَلَامًا يُفْضِي تَبَايُنَ الْمَفْصِلِ فِيهِ إِلَى اسْتِشْرَافٍ وَجْهِ تَرْكِيبِيٍّ جَدِيدٍ يُثِيرُ فِي النَّفْسِ اسْتِحْسَانًا لَّهُوَ مِنَ الدَّوَاعِي الْمَقْرَّرَةِ: "وَمَا هُوَ بِقَوْلِ بَشِيرٍ":

- "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ Δ".

- "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ Δ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ".

(1) انظر ما قيل فيها: ابن الأنباري (577هـ)، البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق طه عبد الحميد طه، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1980م، 207/1، والعكبري (616هـ)، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي البجاوي، ط2، دار الجيل، بيروت، 1987م، 269/1.

(2) الآية (الأنعام، 151).

(3) أشار إلى هذين المعنيين ابن الأنباري، البيان، 349/1، والعكبري، التبيان، 548/2، وأبو حيان (745هـ)، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، 251/3، وقد ضعف وجه النصب على الإغراء، ورجح الفراء هذا الوجه، انظر: معاني القرآن، تحقيق أحمد نجاتي، ومحمد النجار، الدار المصرية، القاهرة، 1955م، 364/1.

- "قُلْ تَعَالَوْا أَنُلِّ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ Δ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا".  
- "قُلْ تَعَالَوْا أَنُلِّ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ Δ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا".

والباعثُ الثاني على انفتاحِ الدلالةِ في المستوى الصوتيِّ التَّنغيمِ الذي له سُهمَةٌ في تَعْيِينِ المعاني النَحْوِيَّةِ العَرِيضَةِ؛ كَالاسْتِفْهَامِ، وَالتَّعَجُّبِ، وَالنَّدَاءِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ<sup>(1)</sup>، وَمِمَّا انْفَتَحَتْ دِلَالَتُهُ، وَتَعَدَّدَ الْقَوْلُ عَلَى إِعْرَابِهِ، عَائِدٌ إِلَى هَذَا الْمَطْلَبِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ -تَنْزَهُ-: "مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ"<sup>(2)</sup>، وَقَدْ تَرَدَّدَ الْمُعْرَبُونَ فِي إِعْرَابِ "مَا" فِي هَذَا السِّيَاقِ بَيْنَ وَجْهَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ:

- أَوْلُهُمَا أَنَّهَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ، وَالْمَعْنَى الْمُتَعَيَّنُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: أَيُّ شَيْءٍ أَغْنَاهُ عَنْهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

- وَثَانِيَهُمَا أَنَّهَا نَافِيَةٌ كَقَوْلِنَا: مَا جَاءَ مُحَمَّدٌ، وَالْمَعْنَى: لَمْ يُغْنِ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ<sup>(3)</sup>، وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى هَذَيْنِ الْمَعْنِيَيْنِ دُونَ تَرْجِيحِ أَحَدِهِمَا الْقُرْطُبِيُّ، وَالطَّبْرَسِيُّ، وَأَبُو حَيَّانَ<sup>(4)</sup>، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ اسْتِرْفَادَ التَّنغِيمِ، تَنغِيمِ الْاسْتِفْهَامِ، أَوْ تَنغِيمِ النَّفْيِ، يُؤْذِنُ بِتَعْيِينِ الْمَعْنَى، وَلَكِنَّ هَذَيْنِ الْمَعْنِيَيْنِ فِي هَذَا السِّيَاقِ -مَعَ افْتِرَاقِهِمَا- يَتَضَافَرَانِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى نَفْيِ الْمَعْنَى الْكُلِّيِّ: إِمَّا بِالْاسْتِفْهَامِ أَوْ النَّفْيِ، وَكِلَاهُمَا مُفْضٍ إِلَى الْمَعْنَى الْمُتَعَيَّنِ.

(1) لبسط القول في ظاهرة التنغيم انظر :

Singh, S., Phonetics: Principles and Practise, University of Park Press, 1982, P.187.

وقد عُدَّ مدخلا لرفع الغموض النحوي، انظر :

Katamba, F., An Introduction to Phonology, Longman, New York, 1989, P.244.

(2) الآية(المسد، 2).

(3) انظر: النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد (328هـ)، إعراب القرآن، تحقيق زهير زاهد، ط3، عالم الكتب، ومكتبة النهضة العربية، بيروت، 1988م، 305/5، ومكي بن أبي طالب (437هـ)، مشكل إعراب القرآن، تحقيق حاتم الضامن، وزارة الإعلام، بغداد، 1975م، 851/2، وابن هشام، جمال الدين (761هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق مازن المبارك ومحمد حمد الله، ط2، مكتبة سيد الشهداء، (د.ن)، 1972م، 414/1.

(4) انظر: القرطبي (671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م، 162/20، والطبرسي (5هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، 379/10، وأبو حيان، البحر المحيط، 527/8.

وَشَبِيهٌ بِهَذَا قَوْلُ الْحَقِّ -تَبَارَكَ-: "قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ"<sup>(1)</sup>، فَقَدْ يَسْتَقِيمُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ "مَا" تَعَجَّبِيَّةٌ؛ كَقَوْلِنَا: مَا أَجْمَلَ السَّمَاءَ! أَوْ أَنْ يُقَالَ إِنَّهَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ، وَالْمَعْنَى: أَيُّ شَيْءٍ حَمَلَ الْإِنْسَانُ عَلَى الْكُفْرِ مَعَ مَا يَرَى مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّوْحِيدِ<sup>(2)</sup>.

وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ نَمَّ انْفِتَاحًا فِي دِلَالَةِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ، وَأَنَّ مَرَدَّ ذَلِكَ إِلَى "التَّغْيِيمِ"، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ يَلْتَقِي مَعْنَى التَّعَجُّبِ مَعَ مَعْنَى الاسْتِفْهَامِ لِيَدُلَّا عَلَى عِنَادِ الْإِنْسَانِ وَتَمَادِيهِ فِي الْكُفْرِ، وَالْمَلْحَظُ الْمُعْجِزُ هُنَا أَنَّ اللَّهَ الْعَظِيمَ -وَكُلَّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ- لَمْ يَخْصَّ مَعْنَى دُونَ مَعْنَى، بَلْ جَاءَتْ دِلَالَةُ الْآيَةِ مَفْتُوحَةً دُونَ أَنْ يُفْضِيَ هَذَا إِلَى مَسَاسٍ بِالْمَعْنَى الْكُلِّيِّ، وَهُوَ التَّنْبِيهُ عَلَى كُفْرِ الْإِنْسَانِ وَعِنَادِهِ إِمَّا بِالتَّعَجُّبِ، وَإِمَّا بِالاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ أَوْ التَّعَجُّبِيِّ.

### في المُسْتَوَى الصَّرْفِيِّ:

وَقَدْ يَقَعُ الْانْفِتَاحُ الدَّلَالِيُّ فِي الْمُسْتَوَى الصَّرْفِيِّ، أَيُّ فِي أُبْنِيَةِ الْكَلِمِ، وَمِنْ بَوَاعِثِ ذَلِكَ "تَنَابُؤُ الصَّيْغِ"، وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ لَهَا حُضُورُهَا فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَمِنْ ذَلِكَ قِيَامُ "مَفْعُولٍ" مَقَامَ الْمَصْدَرِ<sup>(3)</sup>، وَقِيَامُ "فَاعِلٍ" مَقَامَ الْمَصْدَرِ، وَقِيَامُ "فَعِيلٍ" مَقَامَ "فَاعِلٍ" وَ"مَفْعُولٍ" وَ"مَفْعُولٍ"، وَقِيَامُ "أَفْعَلٍ" مَقَامَ "فَعِيلٍ"<sup>(4)</sup>، وَ"فَعَلٍ" مَقَامَ "مَفْعُولٍ"<sup>(5)</sup>، وَمِنْ أَمْثَلِ ذَلِكَ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ قَوْلُهُ -جَلَّ وَعَزَّ-: "لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ"<sup>(6)</sup>.

لَمَّا عَرَّجَ الْمُفَسِّرُونَ وَاللُّغَوِيُّونَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ تَرَدَّدُوا بَيْنَ مَعْنِيَيْنِ مُرْكَوزَيْنِ فِي الصَّيْغَةِ "عَاصِمٌ":

(1) الآية (عبس، 17) .

(2) انظر هذين الوجهين: النحاس، إعراب القرآن، 151، ومكي، المشكل، 803/2، وابن الأنباري، البيان، 494/2.

(3) انظر: ابن فارس، أبو الحسين أحمد(395هـ)، صاحب في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق عمر الطباع، ط1، مكتبة المعارف، بيروت، 1993م، 236، والأستراباذي، رضي الدين محمد(686هـ)، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق محمد الحسن وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982م، 168/1، ومن ذلك: ماله معقول ولا مجلود، أي: ليس له عقل ولا جلد.

(4) انظر: الأستراباذي، شرح الشافية، 524/3، والمبرد، أبو العباس محمد(285هـ)، المقتضب، تحقيق محمد عضيمة، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1968م، 246/3، ومن ذلك أصغركم وأكبركم، والمعنى: صغيركم وكبيركم.

(5) انظر: الأستراباذي، شرح الشافية، 162/1، ومن ذلك الذَّبْحُ والطَّحْنُ، والمعنى: المذبوح والمطحون.

(6) الآية (هود، 43) .

- أولهما أنها على ما هي عليه من كونها اسم "فاعل: عاصم"، والمعنى: لا أحد يعصمك اليوم من أمر الله.
- وثانيهما أن هذه الصيغة تنتسب إلى ظاهرة تناوب الصيغ، فهي اسم مفعول جاء في حلة اسم الفاعل: "عاصم: معصوم"، والمعنى: لا أحد معصوم من أمر الله<sup>(1)</sup>، وهذا وجه لا يدفع، فنحن نقول: الطاعم الكاسي، والمعنى: المطعم المكسؤ.

وجه الإعجاز في هذا السياق الشريف ملحظان: أولهما أن صيغة واحدة قامت مقام صيغتين، فاشتملت على معنيين، وثانيهما أن المعنى في محصلته النهائية واحد، فالله العزيز يريد أن ينفي هذا الأمر بكليته، فلا أحد معصوم من أمر الله إلا من رحم، ولا أحد عاصم من أمر الله؛ ذلك أن العذاب قد حَقَّ بهم، وبقي ابن النبي نوح -عليه السلام- ممن ظلوا في طغيانهم يعمهون متكبرين جاحدين، وهو يظن أنه سيأوي إلى جبل يعصمه من أمر الله، ولكن هيهات هيهات، لا عاصم ولا معصوم من أمر الله ذلك<sup>(2)</sup>.

ومن مثل ما تقدم قوله -تعالى-: "لا تسمع فيها لاغية"<sup>(3)</sup>، وانفتاح الدلالة ههنا آت من معنى الصيغة الصرفية: "لاغية: فاعلة"، فقد تكون بمعنى المصدر "اللغو"، و"اللغا"، فالصفة تقوم مقام المصدر، وقد يكون المعنى: لا تسمع فيها جماعة لاغية، أو كلمة لاغية، أو قائله لغوا<sup>(4)</sup>، وذكر القرطبي أن فيها ستة أوجه:

- أولها: لاغية: كذب، وبهتان، وكفر، وهذا مذهب ابن عباس.
- وثانيها: باطل وإثم، وهذا مذهب قتادة.
- وثالثها: الشتم، وهذا قاله مجاهد.

(1) أشار إلى المعنيين: الفراء، معاني القرآن، 15/2، وأبو حيان، البحر المحيط، 227/5، وابن منظور، اللسان، مادة "عصم"، واكتفى ابن قتيبة بمعنى "مفعول". انظر كتابه: تفسير غريب القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، 204.

(2) رجح بعض المفسرين أن "عاصم" في سياقها الشريف ذلك على بابها، أي: اسم فاعل مع ذكرهم المعنيين، انظر: القرطبي، الجامع، 28/9، وذهب الطبرسي إلى أن لها ثلاثة معان، وهي: عاصم، ومعصوم، وذو عصمة، أي النسب. انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 208/5.

(3) الآية (الغاشية، 10).

(4) انظر ما قيل فيها: الفراء، معاني القرآن، 257/3، والمعنى عنده: حافة على كذب، وأبو عبيدة (210هـ)، مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1962م، 296/2، والمعنى عنده "اللغو"، وابن قتيبة، تفسير الغريب، 458، وابن منظور، اللسان، مادة "لغا".



- وَرَابِعُهَا: الْمَعْصِيَةُ، وَهُوَ لِلْحَسَنِ.
- وَخَامِسُهَا: لَا يُسْمَعُ فِيهَا حَالِفٌ يَحْلِفُ كَذِبًا؛ قَالَه الْفَرَاءُ.
- وَسَادِسُهَا: لَا يُسْمَعُ فِي كَلَامِهِمْ كَلِمَةٌ بَلْغَوِيٌّ؛ وَهُوَ لِلْفَرَاءِ أَيْضًا<sup>(1)</sup>، وَلَا شَيْءٌ يَدْفَعُ هَذِهِ الْمَعَانِي، وَوَجْهُ الْإِعْجَازِ هُوَ انْفِتَاحُ دِلَالَةِ "الْأَعْيَةِ"، وَكُلُّ الْمَعَانِي الَّتِي تَلْتَقِي عَلَيْهَا تَجْتَمِعُ لِتُؤَدِّدَ بِنَفْيِ اللَّغْوِ بِكَلِمَتِهِ.

وَمِنْ أَمْثَلِهِ اشْتِمَالُ صَيْغَةِ صَرْفِيَّةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى مَعَانٍ صَرْفِيَّةٍ مُتَبَايِنَةٍ كَلِمَةُ "مَوْعِدٍ" فِي قَوْلِهِ -تَبَارَكَ-: "فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا"<sup>(2)</sup>، وَالْمَعْلُومُ أَنَّ صَيْغَةَ "مَفْعِلٍ" قَدْ تَكُونُ اسْمَ زَمَانٍ، أَوْ اسْمَ مَكَانٍ، أَوْ مَصْدَرًا مِيمِيًّا، وَالْقُرْآنُ يُصَدِّقُ بَعْضَهُ بَعْضًا، فَقَدْ وَرَدَتْ "مَوْعِدٍ" فِي غَيْرِ هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ:

- وَمِنْ ذَلِكَ دِلَالَتُهَا عَلَى الزَّمَانِ فِي قَوْلِهِ -تَبَارَكَ-: "إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصَّبِيحُ"<sup>(3)</sup>.
  - وَدِلَالَتُهَا عَلَى الْمَكَانِ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: "إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ"<sup>(4)</sup>.
- وَقَدْ احْتَمَلْتُ كَلِمَةَ مَوْعِدٍ هَذِهِ الْوُجُوهَ الثَّلَاثَةَ، وَقَدْ تَنَبَّهْتُ إِلَى هَذَا الْمَلْحَظِ ابْنُ هِشَامٍ، فَوَقَفْتُ عِنْدَهَا مُشِيرًا إِلَى أَنَّ هَذِهِ الصَّيْغَةَ حَمَالَةٌ لِثَلَاثَةِ مَعَانٍ:
- أَوْلَاهَا الْمَصْدَرُ، وَيَعْبُذُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ -تَعَالَى- فِي الْآيَةِ: "لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ": أَيْ لَا نُخْلَفُ الْمَوْعِدَ "الْوَعْدَ".
  - وَثَانِيهَا اسْمُ الزَّمَانِ، وَيَعْبُذُ هَذَا الْمَعْنَى الصَّرْفِيُّ قَوْلُهُ -تَعَالَى- فِي الْآيَةِ الَّتِي تَلِيهَا: "قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ".
  - وَثَالِثُ هَذِهِ الْمَعَانِي اسْمُ الْمَكَانِ، وَيَعْبُذُ هَذَا قَوْلُهُ -تَعَالَى-: "مَكَانًا سَوِيًّا"<sup>(5)</sup>.
- وَهَكَذَا يَظْهَرُ أَنَّ نَمَّ انْفِتَاحًا فِي دِلَالَةِ الْكَلِمَةِ "مَوْعِدٍ"، وَمَرَدُّ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ الصَّيْغَةَ "مَفْعِلٍ" تَحْتَمِلُ مَعَانِي صَرْفِيَّةً مُتَبَايِنَةً، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْصَّ مَعْنَى دُونَ مَعْنَى، وَعَلَّاهُ ذَلِكَ التَّشْدِيدُ عَلَى عَقْدِ الْمَوْعِدِ، وَتَأْكِيدِهِ فِي زَمَانِهِ، وَمَكَانِهِ، وَخُدُوثِهِ "الْمَصْدَرِ"، فَهُوَ الَّذِي لَا يُخْلَفُ

(1) انظر: القرطبي، الجامع، 23/20، واكتفى الطبرسي بمعنيين، وهما: كلمة ساقطة، وذات لغو، انظر:

مجمع البيان، 266/10.

(2) الآية (طه، 58-59).

(3) الآية (هود، 81).

(4) الآية (الحجر، 43).

(5) انظر: ابن هشام، معني اللبيب، 776/2.

وَعَدَهُ رَسَلَهُ، وَقَدْ رَجَّحَ الْقُرْطُبِيُّ مَعَ تَعْرِيجِهِ عَلَى اِحْتِمَالِهَا ثَلَاثَةَ مَعَانٍ - الْمَصْدَرِيَّةَ "الْوَعْدَ"<sup>(1)</sup>،  
وَاِكْتَفَى الطَّبْرَسِيُّ بِدِلَالَتِهَا عَلَى الْمَكَانِ، "وَمَكَانًا" فِي الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ بَدَلًا مَنصُوبًا مِنْ "مَوْعِدًا"<sup>(2)</sup>.

وَقَدْ نُقِضِيَ الْعَوَارِضُ التَّصْرِيفِيَّةُ إِلَى انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ، وَمَرَدُّ ذَلِكَ إِلَى الْإِدْغَامِ، إِدْغَامِ  
الْمِثْلَيْنِ، وَمِنْ أَمْتَلَةِ ذَلِكَ قَوْلُ الْحَقِّ -تَبَارَكَ-: "وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ"<sup>(3)</sup>.

مَوْضِعُ الْمُبَاحَثَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ الشَّرِيفُ "يُضَارُّ"؛ إِذْ إِنَّهَا بِنَيْتَةٍ سَطْحِيَّةٍ مُحْتَمَلَةٌ، وَقَدْ  
انْفَتَحَتْ دِلَالَتُهَا لِقُوعِ مَعْنِيَيْنِ تَحْتَهَا، وَهُمَا: "لَا يُضَارُّ"، وَلَا يُضَارُّرُ، وَلَكِنَّ الْعَارِضَ التَّصْرِيفِيَّ  
أَفْضَى إِلَى إِدْغَامِ الرَّاءَيْنِ مَعًا، فَاتَّحَدَتْ صَيْغَةُ الْمَبْنِيِّ لِلْمَعْلُومِ مَعَ صَيْغَةِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ،  
مُخَلَّفَةً وَرَاءَهَا انْفِتَاحًا دِلَالِيًّا، وَوَجْهَهُ الْإِعْجَازُ هُنَا أَنْ تَمَّ نَهْيَيْنِ فِي صَيْغَةٍ وَاحِدَةٍ:

- نَهْيًا لِلْكَاتِبِ وَالشَّهِيدِ عَنِ الْإِحْقَاقِ الضَّرْرِ بِغَيْرِهِمَا؛ كَثَرَكِ الشَّهَادَةِ أَوْ التَّخْرِيفِ.
- وَنَهْيًا عَنِ أَنْ يُضَارَّ الْكَاتِبُ وَالشَّهِيدُ، وَذَلِكَ أَلَّا يُعْطَى الْكَاتِبُ حَقَّهُ، أَوْ أَنْ يُحْمَلَ  
الشَّهِيدُ مُؤْنَةَ الْمَجِيءِ مِنْ بَلَدٍ، أَوْ أَنْ يُعْنَفَ<sup>(4)</sup>، وَيَسْنَدُ هَذَا؛ أَعْنَى مَعْنَى "مَا لَمْ  
يُسَمِّ فَاعِلُهُ" قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ: "وَلَا يُضَارُّرُ"<sup>(5)</sup>، وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ -أَعْنَى مَعْنَى الْفَاعِلِيَّةِ-  
أَبْيَنُ عِنْدَ الطَّبْرَسِيِّ<sup>(6)</sup>، كُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي تَحْتَمِلُهَا صَيْغَةٌ وَاحِدَةٌ تُثِيرُ فِي النَّفْسِ  
اسْتِحْسَانًا أَنْ الْكَشْفِ عَنِ الْمَعَانِي الْوَاقِعَةِ تَحْتَهَا، وَالْحَاصِلُ أَنَّ اللَّهَ الْعَظِيمَ لَمْ  
يَخْصَّ مَعْنَى دُونَ مَعْنَى فِي هَذَا النَّهْيِ: "وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ"، بَلْ جَمَعَهُمَا  
مَعًا فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ.

### فِي الْمُسْتَوَى التَّرْكِيبِيِّ:

(1) انظر: القرطبي، الجامع، 142/11.

(2) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 27/7.

(3) الآية (البقرة، 282).

(4) انظر ما قيل في هذه الآية: الزمخشري (538هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في

وجوه التأويل، ط1، دار الفكر، القاهرة، 1977م، 404/1، وأبو حيان، البحر المحيط، 370/2،

وقد ذهب إلى المعنيين النحاس، إعراب القرآن، 346/1.

(5) انظر: القرطبي، الجامع، 261/3-262.

(6) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 173/2.

أما انفتاح الدلالة الواقع في المستوى التركيبي فمواضعه متباينة، ومن ذلك تباين القول على مرجع الضمير؛ وذلك نحو قوله -تبارك-: "وما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها"<sup>(1)</sup>.

يظهر في هذا السياق الشريف أن ثم ضميراً في قوله "نبرأها"، وقد تقدمت ثلاثة مراجع، وهي: المصيبة، والأرض، وأنفسكم، وليس يخفى أن قواعد المطابقة تأذن بعود هذا الضمير "هاء" في "نبرأها" على هذه المراجع الثلاثة المتقدمة، ليعقب هذا انفتاح دلالي مؤلف من ثلاثة أوجه<sup>(2)</sup>:

- أولها أن الضمير "هاء" عائد على الأرض: من قبل أن نبرأ الأرض.
- وثانيها أن الضمير عائد على المصيبة: من قبل أن نبرأ المصيبة.
- وثالثها أن الضمير عائد على النفس: من قبل أن نبرأ النفس.

والمستصفي مما تقدم أن تلك المراجع لا تتدافع، بل هي متقبلة في سياقها صالحة، ووجه الإعجاز اللغوي في هذا السياق الشريف هو انفتاح الدلالة في ثلاث شعب دلالية، والمقصد الدلالي المتعين هو التقرير بالتقدير؛ تقدير العزيز العليم قبل أن يبرأ الأرض، أو النفس، أو المصيبة؛ ذلك أن كل شيء عنده بمقدار محفوظ في لوح محفوظ قبل أن يوجد الوجود، فهو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية.

والذي يسترعي خاطر ههنا هو اشتمال ضمير واحد -وهو "هاء" في "نبرأها"- على هذه المراجع المتقدمة، ليعقبه تخلق ثلاثة معانٍ تُفصي إلى نفي المعنى بالمطلق، فالمصيبة التي تحل بالخلق مكتوبة عليهم، ومقدرة قبل أن يبرأ الله الأرض، أو الخلق "أنفسكم"، أو المصيبة نفسها! ويمكن جداً أن يضاف مرجع رابع، وهو كل ما تقدم<sup>(3)</sup>، تبارك الله رب العرش العظيم.

(1) الآية (الحديد، 22).

(2) انظر هذه الوجوه: مكي، المشكل، 719/2، وابن الأنباري، البيان، 424/2.

(3) ذهب بعضهم إلى أن الآية متصلة بما تقدمها، انظر ما قاله فيها القرطبي: الجامع، 167/17،

واكتفى الطبرسي بعود الهاء على "الأنفس". انظر: مجمع البيان، 308/9.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ قَوْلَ الْحَقِّ -تَنَزَّرَهُ-: "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ"<sup>(1)</sup>. وَالظَّاهِرُ أَنَّ فِي كَلِمَةِ "مِثْلِهِ" ضَمِيرًا مُتَّصِلًا ذَا مَلَامِحَ، وَهِيَ التَّذْكَيرُ، وَالغَيْبَةُ، وَالْإِفْرَادُ، وَقَدْ تَقَدَّمَهُ مَرَّاجِعُ مُوَافِقَةٌ لِمَلَامِحِهِ مِنْ حَيْثُ الْعَدُّ وَالْجِنْسُ، وَهَذِهِ الْمَرَّاجِعُ هِيَ:

- "رَيْبٍ".
  - وَ"مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا"؛ أَي الْقُرْآنِ.
  - وَ"عَبْدِنَا".
- وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ عَوْدَ الضَّمِيرِ فِي "مِثْلِهِ" عَلَى الْمَرْجِعِ الْأَوَّلِ مُطَّرَحٌ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ فِي الْفَهْمِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ لِفَسَادِ الْمَعْنَى، وَيَبْقَى فِي قَائِمَةِ الْمُحْتَمَلَاتِ مَرَّجَعَانِ اثْنَانِ، وَهُمَا: "الْقُرْآنُ"، وَ"عَبْدِنَا"<sup>(2)</sup>، وَالْمَعْنَى الْكَامِنُ فِي كِلَا التَّقْدِيرَيْنِ:
- فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ: مِنْ مِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ.
  - أَوْ: فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ: مِنْ مِثْلِ هَذَا النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ "عَبْدِنَا"، وَالْقُرْطُبِيُّ وَالطَّبْرَسِيُّ يُرْجِحَانِ عَوْدَهُ عَلَى الْقُرْآنِ مَعَ انْتِفَاءِ تَجَافِيهِمَا عَلَى عَوْدِهِ عَلَى الْمَرْجِعَيْنِ<sup>(3)</sup>.

وَالْمُسْتَصْفَى مِمَّا تَقَدَّمَ أَنفَا أَنَّ تَمَّ انْفِتَاحًا فِي الدَّلَالَةِ مَرْدُهُ إِلَى تَبَايُنِ الْقَوْلِ عَلَى مَرَجِعِ الضَّمِيرِ، وَأَنَّ هَذَيْنِ الْمَرْجِعَيْنِ مُتَقَبَّلَانِ يَجِبَانِ مَجِيئًا صَالِحًا مُتَسَاوِقًا مَعَ مَعْنَى السِّيَاقِ الْكَلْبِيِّ؛ إِذِ إِنَّهُمَا لَا يَنَدَافِعَانِ الْبَيِّنَةَ، فَاللَّهُ الْعَلِيُّ يَتَحَدَّى الْمُشْرِكِينَ بِأَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِ هَذَا التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ، لِيُقَرَّرَ بِهَذَا التَّحَدِّيِ انْتِفَاءُ مُكَنَّتِهِمْ عَلَى هَذَا.

وَقَدْ يَكُونُ مُرَادُهُ -تَعَالَى فِي إِعْجَازِهِ- أَنْ يَتَّحَدَّهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ رَجُلٍ مِثْلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ مُتَضَافِرٌ وَدِلَالَةُ السِّيَاقِ الْكَلْبِيَّةِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ بِمُكَنَّتِهِمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ، وَيُصَدِّقُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ -تَبَارَكَ-: "قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ..."<sup>(4)</sup>. أَوْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِ هَذَا النَّبِيِّ الْمُتَقَرِّدِ الْأُمِّيِّ الَّذِي لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ<sup>(5)</sup>.

(1) الآية (البقرة، 23).

(2) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 298/2، واكتفى الفراء بعوده على "القرآن"، انظر: الفراء، معاني القرآن، 19/1.

(3) يقول القرطبي: "والضمير في "مثله" عائد على القرآن عند الجمهور،...، وقيل يعود على التوراة والإنجيل". انظر: الجامع، 162/1، والطبرسي، مجمع البيان، 89/1.

(4) الآية (الإسراء، 87).

(5) انظر: القرطبي، الجامع، 162/1، والطبرسي، مجمع البيان، 89/1.

وَوَجْهُ الإِعْجَازِ الَّذِي يُثِيرُ فِي النَّفْسِ اسْتِخْسَانًا فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ هُوَ انْفِتَاحُ الدَّلَالَةِ الْمُتَمَثِّلُ فِي احْتِمَالِ مَعْنِيَيْنِ لَا يَتَدَافَعَانِ، وَلَكِنْ، قَدْ يَكُونُ تَرَدُّدُ مَرَجِعَيْنِ عَلَى ضَمِيرٍ وَاحِدٍ مَلْحَظًا فِيهِ تَفَاصُلٌ لَا تَوَاصُلٌ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُنَا: "ذَهَبَ زَيْدٌ إِلَى عَمْرٍو لِأَنَّهُ مَرِيضٌ"، فَالظَّاهِرُ أَنَّ نَمَّ ضَمِيرًا فِي قَوْلِنَا "لَأَنَّهُ" يُطَابِقُ فِي مَلَاحِجِهِ المَرَجِعَيْنِ المُتَقَدِّمَيْنِ، وَهُمَا "زَيْدٌ" وَ"عَمْرٍو"، فَقَدْ يَكُونُ المُتَعَيَّنُ أَنَّ المَرِيضَ زَيْدٌ، وَقَدْ يَكُونُ أَنَّهُ عَمْرٍو، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ التَّفَاصُلَ قَدْ تَجَلَّى فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ المَصْنُوعَةِ لِيعْقِبَهُ إِشْكَالٌ يُؤَدِّنُ بَانْتِفَاءٍ وَقُوفِنَا عَلَى المُتَعَيَّنِ مِنَ الجُمْلَةِ عَلَى وَجْهِ الإِحْكَامِ.

أَمَّا فِي الآيَةِ الشَّرِيفَةِ المُتَقَدِّمِ بَيَانُهَا أَنفَا فَلَيْسَ ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ ذَلِكَ أَنَّنَا إِذَا ارْتَضَيْنَا المَعْنَى الأُولَى: "فَأَنْتَوَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِ هَذَا القُرْآنِ"، فَأَنْتَا نَقِفُ عَلَى مَعْنَى عَلَى وَجْهِ التَّعْيِينِ، وَإِذَا نَحْنُ ارْتَضَيْنَا المَعْنَى الثَّانِيَةَ: "فَأَنْتَوَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِ هَذَا النَّبِيِّ"، فَأَنْتَا نَقِفُ عَلَى مَعْنَى جَدِيدٍ أَيْضًا، وَإِذَا نَحْنُ ارْتَضَيْنَا المَعْنِيَيْنِ مَعًا قَائِلِينَ بِانْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ المُعْجِزِ فَأَنْتَا لَنْ نَقِفَ عَلَى إِشْكَالٍ أَوْ تَدَاخُلٍ بَيْنَ المَعَانِي، كَمَا كَانَ فِي قَوْلِنَا: "ذَهَبَ زَيْدٌ إِلَى عَمْرٍو لِأَنَّهُ مَرِيضٌ، بَلْ نَقِفُ عَلَى تَصَافِرِ مَعْنِيَيْنِ مُتَسَاوِقَيْنِ وَدِلَالَةِ السِّيَاقِ الكَلِمِيَّةِ، أَفْلا يُفْضِي هَذَا بِنَا إِلَى اسْتِرْفَادِ قَوْلِ أَحَدِهِمْ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً وَرَابِعَةً: "وَمَا هُوَ بِقَوْلِ بَشَرٍ".

وَمِنْ أَمْثَلَةِ انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ الوَاقِعِ فِي المُسْتَوَى التَّرْكِيبِيِّ قَوْلُهُ -تَنَزَّهُ-: "أَنْ اتَّبَعَ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا"<sup>(1)</sup>، وَنَحْنُ نُعْرِبُ "حَنِيفًا" فِي سِيَاقِهَا الشَّرِيفِ ذَاكَ حَالًا، وَالانْفِتَاحُ هُنَا بَاعْتُهُ تَعْيِينُ صَاحِبِ الحَالِ؛ إِذْ إِنَّهُ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ الضَّمِيرِ المُسْتَرْتَرِّ فِي "اتَّبَعَ" وَ"إِبْرَاهِيمَ"<sup>(2)</sup>، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ لِهَذَا الانْفِتَاحِ الدَّلَالِيَّ عِلَّةً، وَهِيَ التَّشْدِيدُ عَلَى مَبْدَأِ الحَنِيفِيَّةِ، فَإِذَا كَانَ صَاحِبُ الحَالِ "إِبْرَاهِيمَ" أَوْ "مُحَمَّدًا" -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَالْعَرَضُ وَاحِدًا، وَهُوَ الحَنِيفِيَّةُ بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنِ صَاحِبِ الحَالِ.

(1) الآيَةُ (النحل، 123).

(2) رَجَحَ مَكِّي وَابْنُ الأَنْبَارِيِّ كَوْنَهَا حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ لَا مِنَ إِبْرَاهِيمَ؛ لِأَنَّهُ مُضَافٌ إِلَيْهِ، وَقَدْ عَدَّهَا ابْنُ عَقِيلٍ حَالًا مِنَ إِبْرَاهِيمَ مَجُوزًا مَجِيءُ الحَالِ مِنَ المِضَافِ إِلَيْهِ، انظُر: مَكِّي، المُشْكَلُ، 426/1، وَابْنُ الأَنْبَارِيِّ، البَيَانُ، 85/2، وَابْنُ عَقِيلٍ، بَهَاءِ الدِّينِ (769هـ)، شَرَحَ ابْنُ عَقِيلٍ، تَحْقِيقُ مُحَمَّدٍ مَحْيِي الدِّينِ عَبْدِ الحَمِيدِ، ط1، دَارُ الخَيْرِ، بِيروَت، 1990م، 536/1.

وَلَكِنَّ هَذَا الْإِنْفِتَاحَ الدَّلَالِيَّ قَدْ يَكُونُ ذَا صِبْغَةٍ سَلْبِيَّةٍ فِي سِيَاقٍ آخَرَ، فَقَدْ يُعْرَضُ عَلَى الْمَرْءِ إِشْكَالٌ مَرْدُهُ إِلَى صَاحِبِ الْحَالِ؛ وَذَلِكَ نَحْوَ "قَابَلُ زَيْدٌ عَمْرًا ضَاحِكًا"، وَالْإِشْكَالُ وَقَعَ هَهُنَا فِي تَعْيِينِ صَاحِبِ الْحَالِ؛ إِذْ إِنَّهَا تَتَرَدَّدُ فِي عَوْدِهَا بَيْنَ اثْنَيْنِ، وَهُمَا زَيْدٌ وَعَمْرُو، وَلَعَلَّ هَذَا الْإِشْكَالُ مُنْتَفٍ فِي دِلَالَتِهِ الْكَلِمَةِ عَنِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ، بَلْ إِنَّ الْإِنْفِتَاحَ ذَاكَ يُثِيرُ فِي النَّفْسِ اسْتِخْصَانًا.

وَقَدْ يَتَجَلَّى انْفِتَاحُ الدَّلَالَةِ فِي الْمُسْتَوَى التَّرْكِيبِيِّ فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، وَمِنْ ذَلِكَ: "إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ"<sup>(1)</sup>، فَقَدْ يَكُونُ الْمَعْنَى -كَمَا هُوَ جَلِيٌّ مِنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ- أَنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادِيًا يَخْتَصُّونَ بِهِ، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى مُقْتَنَصٌ مِنَ الْأَلْفَاظِ بِاعْتِبَارِهَا فِي أَمَاكِنِهَا الْأُولَى:

إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ.

وَيَكُونُ "هَادٍ" مُبْتَدَأً تَقَدَّمَ خَبْرُهُ، وَهُوَ: "لِكُلِّ قَوْمٍ"، وَقَدْ تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ "مُنذِرٍ"، وَالْوَاوُ تَعَطَّفُ فِي هَذَا السِّيَاقِ جُمْلَةً عَلَى جُمْلَةٍ، وَقَدْ تَنْفِخُ الدَّلَالَةُ نَحْوَ مَعْنَى آخَرَ مَرْدُهُ إِلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ؛ وَذَلِكَ نَحْوُ:

إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَهَادٍ لِكُلِّ قَوْمٍ

وَيُصَدِّقُ هَذَا الْإِنْفِتَاحَ الدَّلَالِيَّ قَوْلُ الْحَقِّ -تَبَارَكَ- "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ"<sup>(2)</sup>، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ اعْتِبَارَ "هَادٍ" مَعْطُوفَةً عَلَى "مُنذِرٍ" يُؤْذِنُ بِالْقَوْلِ إِنَّ الْكَلَامَ لَمْ يَتَمَّ عِنْدَ قَوْلِهِ "مُنذِرٍ"، وَإِنَّ "الْوَاوُ" تَعَطَّفُ كَلِمَةً عَلَى كَلِمَةٍ، وَهُمَا: أَنْتَ مُنذِرٌ وَهَادٍ<sup>(3)</sup>، وَلَا شَيْءَ يَدْفَعُ هَذَا الْوَجْهَ الدَّلَالِيَّ الْمُعْجَبَ.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ قَوْلُهُ: "ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا"<sup>(4)</sup>.

إِذَا أَنْعَمَ الْمَرْءُ النَّظَرَ فِي هَذَا التَّرْكِيبِ فَإِنَّهُ سَيَقِفُ وَجَاهَ مَعْنِيَيْنِ: أَوَّلُهُمَا أَنْ تَكُونَ "أَمْنَةً" مَفْعُولًا بِهِ مَنْصُوبًا: أَنْزَلَ أَمْنَةً، ثُمَّ تَأْتِي كَلِمَةُ "نُعَاسًا" لِتُقَسِّرَ هَيْئَةً هَذِهِ "الْأَمْنَةَ"، فَتَكُونُ بَدَلًا مِنْهَا: أَمْنَةً نُعَاسًا، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْإِعْرَابَ مُنْقَبَلٌ لَا يُدْفَعُ، وَلَكِنَّ وَجْهَ الْإِعْجَازِ الْمُتَمَثِّلِ فِي

(1) الآية (الرعد، 8).

(2) الآية (سبأ، 28).

(3) أشار إلى المعنيين: النحاس، إعراب القرآن، 352/2، وقد رجح العطف، والمعنى عنده: إنما أنت

منذر وهاد، ومكي، المشكل، 48/2.

(4) الآية (آل عمران، 154).

تَغْيِيرِ أَمَاكِنِ الْكَلِمَاتِ قَدْ يُفْضِي إِلَى مَعْنَى جَدِيدٍ، وَيَكُونُ إِعْرَابُ "نُعَاسًا" مَفْعُولًا بِهِ، ثُمَّ تَجِيءُ "أَمْنَةً" لِتُجَلِّيَ السَّبَبَ، أَوْ لِتُجَلِّيَ الْحَالَ، فَتَكُونُ مَفْعُولًا لَهُ مُتَقَدِّمًا، أَوْ حَالًا، وَكَأَنَّهَا جَوَابٌ عَنِ السُّؤَالِ: لِمَاذَا أَنْزَلَ اللَّهُ نُعَاسًا؟ فَيَكُونُ: لِلْأَمْنَةِ أَوْ لِلْأَمْنِ.

وَوَجْهُ الإِعْجَازِ فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ أَنَّ الْكَلِمَةَ الْوَاحِدَةَ قَدْ احْتَمَلَتْ غَيْرَ مَعْنَى نَحْوِيٍّ، فَالْكَلِمَةُ "أَمْنَةً" تَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مَفْعُولًا بِهِ، أَوْ مَفْعُولًا لَهُ، وَنُعَاسًا" تَتَرَدَّدُ بَيْنَ كَوْنِهَا بَدَلًا، أَوْ مَفْعُولًا بِهِ<sup>(1)</sup>.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ الْإِنْفِتَاحِ الدَّلَالِيِّ الْآتِي مِنْ تَعَدُّدِ الْمَعَانِي النَّحْوِيَّةِ قَوْلُهُ -تَبَارَكَ-: "وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ"<sup>(2)</sup>، وَالظَّاهِرُ أَنَّ "غَيْرَ" تَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ فِي سِيَاقِهَا الشَّرِيفِ:

- مُصَدَّرًا: وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ إِزْلَافًا غَيْرَ بَعِيدٍ.
- أَوْ ظَرْفًا: وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ غَيْرَ بَعِيدٍ.
- أَوْ حَالًا: وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ الْإِزْلَافَ فِي حَالِ كَوْنِهِ غَيْرَ بَعِيدٍ<sup>(3)</sup>.

إِخَالُ أَنْ إِفْتِتَاحِ الدَّلَالَةِ الَّذِي يَحْتَمِلُهُ إِعْرَابُ "غَيْرَ" فِي سِيَاقِهَا يَتَّفِقُ وَدِلَالَةَ السِّيَاقِ الْكَلِمِيَّةِ، فَالْإِزْلَافُ غَيْرُ بَعِيدٍ لَا فِي حَالِهِ، وَلَا فِي زَمَانِهِ، وَلَا فِي تَأْكِيدِهِ "المصدر"، وَاللَّافِئُ لِلْخَاطِرِ أَنَّ تَلْكَمُ الْمَعَانِي النَّحْوِيَّةِ الَّتِي تَحْتَمِلُهَا كَلِمَةُ "غَيْرَ"، وَهِيَ الْمَصْدَرِيَّةُ، وَالظَّرْفِيَّةُ، وَالْحَالِيَّةُ، مُتَبَايِنَةٌ، وَلَكِنَّهَا كُلُّهَا تَلْتَقِي مَعًا لِتُجْمَعَ عَلَى تَأْكِيدِ إِزْلَافِ الْجَنَّةِ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَيْسَ بَاعِثُ هَذَا الْإِنْفِتَاحِ الدَّلَالِيِّ اعْتِبَاطِيَّةً عَرَضِيَّةً، فَهُوَ مِنَ اللَّهِ الَّذِي قَدَّرَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَحْسَنَ.

وَقَدْ يَتَجَلَّى انْفِتَاحُ الدَّلَالَةِ فِي الْمُسْتَوَى التَّرْكِيبِيِّ مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْإِسْمِ؛ وَذَلِكَ نَحْو: ضَرْبِ عَلِيٍّ، أَوْ قَتْلِ الصَّيَادِينَ<sup>(4)</sup>، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ هَذَا التَّرْكِيبَ الْبِنْيَوِيَّ بَاعِثُ مِنْ بَوَاعِثِ

(1) أشار إلى المعنيين: النحاس، إعراب القرآن، 413/1، ومكي، المشكل، 177/1، وابن الأنباري، البيان، 226/1.

(2) الآية (ق، 31).

(3) انظر إعراب هذه الآية: النحاس، إعراب القرآن، 230/4، والعكبري، التبيان، 1176/2، وابن هشام، مغني اللبيب، 729/2.

(4) الحديث عن الإضافة يتصل بمبحث الغموض، وقد عرج على الجمل من مثل "ضرب علي" تشومسكي في معرض حديثه عن البنية السطحية والبنية العميقة، انظر: تشومسكي، نعوم، البنى

الُولُوجِ فِي تَعَدِّدِ الْمَعَانِي وَالْإِحْتِمَالِ، فَقَدْ يَكُونُ الْمَعْنَى فِي "ضَرْبِ عَلِيٍّ" أَنَّ عَلِيًّا يَضْرِبُ النَّاسَ، وَقَدْ يَكُونُ أَنَّ عَلِيًّا هُوَ الْمَضْرُوبُ، كُلُّ ذَلِكَ بِاعْتِهْ اسْتِوَاءُ بِنْيَتَيْنِ عَمِيقَتَيْنِ فِي ثَوْبِ بِنْيَةِ سَطْحِيَّةٍ تَحْتَمِلُ ذَلِكَ الْمَعْنَيْنِ.

وَشَبِيهَةٌ بِهَذَا الْإِحْتِمَالِ الْمُتَقَدِّمِ الْإِحْتِمَالُ الْمَرْكُوزُ فِي قَوْلِهِ -تَقَدَّسَ اسْمُهُ-: "كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ"<sup>(1)</sup>، فَقَدْ قِيلَ إِنَّ هَذَا التَّرْكِيبَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الْفَاعِلِيَّةِ وَالْمَفْعُولِيَّةِ:

- فَإِذَا كَانَ الْمَصْدَرُ "عِبَادَةٌ" مُضَافًا إِلَى الْمَفْعُولِ، فَالْتَقْدِيرُ: "سَتَكْفُرُ الْأَصْنَامُ بِعِبَادَتِهِمْ".
- وَإِنْ كَانَ مُضَافًا إِلَى الْفَاعِلِ فَالْمَعْنَى الْمُتَعَيَّنُ مِنْ هَذَا التَّرْكِيبِ الشَّرِيفِ: سَيَكْفُرُ الْمُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِمْ الْأَصْنَامَ.

وَالَّذِي يَسْتَرَعِي الْخَاطِرَ هُنَا أَنَّ الْإِشْكَالَ الَّذِي نَجِدُهُ فِي قَوْلِنَا: "ضَرْبِ عَلِيٍّ"، أَوْ "قَتْلُ الصَّيَادِينِ"، أَوْ مَا هُوَ مُضَارِعٌ لِذَلِكَ، غَيْرُ قَارٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، بَلْ إِنَّهُ مَلَمَّحٌ ذُو سَهْمَةٍ فِي تَصْوِيرِ حَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْآخِرَةِ، فَهَمُّ أَهْلِ نَدَامَةٍ وَحَسْرَةٍ، وَلِذَا سَيَكْفُرُونَ بِكُلِّ مَا عَبَدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَقَدْ يَكُونُ الْمَعْنَى: أَنَّ كُلَّ مَا عُبدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ سَيَتَحَلَّلُ مِنْ عَابِدِهِ، وَيُصَدِّقُ هَذَيْنِ الْمَعْنَيْنِ الْمُتَجَلِّيَيْنِ فِي بِنْيَةِ وَاحِدَةٍ قَوْلُهُ -تعالى- فِي سِيَاقِ آخَرَ: "ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ"<sup>(2)</sup>.

### فِي الْمُسْتَوَى الْمُعْجَمِيِّ:

وَلَيْسَ مَلْحَظٌ انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ الْمُعْجَبِ مَقْصُورًا عَلَى الْمُسْتَوَى الصَّوْتِيِّ، أَوْ الصَّرْفِيِّ، أَوْ التَّرْكِيبِيِّ، بَلْ إِنَّهُ يَتَعَدَّى ذَلِكَ الْمُتَقَدِّمَ إِلَى الْمُسْتَوَى الْمُعْجَمِيِّ، إِلَى حُدُودِ الْكَلِمَةِ الْمُفْرَدَةِ الْقَائِمَةِ بِرَأْسِهَا، وَمِنْ أَجْلِ بَوَاعِيهِ فِي هَذَا الْمُسْتَوَى "الاشْتِرَاكُ اللَّفْظِيُّ"، كَأَنَّ يَفْعَ تَحْتَ الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ مَعْنِيَانِ أَوْ أَكْثَرَ، أَوْ أَنْ تَكُونَ الْكَلِمَةُ نَفْسُهَا ذَاتَ دِلَالَةٍ عَائِمَةٍ تَتَسَّعُ لِمُدْخَلَاتٍ مُنْتَوَعَةٍ، فَتَنْفَتِحُ دِلَالَتُهَا لِمُقْتَضَى أَرَادَهُ الْحَقُّ جَلًّا.

النحوية، ترجمة يوثيل عزيز، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987م، 116، وانظر

أيضا :

Kooij, j., Ambiguity in Natural Language :An Investigation of Certain Problems in its Linguistics Description, North Holand, Publishing Company, Amsterdam, 1971, P.100.

(1) الآية (مريم، 28).

(2) انظر هذين المعنيين: ابن الأنباري، البيان، 136/2، والعكبري، التبيان، 881/2، وأبو حيان، البحر

المحيط، 202/6.



وَمِنَ الْأَمْثِلَةِ الَّتِي تُخْرَجُ مَا أَنَا خَائِضٌ فِيهِ مِنْ مِضْمَارِ التَّنْظِيرِ إِلَى مِضْمَارِ التَّطْبِيقِ قَوْلُهُ -تَنْزَهُ-: "لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً"<sup>(1)</sup>: لَقَدْ تَمَثَّلَ انْفِتَاحُ الدَّلَالَةِ الْآتِي مِنَ الْمُعْجَمِ فِي قَوْلِهِ: "الْإِلَّ"، فَهِيَ كَلِمَةٌ تَنْتَسِبُ إِلَى الْمُشْتَرَكِ اللَّفْظِيِّ بِنَسَبِ حَمِيمٍ؛ إِذْ إِنَّهُ يَقَعُ تَحْتَهَا غَيْرُ مَعْنَى، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا تَعْنِي:

- إِلَهًا.
- أَوْ الْعَهْدَ.
- أَوْ الْحِلْفَ.
- أَوْ الْقَرَابَةَ.
- أَوْ الْجَوَارَ<sup>(2)</sup>.

وَوَجْهُ الإِعْجَازِ الْمُعْجَبِ فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ هُوَ اشْتِمَالُ "الْإِلَّ" عَلَى مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَهَذِهِ هِيَ حَالُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يَضِيرُهُمْ عَهْدٌ، أَوْ حِلْفٌ، أَوْ قَرَابَةٌ، أَوْ...، وَانْفِتَاحُ الدَّلَالَةِ هَذَا فِيهِ إِلمَاحَةٌ إِلَى نَفْيِ الْمَعْنَى بِكَلِمَتِهِ، وَالْمَلْحَظُ اللَّطِيفُ فِي هَذَا أَنَّ كَلِمَةً وَاحِدَةً قَامَتْ مَقَامَ كَلِمَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مُحْتَمَلَةٍ، وَقَدْ تَنَبَّهَ الطَّبْرِيُّ بِثَاقِبِ بَصَرِهِ، وَبَعِيدِ تَأَمُّلِهِ، إِلَى هَذِهِ إِلمَاحَةِ الْمُعْجَبَةِ فَقَالَ: "الْإِلَّ": اسْمٌ يَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ ثَلَاثَةٍ: وَهِيَ الْعَهْدُ، وَالْعَقْدُ، وَالْحِلْفُ، وَالْقَرَابَةُ، وَهُوَ أَيْضًا بِمَعْنَى اللَّهِ، فَإِذَا كَانَتْ الْكَلِمَةُ تَشْمَلُ هَذِهِ الْمَعَانِيَ الثَّلَاثَةَ، وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ حَصَّ مَن ذَلِكَ مَعْنَى دُونَ مَعْنَى، فَالْصَّوَابُ أَنْ يَعَمَّ ذَلِكَ كَمَا عَمَّ بِهَا جَلَّ ثَنَاؤُهُ مَعَانِيهَا الثَّلَاثَةَ، فَيُقَالُ: لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ اللَّهُ، وَلَا قَرَابَةً، وَلَا عَهْدًا، وَلَا مِيثَاقًا"<sup>(3)</sup>.

وَمِنَ الْأَمْثِلَةِ الَّتِي تُجَلَّى مَطْلَبَ اسْتِشْرَافِ الْإِنْفِتَاحِ الدَّلَالِيِّ الْآتِي مِنَ الْمُعْجَمِ قَوْلُهُ - تَبَارَكَ -: "انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا"<sup>(4)</sup>، وَوَجْهُ الْإِنْفِتَاحِ فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ قَوْلُهُ "خِفَافًا وَثِقَالًا"،

(1) الآية (التوبة، 8).

(2) انظر ما قيل في معنى "الإل": أبو عبيدة، مجاز القرآن، 253/1، وابن قتيبة، تفسير الغريب، 183، وابن عزيز السجستاني (330هـ)، نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز، تحقيق يوسف المرعشلي، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1990م، 126، والزمخشري، الكشاف، 176/2، وأبو حيان، البحر المحيط، 15/5.

(3) انظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (310هـ)، تفسير الطبري، تحقيق محمود شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1969م، 148/14.

(4) الآية (التوبة، 41).

وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَى ذِي نُهْيَةٍ أَنْ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ يَكْتَنِفُهُمَا إِجْمَالٌ وَدِلَالَةٌ عَائِمَةٌ لَا تَقْفُ بِنَا عَلَى مَعْنَى عَلَى وَجْهِ الْإِحْكَامِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ:

- "خِفَافًا" مِنَ السَّلَاحِ، وَ"ثِقَالًا": مُسْتَكْتَرَيْنِ مِنْهُ.
- أَوْ "خِفَافًا" مِنَ الْأَثْقَالِ، وَ"ثِقَالًا" بِهَا.
- أَوْ "خِفَافًا" مِنَ الْعِيَالِ، وَ"ثِقَالًا" بِهِمْ.
- أَوْ "خِفَافًا" مِنَ الْأَتْبَاعِ، وَ"ثِقَالًا" بِهِمْ.
- أَوْ "خِفَافًا" إِلَى الْمُبَارَزَةِ، وَ"ثِقَالًا" فِي الْمُصَابِرَةِ.
- أَوْ "خِفَافًا" بِالْمُسَارَعَةِ وَالْمُبَادَرَةِ، وَ"ثِقَالًا" بَعْدَ التَّرْوِيِّ وَالتَّفَكُّرِ.
- أَوْ "خِفَافًا" مَهَازِيلَ، وَ"ثِقَالًا" سِمَانًا.
- أَوْ "خِفَافًا": شَبَابًا، وَ"ثِقَالًا" شَيْوَحًا.
- أَوْ "خِفَافًا" رُكْبَانًا، وَ"ثِقَالًا" رِجَالًا.
- أَوْ "خِفَافًا" إِلَى الطَّاعَةِ، وَ"ثِقَالًا" عَنِ الْمُخَالَفَةِ<sup>(1)</sup>.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْحَقَّ -تَنَزَّهُ فِي عُلاهِ- قَصَدَ هَذَا الْإِنْفِتَاحَ الدَّلَالِيَّ الْمُعْجَبَ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْمُعْوَلَ عَلَيْهِ فِي الْأَمْرِ الْجِهَادُ الْجِهَادُ، وَقَدْ أَوْمَأَتْ هَاتَانِ الْكَلِمَتَانِ بِإِجْمَالِهِمَا وَعَمُومِ دِلَالَتَيْهِمَا إِلَى أَنَّهُ مَطْلَبٌ لَهُ خَطَرُهُ، وَعَلَّةُ انْتِقَاءِ خُصُوصِيَّةِ مَعْنَى عَلَى وَجْهِ التَّعْيِينِ هِيَ الْعُمُومِيَّةُ الَّتِي احْتَمَلَتْهَا هَذِهِ الْآيَةُ، لِيَكُونَ فَرَضًا عَلَى كُلِّ مُقْتَدِرٍ، وَحُجَّةً عَلَى كُلِّ مُقَصِّرٍ وَمُتَخَاذِلٍ مُنْكَسٍ، وَالَّذِي يُنْمِي مَلَمَحَ الْإِعْجَابِ فِي النَّفْسِ هُوَ أَنَّ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ تَقُومَانِ مَقَامَ جُمْلٍ طَوِيلَةٍ، وَشَرَحَ مُطْنَبٌ.

وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْحَقَّ -سُبْحَانَهُ- جَمَعَ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي كَلِمَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ تَحْضِيضًا، وَفَرَضًا، وَحُجَّةً كَمَا تَقَدَّمَ أَنْفَاءً، وَمُسْتَنْصَفِي الْقَوْلِ فِيهَا -كَمَا يَرَى الْقُرْطُبِيُّ- "أَنَّ النَّاسَ أَمَرُوا جُمْلَةً، أَيِ انْفَرُوا خَفَّتْ عَلَيْكُمْ الْحَرَكََةُ أَوْ ثَقَلَتْ"<sup>(2)</sup>، "لَأَنَّ أَحْوَالَ الْإِنْسَانِ لَا تَخْلُو مِنْ أَحَدٍ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ"<sup>(3)</sup>، وَيُصَدِّقُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي آيَةٍ أُخْرَى: "وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً"<sup>(4)</sup>، وَمِنْ هُنَا نَعُودُ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً إِلَى انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ الَّتِي يَشَعُّ بِمَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ تَتَّقُو دِلَالَةَ السِّيَاقِ الْكَلِمِيَّةِ بِمَا فِيهَا مِنْ أَمْرٍ، أَوْ نُهْيٍ، أَوْ تَوْجِيهِ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ.

(1) انظر هذه المعاني: الزمخشري، الكشاف، 191/2، وأبو حيان، البحر المحيط، 46/5.

(2) انظر: القرطبي، الجامع، 96/8.

(3) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 27/7.

(4) الآية (التوبة، 36).

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ قَوْلُهُ -تَقَدَّسَتْ ذَاتُهُ-: "وَسَيِّدًا وَحَصُورًا"<sup>(1)</sup>.

وَكَمَا انْفَتَحَتْ دِلَالَةُ الْآيَةِ الْفَائِتَةِ فِي قَوْلِ الْحَقِّ: "خِفَافًا وَثِقَالًا" انْفَتَحَتْ دِلَالَةُ هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ فِي قَوْلِهِ: "حَصُورًا"; ذَلِكَ أَنَّهَا تَحْتَمِلُ مَعَانِيَ مُتَبَايِنَةً، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْبَاعِثَ عَلَى تَعَدُّدِ الْمَعَانِي الْوَاقِعَةِ تَحْتَ "حَصُورًا" فِي سِيَاقِهَا هُوَ أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِيَّةِ لِعِلَّةٍ أَرَادَهَا الْحَقُّ تَنْزَهُ، فَأَصْلُ "الْحَصْرِ" الْحَبْسُ وَالْمَنْعُ<sup>(2)</sup>، وَلَمَّا كَانَ الْحَبْسُ يَقَعُ عَلَى أَشْيَاءٍ مُتَبَايِنَةٍ فِي الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ، كَحَبْسِ الشَّهْوَةِ، أَوِ السِّرِّ، أَوِ النَّفْسِ -لَمَّا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ- أَدْنَى بِانْفِتَاحِ دِلَالَتِهَا، وَتَعَدُّدِ وُجُوهِ الْقَوْلِ عَلَيْهَا، فَقِيلَ:

- "الْحَصُورُ" هُوَ الَّذِي لَا يَقْرُبُ النِّسَاءَ إِلَّا مِنَ الْعِنَّةِ، وَأَمَّا مِنَ الْعِقَّةِ وَالْاجْتِهَادِ فِي إِزَالَةِ الشَّهْوَةِ مَعَ الْقُدْرَةِ، وَهَذَا أَصْحُ الْأَقْوَالِ عِنْدَ الْقُرْطُبِيِّ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ ثَنَاءٌ عَلَيْهِ، وَ"الْتِنَاءُ" يَكُونُ عَنِ الْفِعْلِ الْمُكْتَسَبِ دُونَ الْجِبَلَةِ فِي الْغَالِبِ"<sup>(3)</sup>.

- وَقِيلَ الْحَصُورُ هُوَ الَّذِي لَا يُوَلِّدُ لَهُ.

- أَوْ الَّذِي لَا يَخْرُجُ مَعَ النَّدَامَى.

- أَوْ الَّذِي لَا يُخْرَجُ سِرًّا أَبَدًا<sup>(4)</sup>.

وَكَلَّ ذَلِكَ مُحْتَمَلٌ يَجِيءُ مَجِيئًا صَالِحًا، وَوَجْهُ الْإِعْجَازِ هَهُنَا هُوَ انْفِتَاحُ دِلَالَتِهَا، وَانْتِقَاءُ اقْتِصَارِهَا عَلَى مَعْنَى عَلَى وَجْهِ الْإِحْكَامِ، كُلُّ ذَلِكَ فِيهِ تَلْمِيحٌ، بَلْ تَصْرِيحٌ بِشَرْفِ هَذَا النَّبِيِّ الْحَصُورِ الَّذِي لَا يُخْرَجُ سِرًّا، أَوْ الَّذِي لَا يَخْرُجُ مَعَ النَّدَامَى، أَوْ الَّذِي اجْتَهَدَ فِي إِزَالَةِ الشَّهْوَةِ وَحَضْرَتِهَا تَعَقُّفًا، وَلَيْسَ يَخْفَى ثَانِيَةً وَثَالِثَةً أَنَّ كَلِمَةً وَاحِدَةً، وَهِيَ "حَصُورًا" فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ، حَمَالَةٌ لِأُوجُهٍ مُتَعَبِّلَةٍ فِي دِلَالَتِهَا مُتَضَافِرَةٍ، وَهِيَ مِنْ وُجْهِ أُخْرَى، تُغْنِي عَنْ جُمَلٍ كَثِيرَةٍ، وَقَوْلٍ بَسِيطٍ.

وَالْحَقُّ أَنَّ هَذَا الْمَلْحَظَ لَهُ حُضُورٌ جَلِيٌّ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ، وَحَسْبِي فِي مُخْتَمِّمِ التَّعْرِيجِ عَلَيْهِ الْإِشَارَةُ إِلَى قَوْلِ ابْنِ قُتَيْبَةَ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى- مُتَلَمِّسًا هَذَا الْانْفِتَاحَ الدَّلَالِيَّ الْمُعْجَبَ، مُلَمِّحًا

(1) الآية (آل عمران، 39).

(2) انظر: ابن قتيبة، تفسير الغريب، 10، وابن فارس، المقاييس، مادة "حصر"، وابن منظور، اللسان، مادة "حصر".

(3) انظر: القرطبي، الجامع، 50/4.

(4) انظر هذه المعاني: أبو عبيدة، مجاز القرآن، 92/1، وابن قتيبة، تفسير الغريب، 105، وابن عزيز، نزهة القلوب، 200، والطبرسي، مجمع البيان، 222/2، وأبو حيان، البحر المحيط، 467/2-

بل مُصْرِحًا بأن دِلَالَةَ "يُنزِفُونَ" تَتَّسَعُ لِمُدْخَلَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ: "وَتَبَيَّنَ قَوْلُهُ فِي وَصْفِ حَمْرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: "لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ" كَيْفَ نَفَى عَنْهَا بِهِدَيْنِ اللَّفْظَيْنِ جَمِيعَ غُيُوبِ الْحَمْرِ، وَجَمَعَ بِقَوْلِهِ: "وَلَا يَنْزِفُونَ" عَدَمَ الْعَقْلِ، وَذَهَابَ الْمَالِ، وَنَفَادَ الشَّرَابِ"<sup>(1)</sup>.

### احْتِرَاسٌ وَتَقَابُلٌ:

عَوْدًا عَلَى بَدْءٍ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ الْعَوْدُ أَحْمَدَ، فَقَدْ تَقَدَّمَ احْتِرَاسٌ مَضْمُونُهُ أَنَّ الْإِنْفِتَاحَ الدَّلَالِيَّ لَيْسَ مُلْتَمَى عَلَى عَوَاهِنِهِ يَأْتِي فِي كُلِّ سِيَاقٍ قُرْآنِيٍّ شَرِيفٍ، بَلِ الْأَمْرُ بِالصِّدِّ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْمُتَبَصِّرَ قَدْ يَقِفُ وَجَاهَ آيَاتِ كَرِيمَاتٍ يَتَجَلَّى فِيهَا انْغِلَاقُ الدَّلَالَةِ وَاقْتِصَارُهَا عَلَى وَجْهَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَمِنْ ذَلِكَ فِي الْمُسْتَوَى الصَّوْتِيِّ، الْمَفَاصِلُ الصَّوْتِيَّةُ، فَالْمُحْتَكَمُ الْأَوَّلُ هُوَ الْمَعْنَى، فَقَدْ يَحْدُثُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ أَنْ يُفْضَى وَقْفٌ عَارِضٌ إِلَى الْوُلُوجِ فِي الْخَطَأِ وَقَلْبُ الْمَعْنَى مِنْ بَوَابَةٍ عَرِيضَةٍ؛ وَذَلِكَ نَحْوَ قَوْلِهِ -تَنَزَّهَ-: "إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ، وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ، ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ"<sup>(2)</sup>:

لَعَلَّهُ مِنَ الْخَطَأِ الْمُبَدَّلِ لِلْمَعْنَى الْمُرَادِ أَنْ يَظْهَرَ الْكَلَامُ مُتَوَاشِجًا غَيْرَ مُتَفَاصِلٍ؛ ذَلِكَ أَنَّ أَطْرَاحَ الْمَفْصِلِ يُفْضَى إِلَى دِلَالَةٍ غَيْرِ مُرَادَةٍ، وَهُنَا يَأْتِي مَلْحَظُ "انْغِلَاقِ الدَّلَالَةِ" عَلَى وَجْهِ الْإِحْكَامِ، وَلِذَا يَتَّعَيْنُ عَلَى الْقَارِئِ أَنْ يَتَلَبَّثَ فِي سَكْتَةٍ خَفِيفَةٍ لِفَسْخِ نَسِيجِ التَّرْكِيبِ الْمُؤَدِّنِ بِتَعْيِينِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ<sup>(3)</sup>، وَهُوَ: "إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ Δ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ"، وَبِهَذَا الْمَفْصِلِ يُرْفَعُ عَنِ الْخَاطِرِ الْأَوَّلِ وَهُمْ قَدْ يَجْعَلُهُ يَوْمَهُمْ إِذْ يَظُنُّ أَنَّ "الْمَوْتَى" اسْمٌ مَعْطُوفٌ عَلَى "الَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ"، وَأَنَّى لَهُمْ ذَلِكَ؟

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ قَوْلُ الْحَقِّ: "فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ"<sup>(4)</sup>، ذَلِكَ أَنَّهُ رُبَّمَا قَفَرَ إِلَى الْخَاطِرِ وَهُمْ مُؤَدَّاهُ أَنْ مَا بَعْدَ كَلِمَةِ "قَوْلُهُمْ" مَحْكِيٌّ بِالْقَوْلِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ

(1) انظر: ابن قتيبة (276هـ)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، 1973م، 7، والآية (الواقعة، 19).

(2) الآية (الأنعام، 36).

(3) انظر: الزركشي، البرهان، 353/1، وابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء، 632/2.

(4) الآية (ياسين، 76).

كذلك البتة، لأنه ليس مقولا لهم<sup>(1)</sup>، ولذا يجب على الفارئ أن يقف وقفا تاما عند قول الحق - تنزهه-: "فلا يحزنك قولهم  $\Delta$  إنا نعلم ما يُسرّون" حتى تتغلق الدلالة، فلا يُظن أن "إنا نعلم ما يُسرّون" وما يُعلنون" هي من قولهم.

وانغلاق الدلالة واقع في المستوى الصرفي أيضا، والمعول عليه هو المعنى، فليس يصح أن يكون تناوب الصيغ سائرا على هوى النفس، وقد يتجلى الإعجاز المعجب في انغلاق الدلالة كما تجلّى في انفتاحها، ومن ذلك قول الحق -تبارك وتعالى-: "فلعلك تاركٌ بعض ما يُوحى إليك وضائق به صدرك"<sup>(2)</sup>، فمعلوم أن اسم الفاعل يقتضي الحدوث والزوال، أما الصفة المشبهة فوضعتها على الإطلاق الذي لا يقتضي الحدوث، بل الاستمرار، ولذلك نقول في "حسن"، وهي صفة مشبهة، حاسن الآن أو غدا<sup>(3)</sup>.

ويصدق هذا قوله -تعالى-: "وضائق به صدرك"، ووجه الإعجاز المعجب في هذه البنية الصرفية أنها جاءت على وزن اسم فاعل: "ضائق: فاعل"، ولم يقل -تبارك-: "ضيق به صدرك"؛ ذلك أن "ضيق" صفة مشبهة تقتضي اللزوم والثبوت، وحاش لله أن ينعت رسوله بهذا النعت<sup>(4)</sup>، بل هو الرحيم الودود الذي قال الحق في حقه: "ولو كُنتَ فظا غليظ القلب لانقضوا من حولك"<sup>(5)</sup>، حقا أن انغلاق الدلالة وتوجيهها وجهة واحدة ذو سهمية في بيان الإعجاز.

ومما يلحق بركب ما تقدّم أنفا قوله: "وهو أهون عليه"<sup>(6)</sup>. معلوم أن الصيغة الصرفية "أفعل" قد تكون على محمل التفضيل؛ وذلك نحو: محمدٌ أذكى من سعيدٍ، وقد تكون صفة مشبهة تقتضي اللزوم والثبوت؛ وذلك نحو: "أعور" و"أعمى"، ولكن، ليس يصح في الفهم البتة أن تكون "أهون" في قوله -تعالى-: "وهو أهون عليه" اسم

(1) انظر: ابن هشام، مغني اللبيب، 502/2، وقد عدّه النحاس والداني قطعاً تاماً، انظر: القطع والائتناف، تحقيق أحمد العمر، ط1، مطبعة العاني، بغداد، 1978م، 601، والداني، المكتفى، 302.

(2) الآية (هود، 12).

(3) انظر: الأسترابادي(686هـ)، شرح كافية ابن الحاجب، تحقيق إميل يعقوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، 483/3.

(4) انظر: الأسترابادي، شرح الكافية، 484/3.

(5) الآية (آل عمران، 159).

(6) الآية (الروم، 27).

تفضيل؛ إذ إنه ليس ثم شيء أهون على الله من شيء تنزه وتعالى علواً كبيراً، ولذلك وجب -  
وفي الوجوب جزم- أن يُطرح الظن بانفتاح الدلالة، أو احتمالها، أو عدّ "أهون" اسم تفضيل،  
بل يُفاء في هذا السياق إلى ملحظ "انغلاق الدلالة"، لتكون "أهون" في ذلك السياق الشريف  
صفةً مُشبهةً تُقتضي الثبوت، وهي بمعنى: "هينٌ عليه"<sup>(1)</sup>.

وقد يتجلى ملحظ انغلاق الدلالة في المستوى التركيبي، ومن ذلك ما يرد على  
المتبصر في "التقديم والتأخير"، والحق أنه لا يستقيم أن يُقال إن كلّ تقديم وتأخير يكتنفه انفتاح  
دلالي، فقد يكون الأمر بالصدق؛ ذلك أن تقديم كلمة، وتأخير أخرى، باعثٌ من بواعث حصر  
المعنى وتعيينه على الهيئة التي جاء عليها نظم الكلم، ولعلّ هذا الذي أنا خائض فيه يقودني  
إلى نظر الجرجاني الثاقب القائل بأنه "إذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس وجب للفظ  
الدالّ عليه أن يكون مثله أولاً في النطق"<sup>(2)</sup>.

ومن أمثلة انغلاق الدلالة وتوجيهها وجهةً واحدةً قوله -تعالى-: "أفأصفاكم ربكم  
بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً"<sup>(3)</sup>، فهذا ردٌّ على المشركين، وتكذيبٌ لهم، والملاحظ أن الفعل  
"أصفاكم" تقدم على الفاعل "ربكم"، وفي هذا نكتةً بيانيةً دلالتها فيها لمحةً إعجازٍ مُعجبةً،  
ومضمونها أن هذا الاستفهام الاستنكاريّ كامنٌ في الفعل من أصله، ولو قدّم الحكيم الاسم  
"ربكم" لصار الإنكار في الفاعل<sup>(4)</sup>، وحاش لله أن يكون ذلك، وشبيهةً بهذا قولنا: "أنت قلت هذا  
الشعر"، فالسائل المستهجن يُنكر أن يكون المخاطب هو القائل، ولكنّه لا يُنكر الشعر، والله -  
تبارك- يُنكر فعل "الاصطفاء" على وجه التّحديد، ولو قدّم الاسم "ربكم" لصار يُنكر الفاعل،  
وهو "ربكم"، ومعنى هذا أن ثمّ فاعلاً آخرَ أذنَ بذلك الاصطفاء، وهذا مما لا يجوز في مقام  
الحقّ تعالى علواً كبيراً، ولكن المراد إنكار كون الفعل حاصلًا من أصله.

## علة العلة:

ويعدُّ،

(1) انظر: أبو عبيدة، مجاز القرآن، 121/2، والمبرد، المقتضب، 246/3، وابن يعيش (643هـ)، شرح  
المفصل، عالم الكتب، بيروت، د.ت، 103/6.

(2) انظر: الجرجاني، عبد القاهر (471هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ط2، مكتبة الخانجي،  
القاهرة، 1989م، 25.

(3) الآية (الإسراء، 40).

(4) انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، 114.

فالذي تَقَدَّمَ قَبْلَهُ حَدِيثُ مَضْمُونِهِ "انْفِتَاحُ الدَّلَالَةِ"، وَقَدْ بَيَّنَّتْ عِلَّتَهُ وَمَوَاضِعَهُ، وَيَبْقَى حَقًّا عَلَيَّ، اسْتِكْمَالًا لِمُسْتَلْزَمَاتِ الْبَحْثِ، أَنْ أُعْرَجَ عَقَبَ هَذَا الْمُتَقَدِّمِ عَلَى عِلَّةِ الْعِلَّةِ، وَلَعَلَّ أَوْلَهَا أَنَّهَا وَجْهٌ مِنْ وَجُوهِ الإِعْجَازِ الْخَالِدِ الْمُفْضِي إِلَى التَّفْهِيمِ: "وَمَا هُوَ بِقَوْلِ بَشْرٍ"، فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ كَلِمَةً وَاحِدَةً تُغْنِي عَنْ جُمْلَةٍ تَبْسُطُ فِي الْقَوْلِ وَتُطَوِّلُ، وَأَنَّ تَرْكِيبًا بِنْيُويًا وَاحِدًا يَقَعُ تَحْتَهُ مَعْنِيَانِ أَوْ مَعَانٍ لِمَقْتَضَى أَرَادَهُ الْحَقُّ، وَأَنَّ صِغَةً صَرْفِيَّةً وَاحِدَةً تَحْتَمِلُ مَعَانِي صَرْفِيَّةً مُتْبَايِنَةً، وَأَنَّ الْمَفَاصِلَ الصَّوْتِيَّةَ تَعْمَلُ عَلَى انْفِصَاحِ نَسِيحِ التَّرْكِيبِ لِتَعْيِينِ الْمَعَانِي النَّحْوِيَّةِ، وَأَنَّ تَبَايُنَ الْقَوْلِ عَلَى مَوَاضِعِهَا بَاعِثٌ مِنْ بَوَاعِثِ انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ وَتَعَدُّدِ الْمَعَانِي.

مِنْ وَجْهَةٍ ثَانِيَّةٍ، إِخَالُ أَنَّهُ يُنْضَافُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ أَيْضًا عِلَّةٌ ثَانِيَّةٌ تُؤَدِّنُ بِهَذَا الانْفِتَاحِ الدَّلَالِيَّ؛ إِذْ إِنَّ انْفِتَاحَ الدَّلَالَةِ قَدْ يُفْضِي فِي بَعْضِ مَثَلِهِ إِلَى قِيَامِ أَحْكَامٍ فِقْهِيَّةٍ تَتَضَمَّنُهَا آيَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الْعَظِيمِ بِعِبَادِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ -تعالى-: "أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ"<sup>(1)</sup>، فَانْفِتَاحُ الدَّلَالَةِ آتٍ مِنَ التَّرَدُّدِ فِي اقْتِنَاصِ الْمُتَعَيِّنِ مِنَ "اللَّمْسِ"، فَقَالَ فَرِيقٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ إِنَّ لَمَسَهَا لَا يَنْفُضُ الْوُضُوءَ، وَذَهَبَتْ ثَلَاثَةٌ أُخْرَى مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ لَمَسَ الْمَرْأَةِ الَّتِي لَيْسَتْ بِمَحْرَمٍ يَنْفُضُ الْوُضُوءَ؛ إِذْ إِنََّّ هُمْ فَسَّرُوا اللَّامَسَ بِمَسِّ الْبَشَرَةِ<sup>(2)</sup>.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ قَوْلُهُ -تبارك-: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ"<sup>(3)</sup>، وَالظَّاهِرُ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ أَنَّ الْمَسْحَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْوُضُوءِ، وَلَكِنَّ الْاِخْتِلَافَ الْفِقْهِيَّ وَقَعَ فِي مِقْدَارِ الْمَسْحِ الْمُتَعَيِّنِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْاِخْتِلَافَ الْفِقْهِيَّ قَائِمٌ فِي أَصْلِهِ عَلَى اِخْتِلَافٍ لُغَوِيٍّ؛ ذَلِكَ أَنَّ تَمَّ انْفِتَاحًا فِي دِلَالَةِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، فَقَدْ قِيلَ إِنَّ الْبَاءَ زَائِدَةٌ، وَالْمَعْنَى الْمُتَحَصِّلُ: "فَأَمْسَحُوا رُءُوسَكُمْ"، وَقَدْ جَنَحَ آخَرُونَ إِلَى

(1) الآية (النساء، 43).

(2) انظر ما قيل في معنى اللمس: ابن فارس، المقاييس، مادة "لمس"، وابن عزيز، نزهة القلوب، 388، والجرجاني، أبو العباس أحمد بن محمد (482هـ)، المنتخب من كُنَايَاتِ الْأَدْبَاءِ وَإِرْشَادَاتِ الْبَلْغَاءِ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984م، 9، وقد ذهبوا إلى أن اللمس في الآية الشريفة كناية عن الجماع. انظر: ابن قدامة المقدسي، المغني، مطبعة الفجالة، القاهرة، 1968م، 142/1، وأبو حيان، البحر المحيط، 296/3.

(3) الآية (المائدة، 6).

عَدَّهَا أَصْلِيَّةً مَعْنَاهَا التَّبَعِيضُ، وَالْمَعْنَى: "بَعْضُ رُؤُوسِكُمْ"<sup>(1)</sup>، وَالْحَقُّ أَنَّ أَمْثَلَةَ تَعَدَّدِ الْأَحْكَامِ الْفِقْهِيَّةِ الْآتِيَّةِ مِنْ انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ كَثِيرَةً، وَالتَّنْزِيلُ بِهَا مُسْتَقْبِضٌ، وَهِيَ، مِنْ وَجْهَةٍ أُخْرَى، تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّنَا وَرَحْمَةٌ.

مِنْ وَجْهَةٍ ثَالِثَةٍ، قَدْ يَكُونُ فِي انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ تَأْكِيدٌ وَتَعْمِيمٌ عَلَى أَمْرٍ بِكَلْبَتِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ قَبْلًا أَمْثَلَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ مِنْ مُسْتَوِيَّاتٍ مُتَبَايِنَةٍ تَسْنُدُ هَذَا الَّذِي أَنَا خَائِضٌ فِيهِ؛ وَذَلِكَ نَحْوُ دِلَالَةِ "الْحَصْرِ"، أَوْ "خِفَافًا وَثِقَالًا"، أَوْ "يُضَارُّ"، وَلَيْسَ يَسْتَقِيمُ فِي الْفَهْمِ أَنْ يَذْهَبَ الْخَاطِرُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَمْثَلَةَ هَكَذَا جَاءَتْ وَاسْتَوَى أَمْرُهَا؛ إِذْ إِنَّمَا لَيْسَتْ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ، بَلْ مِنْ رَبِّ الْبَشَرِ الَّذِي عِنْدَهُ كُلُّ شَيْءٍ بِمِقْدَارٍ، وَلِذَا قَدْ يَتَّعِنُ مِنْ هَذَا الْانْفِتَاحِ الدَّلَالِيِّ تَأْكِيدٌ لِمَا أَرَادَهُ الْحَقُّ، أَوْ نَفْيٌ لِأَمْرٍ مَا، وَاسْتِمَالٌ لِمَعَانٍ مُتَنَوِّعَةٍ لَمْ يَخْصَّ اللَّهُ مِنْهَا مَعْنَى دُونَ مَعْنَى، وَيَبْقَى هَذَا الْمَلْحَظُ الْمُعْجَبُ مُفْضِيًّا إِلَى ذَهَابِ الْخَاطِرِ إِلَى مَعَانٍ مُتَنَوِّعَةٍ تَتَّقَى فِي دِلَالَتِهَا وَدِلَالَةِ السِّيَاقِ الْكَلْبِيَّةِ.

وَبَعْدُ،

فَهَذَا يَكْثُرُ إِنْ تَتَّبَعْتُهُ، وَقَدْ أوردتُ أَمْثَلَةً تُثَبِّهُ عَلَى الْغَرَضِ الَّذِي قَصَدْتُهُ، وَمَا هُوَ إِلَّا نَزْرٌ يَسِيرٌ مِنْ مَجْمُوعِ مُتَكَاتِرٍ يُؤَدِّنُ بِالتَّقْرِيرِ الْقَائِلِ: إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطُلَاوَةً، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثَمَّرٌ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُعْدَقٌ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ بَشَرٍ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي هَذَا خَالِصًا لَوَجْهِكَ الْكَرِيمِ، حُجَّةً لِي لَا عَلَيَّ يَوْمَ الْعَرَضِ عَلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ.

(1) انظر: ابن هشام، مغني اللبيب، 1/143، وقد ذكر معنى الاستعانة، ورجح معنى الإلصاق، أما العكبري فقد زيادتها رافضا كونها للتبعيض، انظر: التبيان، 1/422، وانظر خلاف الفقهاء: عبد الوهاب طويلة، أثر اللغة في اختلاف المجتهدين، دار السلام، القاهرة، 1414هـ، 193.



### ثبت المصادر والمراجع:

- الأُفَش، أبو الحسن سعيد بن مسعدة (215هـ)، معاني القرآن، تحقيق هدى قرارة، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990م.
- الأُسْتَرَابَازِي، رضي الدين محمد بن الحسن (686هـ)، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق محمد الحسن وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982م.
- الأُسْتَرَابَازِي، رضي الدين محمد بن الحسن (686هـ)، شرح كافية ابن الحاجب، تحقيق أميل يعقوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد (577هـ)، البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق طه عبد الحميد طه، مراجعة مصطفى السقا، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1980م.
- ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم (328هـ)، إيضاح الوقف والابتدا في كتاب الله عز وجل، تحقيق محيي الدين رمضان، ط1، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1971م.
- الجرجاني، أبو العباس أحمد بن محمد (482هـ)، المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984م.
- باي، ماريو، أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، منشورات جامعة طرابلس، طرابلس، 1973م.
- تشومسكي، نعوم، البنى النحوية، ترجمة يوثيل عزيز، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987م.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (471هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1989م.
- أبو حيان، محمد بن يوسف (745هـ)، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م.
- الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد (444هـ)، المكتفى في الوقف والابتداء، ط1، تحقيق جابر مخلف، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، 1983م.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، 1987م.

- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (538هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، القاهرة، 1977م.
- السجستاني، أبو بكر محمد بن عزيز (330هـ)، نزهة القلوب في تفسير القرآن العزيز، تحقيق يوسف المرعشلي، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1990م.
- ابن السّيد، عبد الله بن محمد البطليوسي (521هـ)، الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم، تحقيق محمد الدايدة، ط3، دار الفكر، بيروت، 1987م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة الباز، ط2، مكتبة الباز، الرياض، 1998م.
- الطبرسي، الفضل بن الحسن (5--هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (310هـ)، تفسير الطبري، تحقيق محمود شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1969م.
- عبد الوهاب طويلة، أثر اللغة في اختلاف المجتهدين، دار السلام، القاهرة، 1414هـ.
- أبو عبيدة، مَعْمَر بن المثنى (210هـ)، مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1962م.
- ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله (769هـ)، شرح ابن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط1، دار الخير، بيروت، 1990م.
- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (616هـ)، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي البجاوي، ط2، دار الجيل، بيروت، 1987م.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (505هـ)، المستصفى في علم الأصول، تحقيق إبراهيم رمضان، دار الأرقم، بيروت، 1994م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (395هـ)، معجم مقاييس اللغة، ط1، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1991م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (395هـ)، الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائله وسنن العرب في كلامها، تحقيق عمر الطباع، ط1، مكتبة المعارف، بيروت، 1993م.
- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (207هـ)، معاني القرآن، تحقيق أحمد نجاتي، ومحمد النجار، الدار المصرية، القاهرة، 1955م.

- القرطبي، محمد بن أحمد(671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم(276هـ)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، 1973م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم(276هـ)، تفسير غريب القرآن، تحقيق السيد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م.
- ابن قدامه المقدسي(620هـ)، المغني، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، 1968م.
- القسطلاني، شهاب الدين أحمد بن محمد(923هـ)، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق عامر السيد عثمان، وعبد الصبور شاهين، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1972م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد(285هـ)، المقتضب، تحقيق محمد عزيمة، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1968م.
- مكّي بن أبي طالب(437هـ)، مشكل إعراب القرآن، تحقيق حاتم الضامن، وزارة الإعلام، بغداد، 1975م.
- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم(711هـ)، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، (د . ت).
- النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد(338هـ)، إعراب القرآن، تحقيق زهير زاهد، ط3، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، بيروت، 1988م.
- النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد(338هـ)، القطع والانتشاف، تحقيق أحمد العمر، ط1، مطبعة العاني، بغداد، 1978م.
- ابن هشام، جمال الدين بن هشام(761هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق مازن المبارك، ومحمد حمد الله، ط2، مكتبة سيد الشهداء، د . ن، 1972م.
- ابن يعيش، موفق الدين(643هـ)، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، د . ت.

#### الإنجليزية :

- Katamba, F., An Introduction to Phonology, Longman, New York, 1989.
- Kooij, J. , Ambiguity in Natural Language; An Investigation of Certain Problems in its Linguistics Description, North Holand, Publishing Company, Amsterdam, 1971.
- Robins, R.H.,General Linguistics, Longman, New York, 1989.

- Singh ,S., Phonetics: Principles and Practise, University of Park Press, 1982.

### المُحْتَكَمَاتُ الَّتِي صَدَرَ عَنْهَا ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي تَأْوِيلِ مُشْكِْلِ الْقُرْآنِ ۝

لَيْسَ الْمَقْصِدُ الْمُتَعَيَّنُ مِنْ هَذِهِ الْمُبَاحَثَةِ أَنْ تَكُونَ تَرْجَمَةً لِابْنِ قُتَيْبَةَ، أَوْ عَرَضًا لِكِتَابِهِ "تَأْوِيلُ مُشْكِْلِ الْقُرْآنِ"؛ إِذْ إِنَّ الْمُبْتَدِعَ الْأَوَّلَ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ نَظْرًا اسْتِبْطَانِيًّا يُؤَدِّنُ بِاسْتِشْرَافِ الْمُحْتَكَمَاتِ الَّتِي صَدَرَ عَنْهَا ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي تَصْنِيفِهِ كِتَابَهُ، لِيُبَيِّنَ عَلَى ذَلِكَ الْاسْتِشْرَافِ دَرَسَ لِبَاهِرَةِ الْمُشْكِْلِ الْقُرْآنِيِّ اعْتِمَادًا عَلَى تَصَوُّرِهِ عَلَى وَجْهِ مِنَ التَّعْيِينِ وَالْإِحْكَامِ، وَصَفْوَةَ الْمُسْتَخْلَصِ مِنْ هَذِهِ الدَّرَاسَةِ أَنَّهَا تَتَرَدَّدُ بَيْنَ ثَلَاثَةِ مَطَالِبَ رَيْسِيَّةٍ، أَوْلَاهَا: مَوَاضِعُ الْمُشْكِْلِ، وَثَانِيهَا: بَوَاعِثُهُ، وَثَالِثُهَا: دَرَجَاتُهُ؛ إِذْ لَيْسَتْ كُلُّ الْمَثَلِ الَّتِي أُثْبِتَهَا ابْنُ قُتَيْبَةَ سَوَاءً فِي دَرَجَةِ الْإِشْكَالِ.

### تقديم<sup>(1)</sup>:

لعلّ الذي ينبغي الإلماح إليه، قبل الخوض في مطالب هذه المباحثة، أنه يتجافى عن مطلبين: أولهما الترجمة لابن قتيبة؛ إذ إنه ليس بمغمور يعوزه ترجمة، فضلاً عن أن مُحقق كتابه "تأويل مشكل القرآن" قد كفى من يريد مؤنة هذا المطلب<sup>(2)</sup>، وثانيهما أن هذه المباحثة ليست عرضاً لكتاب ابن قتيبة<sup>(3)</sup>؛ ذلك أن المبتغى الأول منها أن تكون نظراً استبطانياً يؤذن باستشراق المَحْتَكَمَاتِ التي صدر عنها ابن قتيبة في تصنيفه كتابه، ليبنى على هذا كله درس لظاهرة المشكل القرآني: مواضعها، ودرجاتها، وبواعثها، ومن ثمّ تقف على الأصول الكلية التي فاء إليها ابن قتيبة حين رأى أن بعض آيات التنزيل العزيز تسيّر بركب المشكل.

وسبيلي في التّأني لمطالب المباحثة هي رجوع النظر في الآيات التي أثبتّها ابن قتيبة بُعْيَةً تصنيفها واستشفاف باعث إشكالها ودرجته، ومن ثمّ المضي مع مستويات اللّغة، لأقف عند مشكل في دلالة الصّيغة الصّرفيّة، ومشكل في دلالة الكلمة المعجميّة، ومشكل في دلالة التركيب، ومشكل آخر ليس بلغوي<sup>(4)</sup>، ولعله يحسن بعد هذا المتقدّم أن يُشار إلى تعريف ابن قتيبة للمشكل على وجه من الاقتضاب؛ إذ يدلّ على غموض المعنى واعتياصه، وقد جاء في اللسان: حَرْفٌ مُشْكِلٌ: مُلْتَبِسٌ<sup>(5)</sup>.

وقد "سمّي مُشْكِلًا لأنه أشكل، أي: دَخَلَ في شَكْلِ غَيْرِهِ، فَأَشْبَهُهُ وشاكله، ثمّ قد يُقال لما غَمَضَ -وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة- مُشْكِلًا"<sup>(6)</sup>، وإخال أن ما سيأتي عليه

(1) نشر هذا البحث في مجلة عالم الفكر في الكويت سنة 2002 في العدد الحادي والثلاثين.

(2) انظر مقدمة المحقق السيد أحمد صقر، تأويل مشكل القرآن، المكتبة العلمية، القاهرة، 1973م، 1-76.

(3) عرض المحقق عرضاً موجزاً لمحتويات الكتاب، انظر: مقدمته، 76-85.

(4) آثرت إدخال المشكل الصوتي في المشكل التركيبي؛ ذلك أن الحديث عن تداخل "حدود الجمل" و"الوقف" ما هو إلا حديث صوتي تركيبى سنأتي عليه بعدا .

(5) انظر: ابن منظور، أبو الفضل محمد (711هـ)، لسان العرب، ط1، دارصادر، بيروت، د.ت، مادة "شكل".

(6) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 102.

الْحَدِيثُ بَعْدًا سَيَعْمَلُ عَلَى تَجْلِيَةِ دِلَالَةِ الْمُشْكِْلِ، فَلَاكُتَفَبِ بِمَا قَدَّمْتُ مُنْتَقِلًا مِنْ مِضْمَارِ التَّنْظِيرِ إِلَى مِضْمَارِ التَّطْبِيقِ، لِأَقْفَ عِنْدَ أَوَّلِ مَطَالِبِ هَذِهِ الْمَبَاحِثَةِ، أَلَا وَهُوَ:

### مَوَاضِعُهُ:

#### أولاً: مُشْكِِلٌ فِي دِلَالَةِ الصِّيغَةِ الصَّرْفِيَّةِ:

مَعْلُومٌ أَنَّ صِيغَةَ الْعَرَبِيَّةِ تَتَنَاطَبُ، وَأَنَّ بَعْضَهَا يَنْزِلُ مَنْزِلَ بَعْضٍ، فَقَدْ تَقَوْمُ صِيغَةُ "فَاعِلٍ" مَقَامَ "مَفْعُولٍ"، وَمِنْ ذَلِكَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي<sup>(1)</sup>، وَصِيغَةُ "فَعِيلٍ" مَقَامَ "مَفْعُولٍ"؛ وَذَلِكَ نَحْوَ جَرِيحٍ وَسَلِيْبٍ<sup>(2)</sup>، وَقَدْ تَقَوْمُ صِيغَةُ "مَفْعُولٍ" مَقَامَ الْمَصْدَرِ<sup>(3)</sup>؛ كَقَوْلِنَا: مَا لَهُ مَعْفُورٌ وَلَا مَجْلُودٌ، أَيْ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ وَلَا جَلْدٌ، وَقَدْ يَقَوْمُ "فَاعِلٍ" مَقَامَ الْمَصْدَرِ<sup>(4)</sup>، وَمِنْهُ الْفَاضِلَةُ وَالْعَاقِبَةُ، أَيْ: الْفَضْلُ وَالْعُقْبَى.

وَقَدْ عَرَّجَ ابْنُ قُتَيْبَةَ عَلَى مُثَلٍّ مِنَ الْمُشْكِْلِ تَكُونُ فِيهَا الصِّيغَةُ الصَّرْفِيَّةُ مَبْنَاهَا مُخَالَفٌ لِمَعْنَاهَا، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ -عَزَّ اسْمُهُ-: "خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ"<sup>(5)</sup>، فَمَوْضِعُ النَّظْرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ قَوْلُهُ: "دَافِقٍ"، وَالظَّاهِرُ مِنْ بِنْيَتِهَا الشَّكْلِيَّةِ أَنَّهَا "اسْمُ فَاعِلٍ: دَافِقٍ"، وَقَدْ وَجَّهَ ابْنُ قُتَيْبَةَ دِلَالَةَ هَذِهِ الصِّيغَةِ عَلَى أَنَّهَا "اسْمُ مَفْعُولٍ: مَدْفُوقٌ" جَاءَ عَلَى هَيْئَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ، جَانِحًا إِلَى ظَاهِرَةِ تَنَاطُبِ صِيغَةِ الْعَرَبِيَّةِ<sup>(6)</sup>، فَلَيْسَتْ تُفْهَمُ هَذِهِ الصِّيغَةُ كَمَا هِيَ فِي ظَاهِرِهَا؛ إِذْ إِنَّ مَعْنَاهَا مُخَالَفٌ لِمَبْنَاهَا عِنْدَهُ، وَالَّذِي يَزِيدُ مِنْ ظَاهِرَةِ الْإِشْكَالِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ أَنَّ الْقُرْطُبِيَّ وَالزَّمْخَشَرِيَّ ذَهَبَا فِي دِلَالَتِهَا إِلَى أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى النَّسْبَةِ، كَقَوْلِنَا: لِابْنِ وَتَامِرٍ، أَيْ: ذُو لَبَنِ وَتَمِرٍ، وَالْمَعْنَى: ذُو دَفْقٍ، أَوْ فِيهَا إِسْنَادٌ مَجَازِيٌّ<sup>(7)</sup>.

(1) انظر: الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، مكتبة النهضة العربية، بغداد، 1953م، 75.

(2) انظر: الحملاوي، شذا العرف، 75.

(3) انظر: الأسترابادي، رضي الدين محمد بن الحسن (686هـ)، شرح الشافية، تحقيق محمد الحسن وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982م، 174/1.

(4) انظر: الأسترابادي، شرح الشافية، 175/1.

(5) الآية (الطارق، 6).

(6) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 296.

(7) انظر: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق إبراهيم اطفيش، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967م، 4/20، والزمخشري، جار الله محمود بن عمر (538هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط1، دار الفكر، القاهرة، 1977م، 241/4.

وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو حَيَّانَ ثَلَاثَةَ مَعَانٍ صَرْفِيَّةٍ:

- أَوْلَاهَا أَنَّهَا اسْمٌ مَفْعُولٌ "مَدْفُوقٌ"، وَهِيَ قِرَاءَةُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ.
- وَثَانِيهَا النَّسَبُ (ذُو دَفَقٍ).
- وَثَالِثُهَا، وَهُوَ رَأْيُ ابْنِ عَطِيَّةَ، مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ هَيْئَةٍ تَدُلُّ عَلَى اسْمِ الْفَاعِلِ، وَالْمَعْنَى: دَافِقٌ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ يَصِحُّ فِي الْفَهْمِ أَنْ يَكُونَ الْمَاءُ دَافِقًا؛ لِأَنَّ بَعْضَهُ يَدْفَعُ بَعْضًا، فَمِنْهُ دَافِقٌ، وَمِنْهُ مَدْفُوقٌ<sup>(1)</sup>، وَقَدْ اسْتَدْرَكَ أَبُو حَيَّانَ عَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ فَقَالَ: "وَدَفَقَ لَيْسَ مَعْنَاهُ مَا فُسِّرَ مِنْ قَوْلِهِ: وَالذَّفَقُ دَفَعُ الْمَاءِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، بَلْ لِمَحْفُوظِ أَنَّهُ الصَّبُّ"<sup>(2)</sup>.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ قَوْلُهُ -تعالى-: "لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ"<sup>(3)</sup>، وَمَوْضِعُ النَّظَرِ فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ قَوْلُهُ -تعالى-: "عَاصِمٌ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ -أعني ابنُ قُتَيْبَةَ- يُقَرِّرُ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ التَّحَكُّمِ أَنَّ الْمَعْنَى الْمَرْكُوزَ فِي هَذِهِ الصَّيْغَةِ الصَّرْفِيَّةِ مُخَالَفٌ لِمَبْنَاهَا، وَهُوَ "عَاصِمٌ: اسْمٌ فَاعِلٌ"، بَلْ هِيَ "اسْمٌ مَفْعُولٌ: مَعْصُومٌ" جَاءَ فِي حُلَّةِ اسْمِ الْفَاعِلِ، وَالْمَعْنَى الْمُتَعَيَّنُ: لَا أَحَدٌ مَعْصُومٌ مِنْ أَمْرِهِ جَلًّا<sup>(4)</sup>.

وَاللَّافِتُّ لِلنَّظَرِ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنَّ ظَاهِرَةَ تَنَاوُبِ الصَّيْغِ تَزْدَادُ تَجَلِّيًّا لِلْقَارِيءِ عِنْدَ مَنْ وَرَدُوا عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ مُفَسِّرِينَ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ ابْنَ عَزِيزٍ السَّجِسْتَانِيَّ وَالْقُرْطُبِيَّ جَنَحَا إِلَى عَدِّ هَذِهِ الصَّيْغَةِ "عَاصِمٌ" عَلَى حَالِهَا، وَالْمَعْنَى عِنْدَهُمَا: لَا مَانِعَ<sup>(5)</sup>، وَكَذَلِكَ ابْنُ الْهَائِمِ فِي "التَّبْيَانِ"<sup>(6)</sup>.

(1) انظر: أبو حيان، أثير الدين محمد بن يوسف (745هـ)، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل عبد

الموجود وآخرين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، 449/8.

(2) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 449/8، وقال الطبرسي: "ماء دافق: مهراق في رحم المرأة، وأهل

الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول". انظر الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (5--)،

مجمع البيان في تفسير القرآن، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1، 1961م، 100/6.

(3) الآية (هود، 43).

(4) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 296.

(5) انظر: السجستاني، أبو بكر بن عزيز (330هـ)، نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز، تحقيق

يوسف المرعشلي، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1990م، 326، والقرطبي، الجامع، 39/9.

(6) انظر: ابن الهائم، أبو العباس أحمد بن محمد (815هـ)، التبيان في تفسير غريب القرآن، تحقيق فتحي

الدابولي، دار الصحابة، طنطا، 1992م، 234.



وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَدَّدَ بَيْنَ الْمَعْنَيْنِ مُلِمًّا إِلَيْهِمَا، كَابِنِ الْأَنْبَارِيِّ، وَالزَّمْخَشَرِيِّ، وَأَبِي حَيَّانَ، وَابْنِ مَنْظُورٍ<sup>(1)</sup>، وَلَيْسَ يَخْفَى مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ الصِّيغَةَ الصَّرْفِيَّةَ مُحْتَمَلَةٌ، وَمُسْتَصْفَى الْقَوْلِ فِيهَا مَا وَرَدَ فِي الْحَاشِيَةِ عَلَى تَفْسِيرِ الْبَيْضَاوِيِّ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ عَرَضَ لِلْأَقْوَالِ الَّتِي قِيلَتْ فِيهَا مُوَازِنًا، وَمُرَجِّحًا، وَمُؤَقِّفًا، فَقَدْ رَأَى أَنَّ الْمَعْنَى قَدْ يَكُونُ:

- لا عاصمٌ إِلَّا راجِمٌ.

- لا معصومٌ إِلَّا مرحومٌ.

- لا عاصمٌ إِلَّا مرحومٌ.

- لا معصومٌ إِلَّا راجِمٌ.

وَقَدْ خَتَمَ كَلَامَهُ بِقَوْلِهِ مُعْجِبَةً مِضْمَارُهَا التَّوْفِيقُ بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَانِي، وَأَنَّهَا لَا تَتَدَافَعُ، بَلْ تَتَجَاوَرُ، وَبَيَانُ جُمْلَتِهِ قَوْلُهُ: "وَالكُلُّ جَائِزٌ، وَبَعْضُهَا أَقْرَبُ مِنْ بَعْضٍ"<sup>(2)</sup>، وَخُلَاصَةُ مَنْ وَرَدُوا عَلَيْهَا أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ اسْمَ فَاعِلٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَاهَا اسْمَ مَفْعُولٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْمَعْنَيْنِ الصَّرْفِيِّينِ مُلْتَقِنًا إِلَى أَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَانِي.

### ثَانِيًا: مُشْكِلٌ فِي دِلَالَةِ الْكَلِمَةِ الْمُفْرَدَةِ

وَكَمَا وَقَعَ الْإِشْكَالُ فِي دِلَالَةِ الصِّيغَةِ الصَّرْفِيَّةِ، فَقَدْ وَقَعَ فِي دِلَالَةِ الْكَلِمَةِ الْمُعْجَمِيَّةِ، وَالْحَقُّ أَنَّ ذَلِكَ لَهُ بَوَاعِثُ مُتَبَايِنَةٌ، وَمِنْهَا:

#### أَوَّلًا: الْمَشْكِلُ الْآتِي مِنَ التَّطَوُّرِ الدِّلَالِيِّ:

وَقَدْ يَرِدُ الْإِشْكَالُ مِنَ التَّطَوُّرِ الدِّلَالِيِّ؛ ذَلِكَ أَنَّ دِلَالَاتِ الْأَلْفَاظِ لَيْسَتْ ثَابِتَةً عَلَى حَالٍ، بَلْ هِيَ مُتَغَيِّرَةٌ، وَلِهَذَا الْمَلْحَظُ بَوَاعِثُ مَخْصُوصَةٌ، وَأَعْرَاضٌ يُقَرَّرُهَا عِلْمُ اللِّسَانِ الْحَدِيثِ، فَمِنْ تَعْمِيمٍ إِلَى تَخْصِيسٍ، وَمِنْ رُقْيٍ إِلَى انْحِطَاطٍ إِلَى نَقْلِ<sup>(3)</sup>.

(1) انظر: ابن الأنباري، محمد بن القاسم (327هـ)، الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1987م، 128-129، والزمخشري، الكشاف، 271/2، وأبو حيان، البحر المحيط، 227/5، وابن منظور، اللسان، مادة "عصم".

(2) انظر: محيي الدين شيخ زاده (951هـ)، حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، ضبط محمد عبد القادر شاهين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م، 650/4.

(3) لمزيد بسط القول في أعراض التطور الدلالي انظر: أولمان، ستيفين، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، 1962م، 179-199.

وَالْحَقُّ أَنَّ لِإِسْلَامِ الْكَرِيمِ فَرَادَةً فِي هَذِهِ الْوُجْهَةِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ نَزَلَ بِالْأَلْفَاظِ الْعَرَبِ وَلُغَتِهَا، فَانْزَاحَتْ كَثِيرٌ مِنْ دِلَالَاتِ الْأَلْفَاظِ عَنْ مَذَلُولَاتِهَا، وَكُتِبَتْ بَلْبُوسٍ شَرْعِيٍّ مُفْتَرِقٍ عَنِ هَيْئَةِ اللَّبُوسِ اللَّغَوِيِّ الْأَوَّلِ، وَلِذَلِكَ كَلِمَةٌ قَدْ يَرِدُ إِشْكَالٌ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْخَاطِرَ الْأَوَّلَ قَدْ يَتَشَبَّهُ بِالْمَعْنَى الْمُتَقَادِمِ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ الْمَعْنَى الْحَادِثِ، أَوْ قَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ بِالضَّدِّ، وَقَدْ عَرَّجَ عَلَى هَذَا الْمَلْحَظِ ابْنُ فَارِسٍ فِي بَابِ الْأَسْبَابِ الْإِسْلَامِيَّةِ مُشِيرًا إِلَى التَّنَوُّرِ الدَّلَالِيِّ الْحَادِثِ فِي الْأَلْفَاظِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَالصَّلَاةِ، وَالْمُؤْمِنِ، وَالسُّجُودِ، وَالْفَاسِقِ<sup>(1)</sup>.

وَمِمَّا انْتَسَبَ إِلَى الْمَشْكِْلِ فَنَبَّهَ إِلَيْهِ ابْنُ قُتَيْبَةَ قَوْلُهُ -تَبَارَكَ-

"كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ"<sup>(2)</sup>

وَقَدْ حَكَى ابْنُ قُتَيْبَةَ عَنِ الطَّاعِنِينَ قَوْلَهُمْ: "وَلَمْ حَصَّ الْكَافِرِينَ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ؟ أَوْلَيْسَ هَذَا مِمَّا يَسْتَوِي فِيهِ الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ، وَلَا يَنْقُصُ إِيْمَانُ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَعْجَبَهُمْ؟"<sup>(3)</sup>، وَالظَّاهِرُ أَنَّ نَمَّ تَطَوُّرًا دِلَالِيًّا حَادِثًا، فَقَدْ كَانَ يُقَالُ لِلزَّرْعِ: الْكَافِرُ، لِأَنَّهُ يُلْقَى الْبِذْرَ فِي الْأَرْضِ فَيَكْفُرُهُ "فَيُعْطِيهِ"، وَقَدْ ذَهَبَ ابْنُ قُتَيْبَةَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى الْمُتَقَدِّمِ، وَلَعَلَّ الْبَاعِثَ عَلَى اعْتِقَادِ ابْنِ قُتَيْبَةَ بِالْمَعْنَى الْمُتَقَادِمِ فِي مُشْكِْلِ هِ وَغَرِيْبِهِ أَنَّهُ أَلِيقُ بِسِيَاقِ الْكَلَامِ الشَّرِيفِ؛ فَفِي الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ ذَكَرَ لِلغَيْثِ، وَالنَّبَاتِ، وَلَعَلَّ ذِكْرَهُمَا يَسْتَلْزِمُ طَرْفًا ثَالِثًا رَأْسِيًّا، وَهُوَ الزَّرْعُ، وَبِذَا يَكْتَمَلُ هَذَا الثَّالِثُ: "كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ": الزَّرْعُ، وَالغَيْثُ، وَالْكَافِرُ "الزَّرْعُ"، وَالْآيَةُ، مِنْ وَجْهَةٍ أُخْرَى، مِثْلُ قَوْلِهِ -تَعَالَى-: "يُعْجِبُ الزَّرْعَ لِيُغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ"<sup>(4)</sup>.

وَعَلَى صَعِيدِ آخَرَ، نَلْفِي بَعْضَ الْمُفَسِّرِينَ جَامِعِينَ بَيْنَ الدَّلَالَتَيْنِ، كَالرَّمْخَشِرِيِّ، وَالطَّبْرَسِيِّ، وَأَبِي حَيَّانَ، فَقَدْ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْكُفَّارَ فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ تَنَزَّهَتْ بَيْنَ الْمَعْنِيَيْنِ، وَقَدْ تَعْنَى -بِخِلَافِ مَا أَلْمَحَ إِلَيْهِ ابْنُ قُتَيْبَةَ- الَّذِينَ طُمَسَ عَلَى قُلُوبِهِمْ؛ ذَلِكَ أَنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ لَا يَأْبَى هَذَا الْوَجْهَ، وَإِخَالُ أَنْ بَاعِثَ اقْتِنَاصِ هَذَا الْمَعْنَى الْحَادِثِ عِنْدَ مَنْ وَلَّوْا وَجْهَهُمْ نَحْوَهُ أَنَّهُمْ التَّمَسُّوا أَنَّ اللَّهَ -تَبَارَكَ- شَبَّهَ حَالَ الدُّنْيَا، وَسُرْعَةَ تَقْضِيَّتِهَا، مَعَ قَلَّةِ جَدْوَاهَا، بِالنَّبَاتِ الَّذِي أَنْبَتَهُ

(1) انظر: ابن فارس، أبو الحسين أحمد (395هـ)، الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب

في كلامها، تحقيق عمر الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، 1993م، 77-81.

(2) الآية (الحديد، 2).

(3) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 28.

(4) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 75، وتفسير غريب القرآن، 454، والآية (الفتح، 29).

الْعَيْثُ فَاسْتَوَى، فَأَعْجَبَ بِهِ الْكَفَّارُ الْجَاحِدُونَ؛ لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ تَعْظِيمًا لِلدُّنْيَا، وَإِعْجَابًا بِمَحَاسِنِهَا الْفَانِيَةِ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْعَاهَةَ، فَهَاجَ فَاصْفَرَ فَصَارَ حُطَامًا<sup>(1)</sup>.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْمُتَأَمَّلَ بِرَوِيَّةٍ يَجِدُ أَنَّ الْمَعْنِيَيْنِ مُتَقَبَّلَانِ لَا يَتَدَافَعَانِ، وَإِلَى هَذَا أَشَارَ صَاحِبُ "التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ"، فَقَدْ جَمَعَ بَيْنَهَا مُشِيرًا إِلَى إِرَادَةِ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ، مُلْمَحًا بِلَفْظِ الْكَفَّارِ إِلَى الْمَعْنَى الثَّانِي<sup>(2)</sup>، وَالَّذِي يَعْنِي الْبَاحِثَ هَهُنَا أَنَّ ابْنَ قُتَيْبَةَ رَدَّ عَلَى الطَّاعِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ مُؤْتَقًا رَدَّهُ بِصَرِيحِ الْقُرْآنِ، وَفَصِيحِ اللُّغَةِ، وَأَحْسَبُ أَنَّ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ -أَعْنَى الْمَعْنَى الْمُتَقَادِمَ- أْبْلَغُ فِي الرَّدِّ وَأَعْلَى لِلْعَلَّةِ الْمَذْكُورَةِ أَنْفًا، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ، فَالْمَعْنِيَانِ لَا يَتَدَافَعَانِ.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ التَّطَوُّرُ الدَّلَالِيُّ فِي كَلِمَةِ "السُّجُودِ"، فَالْأَصْلُ فِيهَا الْإِنْخَاءُ وَالطَّاطَأَةُ<sup>(3)</sup>، وَلَكِنَّ الشَّرْعَ الْخَنيفَ نَقَلَ هَذِهِ الدَّلَالَهَ، وَزَادَ عَلَيْهَا أَوْصَافًا وَشَرَائِطَ، فَأَصْبَحَ لَهَا هَيْئَةٌ مَخْصُوصَةٌ تَوْسَمُ بِأَنَّهَا عِبَادَةٌ، وَقَدْ كَانَ يُقَالُ: "سَجَدَتِ النَّخْلَةُ إِذَا مَالَتْ، وَأُسْجِدَ الْبَعِيرُ إِذَا طُوْطِئَ لِزُرْكَبٍ"<sup>(4)</sup>، وَمِنْ هُنَا قِيلَ لِمَنْ وَضَعَ جَبْهَتَهُ عَلَى الْأَرْضِ: سَاجِدٌ لِأَنَّهُ تَطَامَنَ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ قَدْ يُسْتَعَارُ السُّجُودُ فَيُوضَعُ مَوْضِعَ الْإِسْتِسْلَامِ، وَالطَّاعَةِ، وَالذَّلِّ، كَمَا يُسْتَعَارُ التَّطَاطُؤُ وَاللِّتَامُنُ فَيُوضَعَانِ مَوْضِعَ الْخُشُوعِ، وَالْإِنْقِيَادِ، وَالذَّلِّ...<sup>(5)</sup>.

وَلَمَّا وَرَدَ ابْنُ قُتَيْبَةَ عَلَى قَوْلِهِ -تَعَالَى-: "وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ"<sup>(6)</sup>، أَرَادَ أَنْ يَدْرَأَ عَنِ الْخَاطِرِ وَهَمًّا قَدْ يَرُدُّ عَلَيْهِ إِذْ يَظُنُّ أَنَّ السُّجُودَ هَهُنَا هُوَ السُّجُودُ الشَّرْعِيُّ، بَلْ هُوَ الْإِسْتِسْلَامُ بِالسَّخِيرِ<sup>(7)</sup>.

وَالْحَقُّ أَنَّ السُّجُودَ مِنْ كَلِمَاتِ الْأَضْدَادِ، فَقَدْ تَعْنَى الْمُنتَصِبَ، وَقَدْ تَعْنَى الْمُنْحَنِيَّ، وَقَدْ خَالَفَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ ابْنَ قُتَيْبَةَ فِي وُجْهِهِ تِلْكَ، فَرَأَى أَنَّ الْحَقَّ خَبَرَ عَنِ النَّجْمِ وَالشَّجَرِ

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 65/4، والطبرسي، مجمع البيان، 152/6، وأبو حيان، البحر المحيط،

223/8.

(2) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 404/27.

(3) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "سجد".

(4) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 416.

(5) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 417.

(6) الآية (الرحمن، 6).

(7) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 418.

بِالسُّجُودِ عَلَى مَعْنَى الْمَيْلِ، أَيْ يَسْتَقْبِلَانِ الشَّمْسَ، ثُمَّ يَمِيلَانِ مَعَهَا حَتَّى يَنْكَسِرَ الْفَيْءُ<sup>(1)</sup>، وَقَدْ قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ: "سُجُودُهُمَا انْقِيَادُهُمَا لِلَّهِ فِيمَا خُلِقَا لَهُ، وَأَنْهَمَا لَا يَمْتَنِعَانِ..."<sup>(2)</sup>.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ "الصَّلَاةُ"؛ إِذِ إِنَّهَا كَانَتْ تَعْنِي الدَّعَاءَ<sup>(3)</sup>، ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ الْكَرِيمُ، فَنَقَلَهَا مِنْ حَقْلِ دِلَالِيٍّ إِلَى آخَرَ؛ لِأَنَّهَا تَضْرِبُ فِيهِ بِسَهْمٍ، فَأَصْبَحَتْ الصَّلَاةُ عِبَادَةً مَخْصُوصَةً لَهَا أَرْكَانُهَا، وَهَيْئُهَا، وَشَرَائِطُهَا، وَقَدْ وَرَدَتْ الصَّلَاةُ بِدِلَالَتَيْنِ مُتَبَايِنَتَيْنِ: أَوْلَاهُمَا الْحَادِثَةُ، وَثَانِيَتُهُمَا الْمُتَقَادِمَةُ، وَمِنْ شَأْنِ هَذَا أَنْ يُعْقَبَ إِشْكَالًا دِلَالِيًّا، وَلِذَا وَقَفَ عِنْدَهُ ابْنُ قَتَيْبَةَ مُجَلِّبًا دَارِيًّا لِهَذَا الْإِشْكَالِ الَّذِي قَدْ يَرِدُ عَلَى الْمَرْءِ عِنْدَ قِرَاءَتِهِ قَوْلَهُ -عَزَّ اسْمُهُ-: "وَصَلَّ عَلَيهِمْ إِنْ صَلَاتِكَ سَكَنَ لَهُمْ"<sup>(4)</sup>، وَالْمَعْنَى: ادْعُ لَهُمْ، فَإِنَّهُ "مِمَّا يُسَكِّنُهُمْ وَتَطْمِئِنُّ إِلَيْهِ قُلُوبُهُمْ"<sup>(5)</sup>.

### ثَانِيًا: عُمُومِيَّةُ الدَّلَالَةِ وَاتِّسَاعُهَا:

وَقَدْ يَرِدُ الْإِشْكَالُ مِنْ بَابِ "عُمُومِيَّةِ الدَّلَالَةِ"؛ ذَلِكَ أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ عَامٍّ يَنْتَسِعُ لِمَعَانٍ مُتَبَايِنَةٍ، وَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى الْعَامُّ -أَعْنِي مَعْنَى الْجَذْرِ- كَالْحَيْطِ الْجَامِعِ الَّذِي يَنْتَظِمُ الْمَعَانِي الْمُتَفَرِّعَةَ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: "لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ"<sup>(6)</sup>، فَدِلَالَةُ "يُنْزَفُونَ" مَفْتُوحَةٌ تَنْتَسِعُ لِمَعَانٍ مُتَبَايِنَةٍ، فَالآيَةُ الشَّرِيفَةُ فِي وَصْفِ حَمْرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَثَرِهَا، فَقَدْ قِيلَ إِنَّ الْمَعْنَى:

- لَا يُنْزَفُونَ: عَدَمُ ذَهَابِ الْعَقْلِ.
- لَا يُنْزَفُونَ: عَدَمُ ذَهَابِ الْمَالِ.
- لَا يُنْزَفُونَ: عَدَمُ نَفَادِ الشَّرَابِ<sup>(7)</sup>.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ دِلَالَةُ "الْإِحْصَانِ"، وَالْمَعْنَى الْمُتَعَيَّنُ مِنْهَا "أَنْ يُحْمَى الشَّيْءُ وَيَمْنَعَ مِنْهُ"<sup>(1)</sup>، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا مَعْنَى عَرِيضٍ مَفْتُوحٍ، وَلَمَّا وَرَدَتْ كَلِمَةُ "الْمُحْصَنَاتِ" فِي التَّنْزِيلِ

(1) انظر: ابن الأثيري، الأضداد، 297.

(2) انظر: الزمخشري، الكشاف، 43/4، وانظر ما قاله أبو حيان في البحر المحيط، 187/8.

(3) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "صلى".

(4) الآية (التوبة، 103).

(5) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 460.

(6) الآية (الواقعة، 19).

(7) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 7، واكتفى الطبرسي بمعنيين، وهما انتفاء ذهاب العقل والخمر،

انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 116/6.

العزير تباين فهمها، ومن ذلك أنها قد تعني ذوات الأزواج؛ لأن أزواجهن أحصنوهن ومنعوا منهن، وقد تعني الحرائر، وإن لم يكن متزوجات، لأن الحرّة تُحصن وتُحصن، فليست كالأمّة، ومن ذلك قوله -تبارك اسمه-: "ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات"<sup>(2)</sup>، وقد تعني العفائف، ومنه قوله -جلّ وعزّ -: "والذين يرمون المحصنات"<sup>(3)</sup>.

وليس يخفى أن لعمومية هذه الدلالة "الإحصان" شهمة في انفتاح معانيها وتعددها في آيات الذكر الحكيم، ولذلك كُله نهد ابن قتيبة لئنبه على هذه المواضع ملماً بل مصرحاً بأن دلالة المحصنات ونحوها يجب أن تفهم في سياقها الذي فيه ترد؛ ذلك أنها تحتل معاني متباينة، وإن كانت تلتقي على قدرٍ أساسيٍّ مشتركٍ<sup>(4)</sup>.

### ثالثاً: ظاهرة المشترك اللفظي:

ومما يتصل بمبحث عمومية الدلالة ظاهرة المشترك اللفظي، والمتعين من هذا المصطلح اتفاق المباني وافتراق المعاني<sup>(5)</sup>، ومن ذلك العين؛ إذ إنه يقع تحتها غير معنى كالجارحة، وعين الماء، والجاسوس، والشريف، وليس يخفى أن وقوع معنيين تحت كلمة واحدة قد يفضي إلى الإشكال، ولكن السياق كفيلاً أمين لرفع هذا الإشكال في كثير من المواضع، ومع هذا يبقى قدر من الاحتمال ظاهر يرد الإشكال منه لوجود هذه الظاهرة اللغوية.

ومما أشكلت دلالاته في التنزيل العزيز قوله -تعالى-: "قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين"<sup>(6)</sup>، وقد وقف عند كلمة العابدين ابن قتيبة مشيراً إلى أنها قد تعني المؤجدين، ومن وحد الله فقد عبده، ولكنه يذكر معنى آخر مرده إلى أن هذه الكلمة يقع تحتها معنيان:

- أولهما ما تقدم.

- وثانيهما الغضاب الأنفون<sup>(1)</sup>.

(1) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "حصن".

(2) الآية (النساء، 25).

(3) الآية (النور، 4).

(4) انظر معاني الإحصان: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 511.

(5) من المصنفات التي عرجت على ظاهرة المشترك اللفظي في التنزيل العزيز: "الأشباه والنظائر في

القرآن الكريم"، لمقاتل بن سليمان البلخي (150هـ)، تحقيق عبد الله شحاتة، الهيئة المصرية العامة

للكتاب، ط2، القاهرة، 1994م.

(6) الآية (الزخرف، 81).

وَالْحَقُّ أَنَّ هَذَا وَجْهٌ مُتَقَبَّلٌ لَا يُدْفَعُ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ جَاءَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَمِنْهُ: عَبَدَ عَلَيْهِ عَبْدًا، وَعَبَدَةً فَهُوَ عَابِدٌ، وَعَبَدَ إِذَا غَضِبَ<sup>(2)</sup>، وَفِي حَدِيثِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَدْ قِيلَ لَهُ: أَنْتَ أَمَرْتَ بِقَتْلِ عُثْمَانَ أَوْ أَعْنَتَ عَلَى قَتْلِهِ، فَعَبَدَ وَصَمِدَ: أَيِ غَضِبَ<sup>(3)</sup>، وَقَدْ عَدَّهَا الْأَزْهَرِيُّ آيَةً مُشْكِلَةً كَثُرَتْ فِيهَا الْأَقْوَالُ، فَأَشَارَ إِلَى أَنَّ الْمَعْنَى قَدْ يَكُونُ أَنَّ اللَّهَ -جَلَّ اسْمُهُ- قَالَ لِمَحْمَدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ كَمَا تَقُولُونَ لَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ يُطِيعُهُ وَيَعْبُدُهُ (يَعْبُدُ اللَّهُ)، وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: يَعْنِي الْآئِفِينَ الْغَضَابَ الْجَاغِدِينَ لِمَا تَقُولُونَ، وَقَدْ قَالَ الْفَرَزْدَقُ:

أَوْلَيْكَ قَوْمٌ إِنْ هَجَوْنِي هَجَوْتُهُمْ وَأَعْبَدُ أَنْ أَهْجُو كُنَيْبًا بِدَارِمِ<sup>(4)</sup>  
وَقَالَ آخَرُ:

فَأَرْسَلَ نَفْسَهُ عَبْدًا عَلَيْهَا وَكَانَ بِنَفْسِهِ أَرِيًّا ضَنْبِيًّا<sup>(5)</sup>

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ "الإمام" فِي قَوْلِهِ -تعالى-:

- "يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ"<sup>(6)</sup>.

- "وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ"<sup>(7)</sup>.

- "إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا"<sup>(8)</sup>.

- "وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ"<sup>(9)</sup>.

وَالْحَقُّ أَنَّ دِلَالَةَ الْإِمَامِ مُتَبَايِنَةٌ بِنَتَابِينَ السِّيَاقِ الشَّرِيفِ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ، وَلِذَلِكَ نَهَدِ ابْنَ قُتَيْبَةَ مُنَبِّهًا لِمَا قَدْ يَقَعُ مِنْ إِشْكَالٍ، فَالْإِمَامُ أَصْلُهُ مَا انْتَمَ بِهِ الْمَرْءُ وَأَقْتَدَى، وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى جَاءَ قَوْلُهُ -عَزَّ اسْمُهُ- فِي الْآيَةِ الثَّلَاثَةِ، وَالْإِمَامُ الْكِتَابُ الَّذِي تُجْمَعُ فِيهِ أَعْمَالُ الْخَلْقِ،

(1) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 373، وقد ذهب الطبرسي إلى خمسة معان في تفسير هذه الآية

الشريفة، انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 101/5.

(2) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "عبد".

(3) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "عبد".

(4) انظر البيت: أبو عبيدة، معمر بن المثنى (210هـ)، مجاز القرآن، تحقيق فؤاد سزكين، مكتبة

الخانجي، القاهرة، 1962م، 206/2، وابن قتيبة، تأويل المشكل، 374، والقرطبي، الجامع،

119/16-120، وأبو حيان، البحر المحيط، 29/8، وابن منظور، اللسان، مادة "عبد".

(5) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "عبد"، والشعر منسوب في اللسان إلى ابن أحرر في وصف

الغواص.

(6) الآية (الإسراء، 71).

(7) الآية (ياسين، 12).

(8) الآية (البقرة، 124).

(9) الآية (الحجرات، 79).

وَعَلَىٰ هَذَا الْمَعْنَى جَاءَتِ الْآيَاتَانِ الْأُولَى وَالثَّانِيَّةُ، وَالْإِمَامُ: الطَّرِيقُ، لِأَنَّ الْمُسَافِرَ يَأْتُمُّ بِهِ وَيَسْتَدِلُّ<sup>(1)</sup>.

#### رابعاً: ظاهرة الأضداد

وَقَدْ يَتَجَلَّى الْإِشْكَالُ مِنْ ظَاهِرَةٍ تَنْتَسِبُ إِلَى الْمُشْتَرِكِ اللَّفْظِيِّ بِنَسَبٍ حَمِيمٍ، وَهِيَ ظَاهِرَةُ "الأضداد"، وَمِنْ ذَلِكَ "شار" للمُشْتَرِي وَالْبَائِعِ، وَعَلَّةُ ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا اشْتَرَى<sup>(2)</sup>، وَمِنْهُ قَوْلُهُ -عَرَّ وَتَبَارَكَ-: "وَسَرَّوهُ بِثَمَنِ بَحْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ"<sup>(3)</sup>، وَالْمَعْنَى: بَاعُوهُ<sup>(4)</sup>. وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: "وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا"<sup>(5)</sup>، وَالْمَعْنَى، كَمَا يُوجِّهُهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ، قُدَّامَهُمْ، وَقَدْ تَابَعَهُ عَلَىٰ هَذَا ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ مُسْتَشْهِدًا بِقَوْلِ الشَّاعِرِ: أَلَيْسَ وَرَائِي أَنْ أَدَبَّ عَلَى الْعَصَا فَيَأْمَنُ أَعْدَائِي وَيَسْأَمُنِي أَهْلِي<sup>(6)</sup>.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْخَاطِرَ الْأَوَّلَ قَدْ يَقَعُ فِي هَذَا الْإِشْكَالِ إِذْ يَظُنُّ أَنَّ الْمُتَعَيِّنَ مِنْ "وَرَاءَهُمْ": خَلْفَهُمْ، وَلَكِنَّ الْإِشْكَالَ يَتَجَلَّى ثَانِيَةً أَنَّ سَمَاعِنَا بِأَنَّ بَعْضَ الْمُفَسِّرِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ "وَرَاءَهُمْ" فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ عَلَىٰ بَابِهَا، أَيُّ: خَلْفَهُمْ، وَلَكِنَّ "الأكثرَ عَلَىٰ أَنَّ مَعْنَى "وراء" هنا أَمَامٌ؛ يَعْضُدُهُ قِرَاءَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ جُبَيْرٍ: "وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ..."<sup>(7)</sup>.

#### ثالثاً: مُشْكَلٌ فِي دِلَالَةِ التَّرْكِيبِ

وَلَيْسَ مَلْحَظُ الْإِشْكَالِ مَقْصُورًا عَلَىٰ دِلَالَةِ الْكَلِمَةِ الْمُفْرَدَةِ أَوْ الصِّيغَةِ الصَّرْفِيَّةِ، بَلْ إِنَّهُ يَتَعَدَّى ذَلِكَ لِيَصِلَ إِلَى حَدِّ التَّرْكِيبِ، فَيَعْدُو التَّرْكِيبُ كُلَّهُ مُوَهِّمًا مُشْكَلًا، وَبَوَاعَتْ ذَلِكَ مُتْبَائِنَةً، وَمِنْ ذَلِكَ:

- الاجْتِرَاءُ مِنَ السِّيَاقِ الْبِنْيَوِيِّ.

- أَوْ الزِّيَادَةُ عَلَيْهِ.

(1) انظر هذه المعاني: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 459.

(2) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 188.

(3) الآية (يوسف، 20).

(4) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 188.

(5) الآية (الكهف، 79).

(6) انظر: ابن الأنباري، الأضداد، 69، والشعر كما نسبه المحقق لعروة بن الورد.

(7) انظر: القرطبي، الجامع، 34/11-35، وابن قتيبة، تأويل المشكل، 189، والطبرسي، مجمع البيان،

101/4، وانظر أقوال أبي حيان في البحر المحيط، 145/6.

- وَتَبَايُنُ وَجْهِ الْقَوْلِ عَلَى الْمَفْصِلِ الصَّوْتِيِّ.
  - وَطَوَّلُ الْجُمْلَةِ الَّذِي يُفْضِي إِلَى تَدَاخُلِ الْكَلَامِ وَالتَّبَاسِيهِ.
  - وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأخِيرُ "رَتْبَةُ الْكَلِمَاتِ".
  - وَتَرَدُّدُ دِلَالَةِ التَّرْكِيبِ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالمَجَازِ.
- وَفِيمَا يَأْتِي فَضْلُ بَيَانٍ يُخْرِجُ مَا أَنَا خَائِضٌ فِيهِ مِنْ مِضْمَارِ التَّنْظِيرِ إِلَى مِضْمَارِ التَّطْبِيقِ وَالتَّجْلِيَةِ:

### أَوَّلًا: مُشْكِلا آتٍ مِنَ الاجْتِزَاءِ مِنَ السِّيَاقِ البِنْيَوِيِّ

لَعَلَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُعَدَّمَ احْتِرَاسٌ مُفَادُهُ أَنْ لَيْسَ كُلُّ اجْتِزَاءٍ مُفْضِيًا إِلَى إِشْكَالٍ، فَاسْتِكْمَالُ السِّيَاقِ البِنْيَوِيِّ، وَاسْتِشْرَافُ سِيَاقِ الْحَالِ، يَعْمَلَانِ عَلَى اسْتِرْفَادِ مَا هُوَ مُجْتَزَأٌ أَوْ مُغَيَّبٌ، وَلَمَّا عَرَجَ اللُّغَوِيُّونَ الْقُدَمَاءُ عَلَى مَطْلَبِ هَذِهِ الْمُبَاحَثَةِ "الاجْتِزَاءِ" قَرَّرَ الْمُبَرِّدُ قَاعِدَةً عَرِيضَةً أَسَاسُهَا التَّوَاصُلُ، وَهِيَ: "فَكُلُّ مَا كَانَ مَعْلُومًا فِي الْقَوْلِ، جَارِيًا عِنْدَ النَّاسِ، فَحَذْفُهُ جَائِزٌ لِعِلْمِ الْمُخَاطَبِ"<sup>(1)</sup>.

وَتَابَعَهُ عَلَى هَذَا ابْنُ يَعِيشَ مَعُولًا عَلَى دِلَالَةِ السِّيَاقِ البِنْيَوِيِّ وَالحَالِيِّ، وَمِنْ ذَلِكَ إِلمَاحُهُ إِلَى حَذْفِ الْمُبْتَدَأِ وَالخَبَرِ مَعَ أَنَّهُمَا مُتَلَازِمَانِ، "فَلَا بَدَّ مِنْهُمَا، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ تَوَجَّدَ قَرِينَةٌ لَفْظِيَّةٌ أَوْ حَالِيَّةٌ تُغْنِي عَنِ النَّطْقِ بِأَحَدِهِمَا، فَيُحَذَفُ لِذِلَالَتِهَا عَلَيْهِ، لِأَنَّ الْأَلْفَاظَ إِنَّمَا جِيءَ بِهَا لِلذَّلَالَةِ عَلَى الْمَعْنَى، فَإِذَا فُهِمَ الْمَعْنَى بِدُونِ اللَّفْظِ جَازَ الْأَ تَأْتِي بِهِ، وَيَكُونُ مُرَادًا حُكْمًا وَتَقْدِيرًا"<sup>(2)</sup>.

وَالحَقُّ أَنَّ ابْنَ قُتَيْبَةَ قَدْ أَوْمَأَ إِلَى هَذَا، فَأَشَارَ إِلَى آيَاتِ كَرِيمَاتٍ فِيهَا اجْتِزَاءٌ مِنْ سِيَاقِهَا، وَلَكِنَّ الْقُرَّانَ الأُخْرَى تَهْدِينًا إِلَيْهِ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ فَقَدْ نَبَّهَ إِلَى أَنَّ هَذَا الاجْتِزَاءَ قَدْ يُفْضِي فِي مَوَاضِعَ إِلَى الإِشْكَالِ، فَقَالَ: "وَقَدْ يُشْكَلُ الْكَلَامُ وَيَغْمِضُ بِالِاخْتِصَارِ وَالِإِضْمَارِ"<sup>(3)</sup>، وَمِنْ أَمْتَلَةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ -تعالى-: "أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ"<sup>(4)</sup>، وَالمَتَأَمَّلُ بِرُويَّةِ يُلْفِي هَذَا السِّيَاقَ الشَّرِيفَ قَدْ

(1) انظر: المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد(285هـ)، المقتضب، تحقيق محمد عزيمة، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1968م، 254/3.

(2) انظر: ابن يعيش، موفق الدين(643هـ)، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، د.ت، 94/1.

(3) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 218.

(4) الآية (فاطر، 8).



اجْتِزَاءٍ مِنْهُ، وَهَذَا يَعْضُ لِلْمَرَّةِ إِشْكَالٌ مَرْدُهُ إِلَى مَطْلَبِ هَذِهِ الْمُبَاحَثَةِ، وَلَعَلَّ الْمَعْنَى: أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ، فَرَأَاهُ حَسَنًا، ذَهَبَتْ نَفْسُكَ حَسْرَةً عَلَيْهِ، فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ<sup>(1)</sup>.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ الْاجْتِزَاءِ غَيْرِ الْمُسْكَلِ قَوْلُهُ -تعالى-: "فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ"<sup>(2)</sup>، وَالْمَعْنَى: اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ فَيُقَالُ لَهُمْ: أَكْفَرْتُمْ<sup>(3)</sup>، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ -تعالى-: "وَقَصَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا"<sup>(4)</sup>، وَالْمَعْنَى: وَوَصَى رَبُّكَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا<sup>(5)</sup>.

وَقَدْ عَرَّجَ ابْنُ قُتَيْبَةَ عَلَى أَمْثَلَةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ فِيهَا اجْتِزَاءٌ، وَالْحَقُّ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِمُسْكَلَةٍ الْبَتَّةِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا ابْنُ قُتَيْبَةَ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ:  
 - "...وَلَمْ يَقُلْ مُرْسَلًا أَوْ مَبْعُوثًا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مَعْرُوفٌ"<sup>(6)</sup>.  
 - "وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَأْتِيَ بِالْكَلَامِ مَبْنِيًّا عَلَى أَنْ لَهُ جَوَابًا، فَيُحَذَفُ الْجَوَابُ اخْتِصَارًا لِعِلْمِ الْمَخَاطَبِ"<sup>(7)</sup>.  
 - "وَمِنْ الْاِخْتِصَارِ: الْقَسْمُ بِإِذَا كَانَ فِي الْكَلَامِ بَعْدَهُ مَا يَدُلُّ عَلَى الْجَوَابِ"<sup>(8)</sup>.

### ثَانِيًا: الزِّيَادَةُ وَتَكَرُّرُ الْكَلَامِ

وَقَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ بِالضَّدِّ، فَقَدْ يَأْتِي "الإشْكَالُ" مِنَ الزِّيَادَةِ كَمَا أَتَى مِنَ الْاجْتِزَاءِ، وَالَّذِي يَنْبَغِي الْإِلْمَاحُ إِلَيْهِ أَنْ "الزِّيَادَةُ" لَيْسَ الْمُتَعَيِّنُ مِنْهَا الْفَضْلَةُ أَوْ مَا يُسْتَعْنَى عَنْهُ فَيُطْرَحُ؛ إِذْ إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ، وَأَوَّلُ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي هَذَا هُوَ

(1) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 219.

(2) الآية (آل عمران، 106).

(3) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 216.

(4) الآية (الإسراء، 23).

(5) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 217.

(6) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 217.

(7) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 214.

(8) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 223.

تَكَرَّرَ الْأَنْبَاءِ وَالْقَصَصِ، وَالْحَقُّ أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِمُشْكِلِ الْبَيِّنَةِ، وَقَدْ فَسَّرَهُ بِأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ نُجُومًا فِي ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً تَبَسُّرًا مِنْهُ عَلَى الْعِبَادِ، وَتَدْرِيجًا لَهُمْ إِلَى كَمَالِ دِينِهِ<sup>(1)</sup>.

أَمَّا تَكَرَّرُ الْكَلَامِ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ، كَتَكَرَّرَ: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، أَوْ قَبَائِي آلاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ، فَقَدْ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِ الْقَوْمِ وَمَذَاهِبِهِمْ، وَمِنْ مَذَاهِبِهِمُ التَّكَرُّرُ الَّذِي يُفْصَدُ مِنْهُ التَّوَكُّيدُ وَالْإِفْهَامُ، كَمَا أَنَّ مِنْ مَذَاهِبِهِمُ الْاِخْتِصَارَ إِرَادَةَ التَّخْفِيفِ وَالْإِيجَازِ<sup>(2)</sup>.

وَلَكِنْ، قَدْ يَعْزِضُ أَنْ تَكُونَ نَمَّ زِيَادَةً لِمُقْتَضَى أَرَادَهُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ، فَتُقْضَى إِلَى سَيْرُورَةِ الْآيَةِ بِرُكْبِ الْمَشْكِلِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ -تعالى-: "وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ"<sup>(3)</sup>، وَالْمَعْنَى كَمَا يُوجِّهُهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ: "وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ يُؤْمِنُونَ، فَزَادَ "لَا"، لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِذَا جَاءَتْ"<sup>(4)</sup>، وَالْمَلَاظَمُ هَهُنَا أَنَّ التَّرْكِيبَ غَيْرَ مُنْقَطِعٍ، وَلَكِنْ، قَدْ يَوْقَفُ بَعْدَ: "وَمَا يُشْعِرُكُمْ" وَقَفًا تَامًا، ثُمَّ يُبْتَدَأُ بِمَا بَعْدَهَا، فَتَكُونُ الْهَمْزَةُ مَكْسُورَةً: "وَمَا يُشْعِرُكُمْ؟ (وقفة) إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ".

وَقَدْ يَتِمُّ الْوَقْفُ بَعْدَ قَوْلِهِ: لَا يُؤْمِنُونَ، فَتَكُونُ الْهَمْزَةُ مَفْتُوحَةً: "وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا..."، وَالتَّرْكِيبُ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ، وَالْهَمْزَةُ "أَنَّهَا" مُتَعَلِّقَةٌ بِمَا قَبْلَهَا، وَالْمَصْدَرُ فِي مَحَلِّ نَصْبِ مَفْعُولٍ بِهِ<sup>(5)</sup>.

أَمَّا ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فَقَدْ جَعَلَهَا مِنْ حُرُوفِ الْأَضْدَادِ؛ إِذْ قَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى الْجَدِّ، وَهُوَ الْأَكْثَرُ فِيهَا، وَقَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى الْإِثْبَاتِ، وَهُوَ الْمُسْتَعْرَبُ عِنْدَ عَوَامِّ النَّاسِ. أَمَّا كَوْنُهَا بِمَعْنَى

(1) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 232، وقيل إنه نزل إلى سماء الدنيا في عشرين ليلة قدر من عشرين سنة، وقيل -كما قال ابن قتيبة- في ثلاث وعشرين سنة، وقيل في خمس وعشرين ليلة قدر من خمس وعشرين سنة. انظر: الزركشي، بدر الدين محمد (794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، 1987م، 228/1.

(2) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 235.

(3) الآية (الأنعام، 109).

(4) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 244.

(5) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 244، والفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (207هـ)، معاني القرآن، تحقيق أحمد نجاتي، ومحمد النجار، الدار المصرية، القاهرة، 1955م، 350/1، والنحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد (338هـ)، القطع والائتناف، تحقيق أحمد العمر، ط1، مطبعة العاني، بغداد، 1978م، 319، والعكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (616هـ)، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي البجاوي، ط2، دار الجيل، بيروت، 1987م، 530/1.

الْجَدِّ فَهَذَا مِمَّا لَا يَعُورُهِ سَنَدٌ وَلَا دَلِيلٌ. وَأَمَّا بِمَعْنَى الْإِثْبَاتِ فَمِنْ شَوَاهِدِهَا هَذِهِ الْآيَةُ الشَّرِيفَةُ وَغَيْرُهَا<sup>(1)</sup>، وَقَدْ ذَهَبَ الْكِسَائِيُّ إِلَى أَنَّ "وَمَا يُشْعِرُكُمْ" لَيْسَ بِوَقْفٍ؛ إِذْ إِنَّ الْمَعْنَى عِنْدَهُ: وَمَا يُشْعِرُكُمْ بِأَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ يُؤْمِنُونَ، وَ"لَا" زَائِدَةٌ عِنْدَهُ<sup>(2)</sup>.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ قَوْلُهُ -تعالى-: "فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيْكُمُ الْمَفْتُونُ"<sup>(3)</sup>، وَقَدْ أَشَارَ ابْنُ قُتَيْبَةَ إِلَى زِيَادَةِ الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ: "بِأَيْكُم"، وَالْمَعْنَى الْقَاوُهَا"<sup>(4)</sup>، أَيْ: أَيُّكُمْ الْمَفْتُونُ، وَالْحَقُّ أَنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِشْكَالًا مُعْتَصَاً؛ ذَلِكَ أَنَّ فِي "الْبَاءِ" ثَلَاثَةً أَوْجِهٍ:

- أَوْلَاهَا تَوْجِيهٌ ابْنِ قُتَيْبَةَ، أَعْنَى الزِّيَادَةَ، وَقَدْ زِيدَتْ الْبَاءُ فِي الْمُبْتَدَأِ.
- وَثَانِيهَا أَنَّ الْبَاءَ أَصْلِيَّةٌ لَيْسَتْ بِزَائِدَةٍ، وَأَنَّ "الْمَفْتُونُ" اسْمٌ مَفْعُولٌ قَامَ مَقَامَ الْمَصْدَرِ، وَالْمَعْنَى عَلَى مَا تَقَدَّمَ: بِأَيْكُمُ الْفِتْنَةُ.
- وَثَالِثُهَا أَنَّ الْبَاءَ مَعْنَاهَا "فِي"، وَالتَّقْدِيرُ: فِي أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ الْمَفْتُونُ؟ وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْوُجُوهَ الثَّلَاثَةَ مُحْتَمِلَةٌ مُتَقَبَّلَةٌ فِي سِيَاقِهَا لَا تُدْفَعُ<sup>(5)</sup>.

وَفِي أَمْتَلَةٍ أُخْرَى قَدْ يَتَسَاءَلُ الْمُتَدَبِّرُ لِآيَاتِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ عَنِ عِلَّةِ الزِّيَادَةِ، فَتُقْضَى بِهِ هَذِهِ الْمُسْأَلَةُ إِلَى اسْتِشْفَافِ مَقْصِدِ رَمَى إِلَيْهِ الْحَقُّ تَبَارَكَ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: "يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ"<sup>(6)</sup>، فَهَلْ يَكْتُبُ الرَّجُلُ بِغَيْرِ يَدَيْهِ؟ وَهَلْ يَصِحُّ فِي الْفَهْمِ أَنَّ كَلِمَةَ "أَيْدِيهِمْ" زَائِدَةٌ لَا تُقْضَى إِلَى مَزِيدٍ مَعْنَى؟ لَيْسَ ذَلِكَ كَذَلِكَ الْبِتَّةِ، فَالمرءُ قَدْ يَكْتُبُ بِالْمَجَازِ، فَالْأَمِيُّ الَّذِي لَيْسَ لَهُ عَهْدٌ بِالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ يَقُولُ: كَتَبْتُ إِلَيْكَ، وَهَذَا كِتَابِي إِلَيْكَ، وَهُوَ الْفَاعِلُ لَهُ وَإِنْ وَلِيَهُ غَيْرُهُ، "فَأَعْلَمْنَا أَنَّهُمْ يَكْتُبُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ وَيَقُولُونَ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَقَدْ عَلِمُوا يَقِينًا إِذْ كَتَبُوهُ بِأَيْدِيهِمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ"<sup>(7)</sup>.

### ثَالِثًا: مُشْكِلٌ آتٍ مِنْ تَدَاخُلِ حُدُودِ الْجُمْلِ

(1) انظر: ابن الأثيري، الأضداد، 211.

(2) انظر: ابن النحاس، القطع، 319.

(3) الآية (القلم، 6).

(4) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 248.

(5) انظر: ابن الأثيري، البيان، 453/2، والعكبري، التبيان، 1234/2، وأبو حيان، البحر المحيط،

303/8.

(6) الآية (البقرة، 79).

(7) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 242.

مَعْلُومٌ أَنَّ الْمَفْصِلَ الصَّوْتِيَّ سَكَنَةٌ خَفِيفَةٌ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ أَوْ الْجُمَلِ، وَأَنَّ لَهُ سَهْمَةً فِي الْإِبَانَةِ عَنِ الْمَعْنَى وَانْفِصَاحِ نَسِيجِ الْجُمَلِ وَالتَّرَاكُيبِ، وَأَنَّ تَغْيِيرَ مَوْقِعِهِ يُفْضِي إِلَى تَدَاخُلِهَا وَإِشْكَالِهَا، وَقَدْ وَسَمَ ابْنُ قُتَيْبَةَ هَذَا الْإِشْكَالَ بِأَنَّهُ اتَّصَالَ الْكَلَامِ بِمَا قَبْلَهُ حَتَّى يَكُونَ كَأَنَّهُ قَوْلٌ وَاحِدٌ، وَالْأَمْرُ لَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ هُوَ قَوْلَانِ<sup>(1)</sup>، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ -تعالى جده-: "إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا أَذْلَةً -وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ"<sup>(2)</sup>.

وَالْمَلْحَظُ الطَّرِيفُ الَّذِي قَدْ يُشْكَلُ عَلَى مَنْ يُعَيَّبُ الْمَفْصِلَ الصَّوْتِيَّ أَنَّ تَمَّ قَوْلَيْنِ فِي

هَذِهِ الْآيَةِ:

- الْأَوَّلُ قَوْلُ بَلْقَيْسَ، وَهُوَ: "إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا أَذْلَةً".

- وَالثَّانِي قَوْلُ الْحَقِّ -تَنَزَّهَ-: "وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ"، فَالْأَخِيرُ هَذَا -كَمَا يَقَرُّرُ ابْنُ قُتَيْبَةَ- لَيْسَ مِنْ قَوْلِهَا، وَقَدْ عَدَّ بَعْضُ مَنْ صَنَّفُوا فِي الْوَقْفِ وَالْإِبْتِدَاءِ أَنَّ الْوَقْفَ عَلَى "أَذْلَةً" مَا هُوَ إِلَّا وَقْفٌ تَامٌ يُفْضِي إِلَى الْفَصْلِ بَيْنَ قَوْلِ بَلْقَيْسَ وَقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ، وَهُوَ "وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ"<sup>(3)</sup>، وَلَكِنَّ الْإِشْكَالَ يَبْزُغُ مِنْ جَدِيدٍ إِذْ يَقُولُ الطَّبْرَسِيُّ: "وَقِيلَ إِنَّ الْكَلَامَ مُتَّصِلٌ بِبَعْضِهِ بِبَعْضٍ، "وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ" مِنْ قَوْلِهَا"<sup>(4)</sup>.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ قَوْلُهُ -سُبْحَانَهُ-: "قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ..."<sup>(5)</sup>، فَتَمَّ قَوْلَانِ فِي الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ: الْأَوَّلُ قَوْلُ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، ثُمَّ قَالَ يُوسُفُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: "ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ"، أَي لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْ الْعَزِيزَ بِالْغَيْبِ<sup>(6)</sup>، وَقَدْ خَالَفَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ ابْنَ قُتَيْبَةَ إِذْ عَدَّ هَذِهِ

(1) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 294.

(2) الآية (النمل، 34).

(3) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 294، وانظر: الداني، أبو عمرو (444هـ)، المكتفى في الوقف والابتداء، ط1، تحقيق جابر مخلف، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، 1983م، 276، والأنصاري، أبو يحيى زكريا بن محمد (926هـ)، المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء، ط2، دار المصحف، دمشق، 1985م، 65.

(4) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 220/5.

(5) الآية (يوسف، 51-52).

(6) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 294، والطبرسي، مجمع البيان، 73/4.

الآية مِمَّا يُفَسِّرُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَفْسِيرَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ؛ ذَلِكَ أَنَّ "ذَلِكَ لِيَعْلَمَ" قَدْ تَكُونُ مِنْ كَلَامِ يَوْسُفَ الصَّدِيقِ، وَقَدْ تَكُونُ مِنْ كَلَامِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ<sup>(1)</sup>.

وَقَدْ ذَهَبَتْ ثَلَاثَةٌ مِنْ صَنَفُوا فِي الْوَقْفِ وَالْإِبْتِدَاءِ؛ كَالنَّحَّاسِ، وَابْنِ الْأَنْبَارِيِّ، وَالذَّانِي، وَالْأَنْصَارِيِّ، إِلَى أَنَّ الْوَقْفَ عَلَى قَوْلِهِ -تعالى-: "...لَمِنَ الصَّادِقِينَ" تَامٌّ يُؤْذِنُ بِتَمَايُزِ قَاتِلَيْنِ فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ:

- أَوْلُهُمَا امْرَأَةُ الْعَزِيزِ.

- وَثَانِيَهُمَا يَوْسُفُ الصَّدِيقُ إِذْ قَالَ: "ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي..."<sup>(2)</sup>.

وَمِمَّا يُجَلِّي ظَاهِرَ "الْمُشْكَلِ" فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ أَنَّ الْقُرْطُبِيَّ، وَالزَّمْخَشَرِيَّ تَرَدَّدَا بَيْنَ الْمَعْنِيَيْنِ مُلْمَحَيْنِ إِلَى أَنَّ الْكَلَامَ قَدْ يَكُونُ لِيَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ لَامْرَأَةَ الْعَزِيزِ، وَهَذَا مَا قَرَّرَهُ أَبُو حَيَّانٍ مُرَجِّحًا أَنَّ يَكُونُ الْكَلَامُ كُلُّهُ لَامْرَأَةَ الْعَزِيزِ<sup>(3)</sup>.

وَمِمَّا يَنْتَسِبُ إِلَى هَذَا الْمَطْلَبِ؛ مَطْلَبِ تَدَاخُلِ حُدُودِ الْجُمْلِ، وَاتِّصَالِ الْكَلَامِ بِمَا تَقَدَّمَهُ حَتَّى يَكُونَ كَأَنَّهُ قَوْلٌ وَاحِدٌ، آيَاتٌ فِي سُورَةِ الْجِنِّ، فَقَدْ قَالَ عَنْهَا ابْنُ قُتَيْبَةَ: "فِي هَذِهِ السُّورَةِ إِشْكَالٌ وَغَمُوضٌ بِمَا وَقَعَ فِيهَا مِنْ تَكَرُّرِ "إِنَّ"، وَاخْتِلَافِ الْقُرَاءِ فِي نَصْبِهَا، وَكُسْرِهَا، وَاشْتِبَاهِ مَا فِيهَا مِنْ قَوْلِ اللَّهِ -تعالى- وَقَوْلِ الْجِنِّ"<sup>(4)</sup>، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ -تقدَّسَ اسْمُهُ-:

- "قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا..."، وَالْمَعْنَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ.

- "فَقَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا".

- ثُمَّ قَالَتِ الْجِنُّ: "وَإِنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا..."

- ثُمَّ قَالَتِ الْجِنُّ: "وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا..."

- ثُمَّ قَالَتِ الْجِنُّ: "وَإِنَّا ظَنَّنَا..."

- ثُمَّ قَالَ اللَّهُ -تعالى-: "وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالًا مِنَ الْإِنْسِ يَعُودُونَ بِرِجَالٍ..."

(1) انظر: ابن الأنباري، الأضداد، 416-419.

(2) انظر: النحاس، القطع، 277، وابن الأنباري(327هـ)، إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، تحقيق محيي الدين رمضان، ط1، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1971م، 723، والداني، المكتفى، 216، والأنصاري، المقصد، 7.

(3) انظر: القرطبي، الجامع، 209/9، والزمخشري، الكشاف، 327/2، وأبو حيان، البحر المحيط، 316/5.

(4) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 426.

- ثُمَّ قَالَ اللَّهُ -تعالى-: "وَأْتِهِمْ ظَنًّا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ...".
- ثُمَّ قَالَتِ الْجِنُّ: "وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا...".
- ثُمَّ قَالَتِ الْجِنُّ: "وَإِنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ...".
- ثُمَّ قَالَتِ الْجِنُّ: "وَإِنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ...".

وَالْمُتَأَمِّلُ يَجِدُ أَنَّ مَا أَثْبَتَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ -مَعَ أَنَّ تَوْجِيهَهُ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ وَلَا شُبُهَةَ- يُخَالِفُ قِرَاءَةَ حَفْصٍ. أَمَّا الْكَسْرُ؛ كَسْرُ هَمْزَةِ "إِنَّ" فَوَاضِحٌ؛ لِأَنَّهَا مَعْطُوفَاتٌ عَلَى قَوْلِهِ -تبارك-: "فَقَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا"، فَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي مَعْمُولِ الْقَوْلِ (1).

أَمَّا الْفَتْحُ، وَهِيَ الَّتِي عَلَيْهَا حَفْصٌ، فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ كَلَّمَهُ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ عَلَى مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْمَذْهَبَ لَا يَصِحُّ فِي الْفَهْمِ وَلَا يَسْتَقِيمُ لِفَسَادِ الْمَعْنَى؛ ذَلِكَ أَنَّ مِنَ الْمَعْطُوفَاتِ مَا لَا يَصِحُّ دُخُولُهُ تَحْتَ "أَوْحِي"، وَمِنْ ذَلِكَ: "وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدًا"، وَقَدْ حُرِّجَتْ قِرَاءَةُ الْفَتْحِ عَلَى أَنَّ تِلْكَ كَلَّمَا مَعْطُوفَةٌ عَلَى الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ فِي كَلِمَةِ "بِهِ"، أَي: "وَبِأَنَّهُ تَعَالَى جَدَّ رَبِّنَا"، وَمَا يَلِيهَا مَعْطُوفٌ عَلَيْهَا (2).

وَالْمُسْتَصْفَى مِمَّا تَقَدَّمَ آتِيًا أَنَّ تَمَّ إِشْكَالًا وَقَعَ، وَلَعَلَّ خَيْرَ دَلِيلٍ عَلَى ذَلِكَ هُوَ تَرَدُّدُ الْقِرَاءَاتِ بَيْنَ فَتْحِ هَمْزَةِ "أَنَّ" وَكَسْرِهَا أَوَّلًا، وَتَنْبِئُهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ إِلَيْهَا ثَانِيًا.

#### رَابِعًا: مُشْكَلٌ آتٍ مِنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ "رُتْبَةُ الْكَلِمَاتِ"

وَقَدْ يَرِدُ الْإِشْكَالُ فِي التَّنْزِيلِ مِنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، وَلَعَلَّ هَذَا الْمَطْلَبُ هُوَ الَّذِي أَذِنَ بِتَوْهُمِ التَّنَازُعِ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي، وَلَمْ أَطْلُبْ، قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ (3)  
فَالْمُلاحِظُ أَنَّ جُمْلَةَ "لَمْ أَطْلُبْ" مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ الْعَامِلِ "كَفَانِي" وَالْمَعْمُولِ "قَلِيلٌ"، فَلَيْسَ يَجُوزُ أَنْ يُتَوَهَّمُ أَنَّ فِي الْبَيْتِ تَنَازُعًا بَيْنَ "كَفَانِي" وَ"أَطْلُبْ" عَلَى "قَلِيلٍ"، وَعَلَّةَ ذَلِكَ فَسَادُ الْمَعْنَى، فَقَدْ أَعْمَلَ الشَّاعِرُ الْفِعْلَ الْأَوَّلَ، وَالْمَعْنَى: كَفَانِي قَلِيلٌ، وَلَمْ أَطْلُبْ (4).

(1) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 340/8 .

(2) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 340/8-341، وأقوال الطبري، 66/29، وذكر القرطبي أن علقمة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي وابن عامر وخلفا وحفصا والسلمي ينصبون "أَنَّ" فِي جَمِيعِ السُّورَةِ فِي اثْنَيْ عَشَرَ مَوْضِعًا. انظر: القرطبي، الجامع، 8-7/19.

(3) الشعر لامرئ القيس في ديوانه (بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، 39.

- وَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ هَذَا فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ، وَقَدْ قَسَمَهُ السِّيَوطِيُّ إِلَى صَرِيحَيْنِ:
- الأَوَّلُ مَا أَشْكَلَ مَعْنَاهُ، فَلَمَّا عُرِفَ أَنَّهُ مِنْ بَابِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ اتَّضَحَ وَانْجَلَى، وَلَا يَخْفَى أَنَّ هَذَا الصَّرْبَ هُوَ مَوْضُوعُ هَذِهِ الْمُبَاحَثَةِ.
  - وَالتَّانِي مَا لَيْسَ كَذَلِكَ<sup>(2)</sup>، وَمِنْ أَمْثَلَةِ الأَوَّلِ -هُوَ مَوْضِعُ التَّمَثُّلِ- إِشَارَةُ ابْنِ قُتَيْبَةَ إِلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ الْحَادِثَيْنِ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا"<sup>(3)</sup>. أَمَّا أَصْلُ الْكَلَامِ فِي تَرْتِيبِهِ وَرُتْبِهِ كَلِمَاتِهِ فَهُوَ: أَنْزَلَ الْكِتَابَ قَيِّمًا، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا.

وَلِهَذِهِ الْآيَةِ حَادِثَةٌ تُبَيِّنُ عَنِ إِشْكَالٍ قَدْ يَقَعُ الْمَرَّةُ فِيهِ إِذَا لَمْ يَتَبَصَّرَ رُتْبَ الْكَلِمَاتِ، فَقَدْ أَشَارَ ابْنُ هِشَامٍ إِلَى وَقُوعِ أَحَدِ التَّلَامِيذِ فِي هَذَا الْمَشْكَلِ إِذْ أَعْرَبَ لِشَيْخِهِ "قَيِّمًا" صِفَةً لـ "عِوَجًا"، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الإِعْرَابَ الَّذِي قَفَزَ إِلَى الْخَاطِرِ الأَوَّلِ مَا هُوَ إِلَّا وَهَمٌّ مَرْدُّهُ إِلَى الإِعْرَابِ الْمُتَّجَافِي عَنِ الْمَعْنَى، وَتَقْدِيرِ رُتْبَةِ الْكَلِمَاتِ فِي سِيَاقِهَا الشَّرِيفِ، وَفِي هَذَا يَقُولُ ابْنُ هِشَامٍ: "...فَقُلْتُ لَهُ: يَا هَذَا، كَيْفَ يَكُونُ الْعِوَجُ قَيِّمًا؟ وَتَرَحَّمْتَ عَلَيَّ مَنْ وَقَفَ مِنَ الْقُرَّاءِ عَلَى أَلْفِ التَّنْوِينِ فِي "عِوَجًا" وَقَفَةً لَطِيفَةً دَفَعًا لِهَذَا التَّوَهُّمِ، وَإِنَّمَا "قَيِّمًا" حَالٌ: إِمَّا مِنْ اسْمٍ مَحْذُوفٍ هُوَ وَعَامِلُهُ، أَيْ أَنْزَلَهُ قَيِّمًا، وَأَمَّا مِنَ الْكِتَابِ، وَجُمْلَةُ النَّفْيِ مَعْطُوفَةٌ عَلَى الأَوَّلِ، وَمَعْتَرِضَةٌ عَلَى التَّانِي..."<sup>(4)</sup>، أَيْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ قَيِّمًا، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا.

وَمِنْ الأَمْثَلَةِ الدَّالَّةِ عَلَى ظَاهِرَةِ الْمَشْكَلِ الآتِي مِنَ الرُّتْبَةِ قَوْلِ الْحَقِّ -تَعَالَى-: "وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَاعَوْا بِهِ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا"<sup>(5)</sup>.

(1) وقف عند هذا البيت سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (180هـ)، كتاب سيبويه، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م، 79/1، وابن هشام الأنصاري (761هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك ومحمد حمد الله، ط2، مكتبة سيد الشهداء، دن، 1972م، 661/2.

(2) انظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (911هـ)، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، ط2، مكتبة نزار الباز، الرياض، 1998م، 707-714.

(3) الآية (الكهف، 7).

(4) انظر: ابن هشام، مغني اللبيب، 692/2، وقال الطبرسي عن هذه الآية: "فيه تقديم وتأخير، وتقديره: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيما، ولم يجعل له عوجا". انظر: مجمع البيان، 4/117.

(5) الآية (النساء، 83).

يُوجِّهُ ابْنَ قُتَيْبَةَ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ الْمُسْكَلَةِ مُشِيرًا إِلَى أَنَّ فِيهَا تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا، وَالْمُرَادُ الْمُتَعَيِّنُ: لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ<sup>(1)</sup>. وَالْحَقُّ أَنَّ ابْنَ قُتَيْبَةَ قَصَرَ إِشْكَالَهَا عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، وَهُوَ أَنَّ الْاسْتِثْنَاءَ حَاصِلٌ مِنْ: "لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ إِلَّا قَلِيلًا"، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ عِنْدَ ابْنِ الْأَنْبَارِيِّ؛ إِذْ إِنَّهُ يُعْرَرُ أَنَّ ثَمَّ سِتَّةَ احْتِمَالَاتٍ فِي تَعْيِينِ تَعْلُقِ الْمُسْتَنْثَى، كُلُّ ذَلِكَ مَرْدُهُ إِلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، وَالْمَعْنَى هِيَ:

- استثناء من الضمير "الواو" في قوله: "أذاعوا به إلا قليلاً".
- استثناء من الضمير "الهاء" في قوله: "أذاعوا به إلا قليلاً".
- استثناء من الضمير "هم" في قوله: "جاءهم إلا قليلاً".
- استثناء من الضمير "كم" في قوله: "عليكم إلا قليلاً".
- استثناء من الضمير "الواو" في "يستنبطونه"، وهذا الذي ذهب إليه ابن قتيبة.
- استثناء من قوله: "لا تتبعم الشيطان إلا قليلاً"<sup>(2)</sup>.

#### خامسًا: تناوب حروف المعاني في سياقها

وهذا باب من أبواب تأويل المشكل وسمه ابن قتيبة باب "تفسير حروف المعاني وما شاكلها من الأفعال التي لا تتصرف"، والظاهر أن المشكل في هذا الباب ليس مما حكاه الطاعنون على القرآن الكريم، ولعله مما ساقه ابن قتيبة استكمالاً للفائدة<sup>(3)</sup>، فمن الشائع في العربية أن يقوم حرف من حروف المعاني مقام آخر، ومن ذلك:

- قوله -تعالى-: "من أنصاري إلى الله"<sup>(4)</sup>، والمعنى: من أنصاري مع الله<sup>(5)</sup>.
- وكذلك قوله: "عينا يشرب بها المقربون"<sup>(6)</sup>، والمعنى: يشربها، أو يشرب منها<sup>(7)</sup>، فقد قام حرف الباء في هذه الآية الشريفة مقام "من".

(1) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 209.

(2) انظر: ابن الأنباري، البيان، 262/1، وقد قصر القرطبي الاستثناء على ثلاثة وجوه. انظر: القرطبي، الجامع، 292/5.

(3) انظر حكاية الطاعنين في تأويل المشكل، 24-32.

(4) الآية (آل عمران، 52).

(5) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 571.

(6) الآية (المطففين، 28).

(7) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 575.



وَلَعَلَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُغَالَى فِي تَنَابُوبِ الْحُرُوفِ فَيَكُونَ هَذَا مَفْتُوحًا بِاطْرَادٍ؛ إِذِ انْتَهَى يُفْضِي إِلَى تَدَاخُلِ بَيْنِ الْمَعَانِي كَبِيرٍ، وَقَدْ وَقَفَ عِنْدَ هَذَا ابْنُ جَنِّي فَقَالَ: "...ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ "إِلَى" تَكُونُ بِمَعْنَى "مَعَ"، وَيَحْتَجُونَ بِقَوْلِ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: "مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ"، أَيْ مَعَ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ إِنَّ "فِي" تَكُونُ بِمَعْنَى "عَلَى"، وَيَحْتَجُونَ بِقَوْلِهِ -عَزَّ اسْمُهُ-: "وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ"، أَيْ عَلَيْهَا، وَلَسْنَا نَدْفَعُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَمَا قَالُوا، وَلَكِنَّا نَقُولُ إِنَّهُ يَكُونُ بِمَعْنَاهُ فِي مَوْضِعٍ دُونَ مَوْضِعٍ، ...، فَأَمَّا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ فَلَا، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَا، أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا أَخَذْتَ بِظَاهِرِ الْقَوْلِ غُفْلًا هَكَذَا لَا مُقَيَّدًا لَزِمَكَ أَنْ تَقُولَ: سِرْتُ إِلَى زَيْدٍ، وَأَنْتَ تُرِيدُ مَعَهُ، وَأَنْ تَقُولَ: زَيْدٌ فِي الْفَرَسِ، وَأَنْتَ تُرِيدُ عَلَيْهِ..."<sup>(1)</sup>.

وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ الْمَشْكَلَةِ الَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا ابْنُ قُتَيْبَةَ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: "وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ"<sup>(2)</sup>، وَالْمَعْنَى عِنْدَهُ أَنَّ "فِي" بِمَعْنَى "عَلَى"<sup>(3)</sup>، وَقَدْ سَبَقَهُ إِلَى هَذَا الْبَلْخِيُّ فِي "الْأَشْبَاهِ وَالنُّظَائِرِ"، وَتَابَعَهُ عَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ الْقُرْطُبِيُّ<sup>(4)</sup>، وَلَكِنَّ الْإِشْكَالَ يَبْزُغُ مِنْ جَدِيدٍ عِنْدَ سَمَاعِ رَأْيٍ آخَرَ يَقِفُ وَجَاهَ الَّذِي تَقَدَّمَ، فَالرَّمَانِيُّ وَأَبُو حَيَّانٍ يُشِيرَانِ إِلَى الْمَعْنَى الْمُتَقَدِّمِ مُضَافًا إِلَيْهِ مَعْنَى آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ "فِي" عَلَى بَابِهَا، وَالْمَعْنَى: أَنَّ النَّخْلَةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْمَصْلُوبِ، فَقَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ اشْتِمَالَ الظَّرْفِ عَلَى الْمَظْرُوفِ، فَكَأَنَّهَا صَارَتْ لَهُ وَعَاءً<sup>(5)</sup>.

وَقَدْ يَحْدُثُ عَلَى صَعِيدِ تَرْكِيبِيٍّ آخَرَ أَنْ يَكُونَ الْحَرْفُ حَمَالًا لِمَعَانٍ مُتَبَايِنَةٍ، وَمِنْ ذَلِكَ "لَمَّا" الَّتِي تَكُونُ حَرْفَ نَفْيٍ، وَتَكُونُ بِمَعْنَى "إِلَّا"، وَتَكُونُ ظَرْفِيَّةً، وَ"الْوَاوُ" تَكُونُ لِلْعَطْفِ، أَوْ الْمَعْيَةِ، أَوْ الْقَسَمِ.

وَالَّذِي يَخْصُ هَذِهِ الْمَبَاحَثَةَ هُنَا أَنَّ الْمَشْكَالَ قَدْ يَتَخَلَّقُ مِنْ اِحْتِمَالِ هَذِهِ الْحُرُوفِ مَعَانِي مُتَبَايِنَةً، وَمِنْ ذَلِكَ "الَّذِي"، فَقَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى "مَنْ"، وَقَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى "مَا"، وَقَدْ تَرَدَّدَتْ

(1) انظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان (392هـ)، الخصائص، تحقيق محمد النجار، ط3، الهيئة المصرية

العامية للكتاب، ودار الشؤون الثقافية، بغداد، 1990م، 2/309-310.

(2) الآية (طه، 71).

(3) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 567، وتابعه على هذا الطبرسي، انظر: مجمع البيان، 4/123.

(4) انظر: البلخي، الأشباه والنظائر، 189، والقرطبي، الجامع، 11/224.

(5) انظر: الرمانى، أبو الحسن علي بن عيسى (384هـ)، معاني الحروف، تحقيق عبد الفتاح شلبي،

ط2، مكتبة الطالب الجامعي، مكة، 1986م، 96، وأبو حيان، البحر المحيط، 6/234.

بَيْنَ الْمَعْنَيْنِ، فَأَعْقَبْتُ إِشْكَالًا فِي قَوْلِهِ -تعالى-: "ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ"<sup>(1)</sup>، وَأَوَّلُ مَعْنَى لَهَا أَنَّهَا بِمَعْنَى "مَا"، وَالتَّقْدِيرُ: آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى مَا أَحْسَنَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، وَثَانِي ذَيْنِكَ الْمَعْنَيْنِ "مَنْ"، وَالتَّقْدِيرُ: ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى مَنْ أَحْسَنَ، وَالْمُحْسِنُونَ هُنَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُؤْمِنُونَ<sup>(2)</sup>، وَيَسْنَدُ هَذَا الْمَعْنَى قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ: "تَمَامًا عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا"<sup>(3)</sup>، وَالظَّاهِرُ مِمَّا تَقَدَّمَ قَبْلًا أَنَّ هَذَيْنِ الْمَعْنَيْنِ صَالِحَانِ فِي سِيَاقِهِمَا مُتَقَبِّلَانِ، وَمِنْ وَجْهَةٍ أُخْرَى، ثُمَّ إِشْكَالٌ فِي تَعْيِينِ الْمَعْنَى عَلَى وَجْهِ مِنَ الْإِحْكَامِ.

وَمِمَّا أَشْكَلَتْ دِلَالَتُهُ قَوْلُهُ -تعالى-: "وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ"<sup>(4)</sup>، وَقَدْ عَدَّهَا ابْنُ قُتَيْبَةَ مِمَّا يَنْتَسِبُ إِلَى الْمُشْكِلِ، وَهِيَ كَذَلِكَ حَقًّا، فَقَدْ قِيلَ إِنَّ "أَوْ" هُنَا بِمَعْنَى "بَل" عَلَى مَذْهَبِ التَّدَاوُكِ<sup>(5)</sup>، وَقِيلَ إِنَّهَا بِمَعْنَى "الْوَاو": وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ وَيَزِيدُونَ، وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ قُتَيْبَةَ الْمَعْنَيْنِ، وَلَكِنَّهُ فَتَدَّ الْأَوَّلَ الَّذِي هُوَ "بَل"، وَجَنَحَ إِلَى عَدِّهَا بِمَعْنَى "الْوَاو"<sup>(6)</sup>، وَكَتَفَى الْفَرَاءُ بِنَظَرِهِ إِلَيْهَا بِمَعْنَى "بَل"<sup>(7)</sup>، وَكَذَلِكَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ الَّذِي وَافَقَ الْفَرَاءُ وَابْنَ قُتَيْبَةَ<sup>(8)</sup>، وَأَضَافَ إِلَى هَذَيْنِ الْمَعْنَيْنِ مَكِّيًّا ثَالِثًا، وَهُوَ مَجْبِيئُهَا عَلَى بَابِهَا، أَيِّ لِلتَّخْيِيرِ، وَالْمَعْنَى أَنَّ الرَّائِيَّ إِذَا رَأَاهُمْ قَالَ: هُمْ مِئَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ<sup>(9)</sup>. وَالظَّاهِرُ أَنَّ ثَمَّ جَدَلًا عَرِيضًا فِي هَذَا الْإِشْكَالِ الْآتِي مِنْ تَعْيِينِ مَعْنَى "بَل" فِي سِيَاقِهَا.

### سَادِسًا: مُشْكَلٌ آتٍ مِنْ تَرَدُّدِ التَّرْكِيبِ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ

وَعَلَى صَعِيدِ تَرْكِيبِيٍّ آخَرَ، قَدْ يَحْدُثُ أَنْ يَرِدَ الْإِشْكَالُ مِنْ تَرَدُّدِ التَّرْكِيبِ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ، فَيَقِفَ الْمَتَدَبِّرُ أَمَامَ تَرْكِيبٍ مُوْهِمٍ مُحْتَمِلٍ: أَيَقْتَنِصُ مُرَادَهُ مِنْ ظَاهِرِ لَفْظِهِ، أَمْ يُجَنِّحُ إِلَى ظَاهِرِ انْزِيَاكِ الْأَلْفَاظِ عَنِ دِلَالَتِهَا، لِيُؤَدِّنَ هَذَا بِاسْتِشْرَافِ الْفَهْمِ الْمَجَازِيِّ؟

(1) الآية (الأنعام، 154).

(2) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 397.

(3) انظر: القرطبي، الجامع، 142/7.

(4) الآية (الصفوات، 147).

(5) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 543.

(6) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 544، وليست تعني عند القرطبي "بل" أو "الواو". انظر:

القرطبي، الجامع، 132/15.

(7) انظر: الفراء، معاني القرآن، 374/2.

(8) انظر: ابن الأنباري، الأضداد، 281.

(9) انظر: مكي بن أبي طالب (437هـ)، مشكل إعراب القرآن، تحقيق حاتم الضامن، وزارة الإعلام،

بغداد، 1975م، 619.

وَاللَّطِيفُ فِي هَذَا الْمَلْحَظِ أَنَّ الْقَاضِيَّ الْجُرْجَانِيَّ قَدْ جَارَ بِالشَّكْوَى مِنْ هَذَا النَّظْرِ  
الْقَاصِرِ قَائِلًا: "وَمِنْ عَادَةِ قَوْمٍ مِمَّنْ يَتَّعَاظِي التَّفْسِيرَ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَنْ يُوهِمُوا أَبَدًا فِي الْأَلْفَاظِ  
الْمَوْضُوعَةَ عَلَى الْمَجَازِ وَالتَّمَثِيلِ أَنَّهَا عَلَى ظَوَاهِرِهَا، فَيُفْسِدُوا الْمَعْنَى بِذَلِكَ، وَيُبْطِلُوا الْغَرَضَ،  
وَيَمْنَعُوا أَنْفُسَهُمْ وَالتَّامَعَ فَهَمَّ الْعِلْمَ بِمَوْضِعِ الْبَلَاغَةِ"<sup>(1)</sup>.

وَمِنْ الْأَمْثَلَةِ الَّتِي تُجَلِّي مَطْلَبَ هَذِهِ الْمُبَاحَثَةِ قَوْلُهُ -عَرَّ مِنْ قَائِلٍ-: "وَأَمْرًا حَمَالَةً  
الْحَطْبِ"<sup>(2)</sup>. يُظْهِرُ أَنَّ هَذَا التَّرْكِيبَ الشَّرِيفَ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ مَنزِلَتَيْنِ: مَنزَلَةِ أَخْذِهِ عَلَى ظَاهِرِ لَفْظِهِ،  
وَمَنزَلَةِ أَخْذِهِ عَلَى مَلْحَظِ انزِيَاكِ الْأَلْفَاظِ عَنِ دِلَالَتِهَا الْمَوْضُوعَةَ لَهَا، فَقَدْ يَكُونُ لَفْظُ "الْحَطْبِ"  
كَمَا هُوَ مَوْضُوعٌ فِي اللَّغَةِ، وَالْمَعْنَى أَنَّهَا كَانَتْ تَحْمَلُ الْحَطْبَ إِذَاءً لِلرَّسُولِ وَتَحَرُّشًا، وَقَدْ يَكُونُ  
الْمُنْتَعَيْنُ مِنْهُ أَنَّ الْحَطْبَ هُوَ النَّمِيمَةُ؛ إِذْ "كَانَتْ تَنَمُّ وَتُورِثُ بَيْنَ النَّاسِ"<sup>(3)</sup>.

وَقَدْ قَالَ الطَّبْرِيُّ: "وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: "حَمَالَةَ الْحَطْبِ"، فَقَالَ  
بَعْضُهُمْ: كَانَتْ تَجِيءُ بِالشُّوْكِ، فَتَطْرَحُهُ فِي طَرِيقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -لِيَدْخَلَ  
فِي قَدَمِهِ إِذَا خَرَجَ لِلصَّلَاةِ...، وَيَقَالُ: حَمَالَةَ لِلْحَطْبِ: نَقَالَةُ لِلْحَدِيثِ"<sup>(4)</sup>، وَمِنْ هَذَا مَثَلٌ: فُلَانٌ  
يَحْطُبُ عَلَيَّ إِذَا أُغْرَى بِهِ، فَقَدْ شَبَّهَ الْعَرَبُ النَّمِيمَةَ بِالْحَطْبِ، وَالْعِدَاوَةَ وَالشُّخْنَاءَ بِالنَّارِ، لِأَنَّهُمَا  
يَقْعَانِ بِالنَّمِيمَةِ، كَمَا تَلْتَهُبُ النَّارُ بِالْحَطْبِ"<sup>(5)</sup>.

وَالْمَذْهَبُ الْأَخِيرُ، وَهُوَ النَّمِيمَةُ، أَعْجَبُ عِنْدَ ابْنِ قُتَيْبَةَ وَأَعْلَى؛ ذَلِكَ أَنَّهَا مِنْ عِلْيَةِ  
الْقَوْمِ، وَقَدْ وَصَفَ رَبُّ الْعِزَّةِ بَعْلَهَا بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ قَائِلًا: "مَا أَعْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ"<sup>(6)</sup>، وَقَدْ  
جَاءَ فِي اللِّسَانِ أَنَّهَا أُمُّ جَمِيلٍ امْرَأَةٌ أَبِي لَهَبٍ، وَكَانَتْ تَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَهَذَا مَعْنَى "الْحَطْبِ"،  
وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

مِنَ الْبَيْضِ لَمْ تُصْطَدْ عَلَى ظَهْرِ لَأْمَةٍ      وَلَمْ تَمْشِ بَيْنَ الْحَيِّ بِالْحَطْبِ الرَّطْبِ

(1) انظر: الجرجاني، عبد القاهر (471هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ط2، مكتبة الخانجي،  
القاهرة، 1989م، 305.

(2) الآية (المسد، 4).

(3) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 159.

(4) انظر: الطبري، تفسيره، 219/30، والقرطبي، الجامع، 240/20.

(5) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 160.

(6) الآية (المسد، 2)، وابن قتيبة، تأويل المشكل، 161.

"يَعْنِي بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ النَّيْمَةَ"<sup>(1)</sup>.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ تَرَدَّدُ دِلَالَةِ "السَّمَاءِ" بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ -تعالى-:  
"فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبِ إِلَى السَّمَاءِ"<sup>(2)</sup>، وَقَدْ عَرَّجَ ابْنُ قُتَيْبَةَ عَلَى الْمَعْنِيَيْنِ: الْمَجَازِيِّ وَالْحَقِيقِيِّ. أَمَّا  
الْمَجَازِيُّ فَالْمُتَعَيِّنُ مِنْهُ أَنَّ "السَّمَاءَ" تَعْنِي سَقْفَ الْبَيْتِ، فَكُلُّ شَيْءٍ عَلَكَ وَأَطْلَكَ فَهُوَ سَمَاءٌ، وَقَدْ  
وَرَدَ هَذَا الْمَعْنَى فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَمِنْهُ قَوْلُ سَلَامَةَ بْنِ جَنْدَلٍ:

هُوَ الْمُدْخِلُ النَّعْمَانَ بَيْتًا سَمَاوَهُ      نُحُورُ الْفِيُولِ بَعْدَ بَيْتِ مُسَرْدَقِ

وَالْمَعْنَى: سَقْفُهُ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ أَدْخَلَهُ بَيْتًا فِيهِ فَيْلَةٌ فَتَوَطَّأَتْهُ فَقَتَلَتْهُ<sup>(3)</sup>.

وَأَمَّا ثَانِيهِمَا فَالْحَقِيقِيُّ، فَالسَّمَاءُ فِي سِيَاقِهَا الشَّرِيفِ هِيَ السَّمَاءُ بَعِيْزِهَا لَا السَّقْفُ،  
وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا الْوَجْهِ: فَلْيَمْدُدْ بِحَبْلِ إِلَيْهَا، وَلْيُرْتَقِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ حَبْلَهُ حَتَّى يَخْرُفَ فِيهِلِكَ<sup>(4)</sup>، وَقَدْ  
اسْتَشْعَرَ الْقُرْطُبِيُّ، وَالزَّمَخْشَرِيُّ، وَالطَّبْرَسِيُّ، وَأَبُو حَيَّانٍ مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ إِشْكَالٍ، فَتَتَرَدَّدُوا  
بَيْنَ الْمَعْنِيَيْنِ مُتَابِعِينَ فِي ذَلِكَ ابْنُ قُتَيْبَةَ<sup>(5)</sup>.

وَلَعَلَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُشَارَ عَقِبَ هَذَا الْمُتَقَدِّمِ إِلَى احْتِرَاسٍ مَضْمُونُهُ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ فِي الْفَهْمِ  
وَلَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يُعَدَّ كُلُّ انْزِيَاكِ مَجَازِيٍّ مُشْكَلاً يُفْضِي إِلَى الْإِحْتِمَالِ وَإِنْبِهَامِ الْمَعْنَى، فَقَدْ يَكُونُ  
الْأَمْرُ بِخِلَافِ ذَلِكَ؛ إِذْ إِنَّهُ قَدْ يُؤْذَنُ بِتَوْضِيحِ مَقَاصِدِ الْكَلَامِ، وَرِسُومِ التَّعْبِيرِ تَوْضِيحًا مُشْرِقًا  
الدِّالَةَ مُبَيَّنًا، وَلَيْسَ يُنْسَى أَنَّ شَطْرًا مِنْ كَلَامِنَا وَتَخَاطُبِنَا الْيَوْمِيِّ قَائِمٌ عَلَى اسْتِرْفَادِ الْمَجَازِ  
وَالِاسْتِعَارَةِ، أَيْ عَلَى الْانْزِيَاكِ الْمَجَازِيِّ، وَلِذَلِكَ كَلِّهِ لَيْسَ مِنَ الْمُسْكَلِ الْبِتَّةِ سُؤَالِ الْقَرْيَةِ أَوْ إِرَادَةُ  
الْجِدَارِ<sup>(6)</sup>؛ ذَلِكَ أَنَّ الْقَرْيَةَ لَا تُسْأَلُ، وَالْجِدَارَ لَا يُرِيدُ، أَمَّا إِثْبَاتُ تَيْنِكَ الْآيَتَيْنِ وَنَحْوَهُمَا فِي  
مُسْكَلِ ابْنِ قُتَيْبَةَ فَلَسْتُ أَحْسِبُهُ مِنْ بَابِ عَدَّهَا مُشْكَلاً، وَإِنَّمَا هُوَ رَدٌّ عَلَى الطَّاعِنِينَ عَلَى الْقُرْآنِ،  
وَلَعَلَّهَا "مِنْ أَشْنَعِ جِهَالَاتِهِمْ، وَأَدْلَاهَا عَلَى سُوءِ نَظَرِهِمْ، وَقَلَّةِ أَفْهَامِهِمْ، وَلَوْ كَانَ الْمَجَازُ كَذِبًا، ...،  
كَانَ أَكْثَرَ كَلَامِنَا فَاسِداً"<sup>(7)</sup>.

(1) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "حطب".

(2) الآية (الحج، 15).

(3) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 358.

(4) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 359.

(5) انظر: القرطبي، الجامع، 22/12، والزمخشري، الكشاف، 8/3، والطبرسي، مجمع البيان، 87/4،

وأبو حيان، البحر المحيط، 332/6-333.

(6) يُفْصَدُ مِنْ هَذَا الْآيَتَانِ الشَّرِيفَتَانِ: "وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ" وَ"فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ".

(7) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 132.

### رابعاً: مُشْكِلٌ آتٍ مِنْ تَغْيِيبِ السِّيَاقِ

وَقَدْ يَرِدُ عَلَى الْمَرَّةِ آيَاتٌ كَرِيمَاتٌ كَلِمَاتُهَا غَيْرُ مُتَابِعَةٍ فِي الْإِبَانَةِ عَنِ مَعْنَاهَا، وَلَكِنَّهَا مُشْكَلَةٌ مِنْ حَيْثُ الْعِلْمُ بِالسِّيَاقِ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ، وَمَعْرِفَةُ الْأَحْوَالِ وَالْمَلَابَسَاتِ الَّتِي اِكْتَنَفَتْ مُنَاسَبَةَ النَّزُولِ، وَالْحَاصِلُ أَنَّ اسْتِرْفَادَ السِّيَاقِ وَأَسْبَابِ النَّزُولِ مَطْلَبٌ ذُو فَضْلِ فِي تَعْيِينِ الْمُرَادِ، وَقَدْ أَخْطَأَ مَنْ رَعِمَ أَنَّهُ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ لِجَرْيَانِهِ مَجْزَى التَّارِيخِ<sup>(1)</sup>، وَمِنْ فَوَائِدِهِ هـ:

- تَخْصِيصُ الْحُكْمِ.

- وَالْوَقُوفُ عَلَى الْمَعْنَى.

- وَدَفْعُ تَوْهْمِ الْحَصْرِ<sup>(2)</sup>.

وَمِنْ الْأَمْثَلَةِ الَّتِي اسْتَرَعَتْ خَاطِرَ ابْنِ قُتَيْبَةَ فَوَقَّفَ عِنْدَهَا رَافِعًا إِشْكَالَهَا، مُجَلِّيًا مَعَانِيَهَا، مُسْتَنِدًّا إِلَى أَسْبَابِ النَّزُولِ وَالْمَلَابَسَاتِ الْخَارِجِيَّةِ، قَوْلُهُ -تَعَالَى-: "لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ..."<sup>(3)</sup>.

وَالْمَسْأَلَةُ الَّتِي تَسْتَوْقِفُ الْقَارِئَ هَهُنَا: لِمَاذَا حَصَّ الْأَعْمَى، وَالْمَرِيضَ، وَالْأَعْرَجَ؟ وَمَا الْحَرْجُ الَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِمْ؟ يُجَلِّي هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ ابْنُ قُتَيْبَةَ مُسْتَرَشِدًا بِالسِّيَاقِ التَّارِيخِيِّ، مُسْتَشْرِفًا سَبَبَ النَّزُولِ، مُشِيرًا إِلَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ حِينَ أَمَرُوا بِالنَّصِيحَةِ، وَنُهِوا عَنِ الْخِيَانَةِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ الْحَقُّ: "وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ"<sup>(4)</sup>، أَي: لَا يَأْكُلُ بَعْضُكُمْ مَالَ بَعْضٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَدَقُّوا النَّظَرَ، وَأَفْرَطُوا فِي التَّوَقِّي، فَتَرَكَ بَعْضُهُمْ مُؤَاكَلَةَ بَعْضٍ:

- فَكَانَ الْأَعْمَى لَا يُؤَاكِلُ النَّاسَ؛ إِذِ إِنَّهُ لَا يَرَى الطَّعَامَ، فَيَخَافُ أَنْ يَسْتَأْثِرَ، وَلَا يُؤَاكِلُهُ النَّاسُ يَخَافُونَ لِضَرَرِهِ أَنْ يُقْصَرَ.

- وَالْأَعْرَجُ يَتَجَافَى عَنِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يَنْتَسِبُ إِلَى الزَّمَنِ الَّذِينَ يَحْتَاجُونَ إِلَى فُسْحَةٍ فِي الْمَجْلِسِ كَبِيرَةٍ، فَيَأْخُذُ أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعِهِ، وَيَخَافُ النَّاسُ أَنْ يَسْبِقُوهُ لِضَعْفِهِ.

(1) انظر: الزركشي، البرهان، 22/1.

(2) انظر: الزركشي، البرهان، 22/1-29.

(3) الآية (النور، 61).

(4) الآية (البقرة، 188).

- وَالْمَرِيضُ يَخَافُ أَنْ يُفْسِدَ عَلَى النَّاسِ طَعَامَهُمْ بِمَرَضِهِ، أَوْ بِعَوَارِضِ مَرَضِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ -تَبَارَكَ- إِبَاحَةً وَتَوْسِيعَةً عَلَى هَؤُلَاءِ؛ إِذْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ فِي مُؤَاكَلَةِ النَّاسِ<sup>(1)</sup>.

وَقَدْ اسْتَشْرَفَ ابْنُ قُتَيْبَةَ سَبَبًا آخَرَ لِلنُّزُولِ، وَهُوَ الَّذِي رَوْتَهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَهُوَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَخْرُجُونَ إِلَى الْعَزْوِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْمَغَازِي، وَيَدْفَعُونَ بِمِفَاتِيحِهِمْ إِلَى الزَّمْنِيِّ قَائِلِينَ لَهُمْ: قَدْ أَخْلَلْنَا لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا فِي مَنَازِلِنَا، وَقَدْ كَانَ الزَّمْنِيُّ يَتَوَقَّوْنَ هَذَا حَتَّى نَزَلَ فِيهِمْ قَوْلُ الْحَقِّ تَقَدَّسَ اسْمُهُ<sup>(2)</sup>، وَلَمَّا وَرَدَ الْقُرْطُبِيُّ عَلَيْهَا أَشَارَ إِلَى أَنَّهُ قِيلَ إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ، أَوْ نَاسِخَةٌ، أَوْ مُحْكَمَةٌ<sup>(3)</sup>.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ تَبَايُنُ الْقَوْلِ عَلَى دِلَالَةِ "مَعَادٍ" فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: "إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ"<sup>(4)</sup>، وَلَكِنَّ ابْنَ قُتَيْبَةَ اسْتَرْشَدَ بِهَدْيٍ مِنَ السِّيَاقِ التَّارِيخِيِّ، وَسَبَبِ النُّزُولِ فِي تَعْيِينِ دِلَالَتِهَا، مُشِيرًا إِلَى أَنَّ مَعَادَ الرَّجُلِ: بَلَدُهُ؛ ذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ يَتَصَرَّفُ فِي الْبِلَادِ، وَيَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يَعُودُ فَيُقَالُ: رُدَّ فُلَانٌ إِلَى مَعَادِهِ: بَلَدِهِ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَدْ اغْتَمَّ بِمَفَارِقَةِ مَكَّةَ، لِأَنَّهَا مَوْلَدُهُ، وَمَوْطِنُهُ، وَمَنْشَأُهُ، فَاسْتَوْحَشَ، فَأَخْبَرَهُ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ- فِي طَرِيقِهِ أَنَّهُ سَيَرُّهُ إِلَى مَكَّةَ مُبَشِّرًا لَهُ بِالْغَلْبَةِ وَالظُّهُورِ<sup>(5)</sup>، وَالْمُسْتَفَادُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ تَعْيِينَ هَذَا الْمَعْنَى قَائِمٌ عَلَى اسْتِرْفَادِ السِّيَاقِ وَسَبَبِ النُّزُولِ، وَمَعَ هَذَا كَلَّهُ لَمْ يَكُنْ لِابْنِ قُتَيْبَةَ أَنْ يُقَرَّرَ مَعْنَى وَحِيدًا، فَقَدْ قِيلَ: الْمَعَادُ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ<sup>(6)</sup>.

### خَامِسًا: مُشْكِلٌ مَعْتَقِدِيٌّ

(1) انظر هذه الأقوال: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 332، وقال القرطبي إن فيها إحدى عشرة مسألة، فقول

ناسخة، وقيل منسوخة، وقيل محكمة، انظر: القرطبي، الجامع، 12/312-318.

(2) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 333.

(3) انظر: القرطبي، الجامع، 12/205.

(4) الآية (القصص، 85).

(5) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 425، وقد عرج على سبب النزول هذا الطبرسي في مجمع البيان،

329/6.

(6) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 425، وقد زاد الطبرسي فقال: المعاد هو الموت أو مكة. انظر:

تفسيره، 80/20، وقال الطبرسي إن المعاد قد يكون الجنة أيضا، انظر: الطبرسي، مجمع البيان،

329/6.

وَقَدْ يَرِدُ الْإِشْكَالُ مِنْ اعْتِقَادِ يُقِيمُ عَلَيْهِ أَهْلُ الْفِرْقِ، كَالْقَدَرِيَّةِ، وَضَدَّهَا الْجَبَرِيَّةِ، وَالْمُشَبَّهَةُ وَخِلَافُهَا الْمُجَسِّمَةُ، وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ الْفِرْقَ قَدْ وَجَدَتْ ضَالَّتَهَا فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ الشَّرِيفِ، فَأَخَذَتْ تَزَكُّنُ إِلَيْهِ، وَتُقِيمُ عَلَيْهِ الْفَرَضَ وَالِدَّلِيلَ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ -تعالى-: "يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ"<sup>(1)</sup>، فَقَدْ جَنَحَ أَهْلُ الْقَدَرِ فِي دِلَالَةِ هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ إِلَى أَنَّ الْمُتَعَيِّنَ مِنْهَا أَنَّهُ عَلَى جِهَةِ التَّسْمِيَةِ، وَالْحُكْمِ عَلَيْهِمُ بِالضَّلَالَةِ، وَلَهُمْ -لأهل القدر- بِالْهَدَايَةِ، وَقَدْ قَالَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ: يُضِلُّهُمْ: يَنْسِبُهُمْ إِلَى الضَّلَالَةِ، وَيَهْدِيهِمْ: يُبَيِّنُ لَهُمْ وَيُرْشِدُهُمْ<sup>(2)</sup>.

وَمِمَّا يَنْتَسِبُ إِلَى مَطْلَبِ هَذِهِ الْمُبَاحَثَةِ إِشَارَةُ ابْنِ قُتَيْبَةَ إِلَى زِيَادَةِ بَعْضِ الْكَلِمَاتِ رَفْعًا لِلتَّشْبِيهِ وَتَنْزِيهِهَا؛ وَذَلِكَ نَحْوُ "الوجه" فِي قَوْلِهِ -تعالى-:

- "كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ"<sup>(3)</sup>: وَالْمَعْنَى: إِلَّا هُوَ.
- "فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ"<sup>(4)</sup>، وَالْمَعْنَى: فَتَمَّ اللَّهُ.
- "إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ"<sup>(5)</sup>، وَالْمَعْنَى: لِلَّهِ.
- "يُرِيدُونَ وَجْهَهُ"<sup>(6)</sup>، وَالْمَعْنَى: يُرِيدُونَهُ بِالِدَّعَاءِ.

وَالنَّاطِرُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؛ مَسْأَلَةُ الصِّفَاتِ، يُلْفِي النَّاسَ قَدِ اخْتَلَفُوا فِي الْوَارِدِ مِنْهَا، فَكَانُوا عَلَى ثَلَاثِ شُعَبٍ:

- أَوْلَاهَا: تَغْيِيبُ التَّأْوِيلِ وَانْتِفَاؤُهُ، فَالآيَاتُ مُحْكَمَاتٌ تُفْهَمُ عَلَى ظَاهِرِهَا.
- وَثَانِيهَا: الْاِعْتِقَادُ بِالتَّأْوِيلِ مَعَ الْإِمْسَاكِ عَنْهُ.
- وَثَالِثُهَا: الْاِعْتِقَادُ بِالتَّأْوِيلِ مَعَ الْإِقْدَامِ عَلَيْهِ بِمَا يَلِيْقُ بِهِ عَزَّ<sup>(7)</sup>.

أَمَّا الَّذِينَ اعْتَقَدُوا -وَفِي الْاِعْتِقَادِ جَزْمٌ- بِوُجُوبِ حَمْلِ الْكَلَامِ عَلَى خِلَافِ الْمَفْهُومِ مِنْ حَقِيقَتِهِ فَقَدْ بَدَأَ لَهُمْ اسْتِحَالَةُ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْمُتَقَدِّمُ أَنْفَاءً، وَهُوَ ذِكْرُ الْوَجْهِ الَّذِي أَلْمَحَ إِلَيْهِ ابْنُ قُتَيْبَةَ.

(1) الآية (النحل، 93).

(2) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 123-124.

(3) الآية (القصص، 88).

(4) الآية (البقرة، 115).

(5) الآية (الإنسان، 9).

(6) الآية (الأنعام، 52).

(7) انظر: الزركشي، البرهان، 78/2.

وَمِمَّا يُضَافُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ؛ أَعْنِي الْمَشْكَالَ الْآتِيَّ مِنَ "الْمُعْتَقَد"، الْمُحَامَاةُ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ - مُحَامَاةٌ تُقْضَى إِلَى إِخْرَاجِ الْأَلْفَاظِ عَنِ دِلَالَتِهَا فِي سِيَاقِهَا الشَّرِيفِ؛ ذَلِكَ أَنَّ أَصْحَابَ هَذَا الْمَذْهَبِ أَمِيلٌ إِلَى نِسْبَةِ الْعِصْمَةِ إِلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، فَهُمْ يَسْتَوْجِحُونَ أَنْ يُلْحِقُوا بِهِمْ ذُنُوبًا، وَ"يَحْمِلُهُمُ التَّنْزِيهُ لَهُمْ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، عَلَى مُخَالَفَةِ كِتَابِ اللَّهِ -جَلَّ ذِكْرُهُ- وَاسْتِكْرَاهِ التَّأْوِيلِ، وَعَلَى أَنْ يَلْتَمِسُوا لِأَلْفَاظِهِ مِنَ الْمَخَارِجِ الْبَعِيدَةِ بِالْحَيْلِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي لَا تَخِيلُ عَلَيْهِمْ، أَوْ عَلَى مَنْ عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَتَلِكِ الْأَلْفَاظِ بِشَكْلِ، وَلَا كَتَلِكِ الْمَعَانِي بِلُفْقٍ"<sup>(1)</sup>.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ -تَبَارَكَ اسْمُهُ- فِي حَقِّ آدَمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: "وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى"<sup>(2)</sup>، فَهَمْ يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ قَدْ غَوَى، وَيُؤْوِلُونَ هَذَا بِقَوْلِ الْعَرَبِ: قَدْ غَوَى الْفَصِيلُ إِذَا أَكْثَرَ مِنَ اللَّبَنِ حَتَّى يَبْشَمَ"<sup>(3)</sup>، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا قَوْلٌ مُسْتَهْجَنٌ فِيهِ مُمَاحَكَةٌ وَشَطَطٌ فِي إِخْرَاجِ الْأَلْفَاظِ عَنِ دِلَالَتِهَا، وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ: "عَصَى وَغَوَى"، لَا أَنْ يُقَالَ: آدَمُ "عَاصٍ وَغَاوٍ"؛ "لَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ عَنِ اعْتِقَادٍ مُتَقَدِّمٍ، وَلَا نِيَّةٍ صَاحِحَةٍ"<sup>(4)</sup>.

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا"<sup>(5)</sup>.

وَقَدْ قِيلَ: هَمَّتْ بِالْمَعْصِيَةِ، وَهَمْ هُوَ بِالْفِرَارِ مِنْهَا، وَقِيلَ: هَمَّ بِضَرْبِهَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ -جَلَّ اسْمُهُ- يَقُولُ: "لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ"<sup>(6)</sup>، "أَفْتَرَاهُ أَرَادَ الْفِرَارَ مِنْهَا، أَوْ الضَّرْبَ لَهَا،...، وَلَكِنَّهَا هَمَّتْ بِالْمَعْصِيَةِ هَمَّ نِيَّةٍ وَاعْتِقَادٍ، وَهَمْ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هَمًّا عَارِضًا بَعْدَ طَوْلِ الْمُرَاوِدَةِ..."<sup>(7)</sup>، وَمِمَّنْ يَجْنَحُ إِلَى دَرِّهِ الْهَمَّ عَنِ يَوْسُفَ الصَّدِيقِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- الْقُرْطُبِيُّ؛ إِذِ إِنَّهُ أَمِيلٌ -بَعْدَ ذِكْرِ أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ- إِلَى أَنَّ الْكَلَامَ "فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، أَيُّ: لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ هَمَّ بِهَا،...، أَيُّ: هَمَّتْ زَلِيحَةً بِالْمَعْصِيَةِ، وَكَانَتْ مُصِرَّةً، وَهَمْ يَوْسُفٌ وَلَمْ يُوَاقِعْ مَا هَمَّ فِيهِ..."<sup>(8)</sup>.

(1) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 402.

(2) الآية (طه، 121).

(3) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 402.

(4) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 403.

(5) الآية (يوسف، 24).

(6) الآية (يوسف، 24).

(7) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 404.

(8) انظر: القرطبي، الجامع، 166/9.



وَفِي مَعْرِضِ حَدِيثِ ابْنِ الْأَنْبَارِيِّ عَنِ هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ أوردَ مَا قِيلَ فِيهَا، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ مَا هَمَّ بِالزَّنْيِ قَطًّا، أَوْ أَنْ هَمَّهَا يُخَالِفُ هَمَّ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ أَنْ تَمَّ تَقْدِيمًا وَتَأخِيرًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ، وَهُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْقُرْطُبِيُّ قَبْلًا، وَمُسْتَصْفَى الرَّأْيِ عِنْدَ ابْنِ الْأَنْبَارِيِّ أَنَّ يَوْسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- هَمَّ هَمًّا صَاحِبًا عَلَى مَا نَصَّ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ، وَبِذَا يَكُونُ الْهَمُّ حَاطِيَةً مِنَ الْخَطَايَا وَقَعَتْ مِنْهُ، فَلَيْسَ مُسَوِّغٌ لِلتَّقْدِيمِ أَوْ التَّأخِيرِ؛ "إِذْ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْنَا، وَاللَّازِمُ لَنَا، أَنْ نَحْمَلَ الْقُرْآنَ عَلَى لَفْظِهِ، وَأَلَّا نُزِيلَهُ عَنْ نَظْمِهِ، إِذَا لَمْ تَدْعُنَا إِلَى ذَلِكَ صَرُورَةً<sup>(1)</sup>، وَيُظْهِرُ مِنْ هَذَا الْمُتَقَدِّمِ مِنْ كَلَامِ ابْنِ الْأَنْبَارِيِّ أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِكَلَامِ ابْنِ قُتَيْبَةَ.

وَقَدْ يَنْصَافُ إِلَى الْمَشْكِالِ الْآتِي مِنَ الْمُعْتَقَدِ "الْحُرُوفُ الْمُقْتَعَةُ"، فَقَدْ اخْتَلَفَ فِي فَهْمِهَا وَتَعْيِينِ مُرَادِهَا، فَقِيلَ:

- هِيَ أَسْمَاءٌ لِلسُّورِ؛ إِذْ إِنَّ كُلَّ سُورَةٍ تُعْرَفُ بِمَا افْتَتِحَتْ بِهِ مِنْهَا.
- أَوْ هِيَ أَقْسَامٌ (جَمْعُ قَسَمٍ).
- أَوْ هِيَ حُرُوفٌ مَأْخُودَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْ ذَلِكَ "كَهَيْعِصَ"، فَالْكَافُ مِنْ كَافٍ، وَالْهَاءُ مِنْ هَادٍ، وَالْيَاءُ مِنْ حَكِيمٍ، وَالْعَيْنُ مِنْ عَالِمٍ، وَالصَّادُ مِنْ صَادِقٍ، فَالْكَتَابُ "الْقُرْآنُ" كَافٍ، هَادٍ، حَكِيمٍ، عَالِمٍ، صَادِقٍ<sup>(2)</sup>، وَاللَّهُ أَعْلَى وَأَعْلَمُ.

#### سادسًا: مُشْكِالٌ آتٍ مِنْ تَبَايُنِ اللَّهْجَاتِ وَالْقِرَاءَاتِ

وَقَدْ يَرِدُ الْإِشْكَالُ عِنْدَ ابْنِ قُتَيْبَةَ مِنْ بَوَابَةِ عَرِيضَةِ اسْمِهَا "تَبَايُنُ اللَّهْجَاتِ"، فَمِنْ الْمُفَرَّرِ الْمُسْتَحْكِمِ أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ بِنَاءً ائْتِلَافِيًّا يَنْتَظِمُ لَهْجَاتٍ مُتَبَايِنَةً، وَأَنَّ التَّنْزِيلَ الْعَزِيزَ يَشْتَمِلُ عَلَى مَلاحِظٍ لَهْجِيَّةٍ تَخْتَصُّ بِهَا الْقَبَائِلُ الْعَرَبِيَّةُ<sup>(3)</sup>، وَقَدْ افْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِلْقُرْآنِ فَضْلٌ عَظِيمٌ فِي تَقْرِيْبِ الْمَسَافَاتِ بَيْنَ اللَّهْجَاتِ، فَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ"، وَالْمَعْنَى -كَمَا يُوجِّهُهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ-: عَلَى سَبْعَةِ أَوْجِهٍ مِنَ اللَّغَاتِ مُتَفَرِّقَةٍ، وَيَدُلُّنَا عَلَى هَذَا قَوْلُهُ: "فَاقْرَأُوا أُنَى شِئْنُمْ"<sup>(4)</sup>.

(1) انظر: ابن الأنباري، الأضداد، 413.

(2) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 299، وانظر رأي الغزالي في الحروف المقطعة في كتابه: المستصفي من علم الأصول، تحقيق إبراهيم رمضان، دار الأرقم، بيروت، 1996م، 314/1.

(3) لمزيد بسط القول في اللهجات الواردة في التنزيل العزيز انظر في البرهان باب: "معرفة على كم لغة نزل"، 211/1، وباب "معرفة ما وقع من غير لغة أهل الحجاز من قبائل العرب"، 283/1، وفي الإتيان باب "فيما وقع فيه بغير لغة الحجاز"، 458.

(4) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 34.

وَقَدْ جَنَحَ أَهْلُ الزَّيْغِ وَالْإِزْرَاءِ بِالْعَرَبِ إِلَى عَدِّ هَذَا مَثَلًا مُشْكِلًا، وَلَيْسَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَالْتَّنْزِيلُ الْعَزِيزُ رَاعَى الْفُرُوقَ اللَّهْجِيَّةَ، وَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بُعِثَ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ أَحْمَرَهَا وَأَسْوَدَهَا، وَعَرَبِيَّهَا وَعَجَمِيَّهَا، وَكَانَتِ الْعَرَبُ الَّذِينَ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلُغَتِهِمْ لُغَاتِهِمْ مُخْتَلَفَةً، وَالسِّنُّهُمْ شَتَّى، وَيَعْسُرُ عَلَى أَحَدِهِمِ الْإِنْتِقَالَ مِنَ لُغَتِهِ إِلَى غَيْرِهَا، أَوْ مِنْ حَرْفٍ إِلَى آخَرَ، بَلْ قَدْ يَكُونُ بَعْضُهُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا بِالتَّعْلِيمِ وَلَا الْعِلَاجِ، لَا سَيِّمًا الشَّيْخُ وَالْمَرَأَةُ، وَمَنْ لَمْ يَقْرَأْ كِتَابًا،...، فَلَوْ كُفِّفُوا الْعُدُولَ عَنِ لُغَتِهِمْ، وَالْإِنْتِقَالَ عَنِ أَلْسِنَتِهِمْ، لَكَانَ مِنَ التَّكْلِيفِ بِمَا لَا يُسْتَطَاعُ، وَمَا عَسَى أَنْ يَتَّكَلَّفَ الْمُتَكَلِّفُ وَتَأْبَى الطَّبَاغُ<sup>(1)</sup>.

وَالْهُدَلِيُّ يَقْرَأُ: "عَتَى حِينَ"، وَهُوَ يُرِيدُ: "حَتَّى حِينَ"<sup>(2)</sup>؛ لِأَنَّ الْفَهْمَ مَرَنَ عَلَى اسْتِعْمَالِهَا بِهَذَا الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ آتِفًا، وَالْأَسَدِيُّ يَمِيلُ إِلَى كَسْرِ أَوَائِلِ الْأَفْعَالِ الْمُضَارِعَةِ، وَذَلِكَ نَحْوَ "يَعْلَمُ"، وَ"تَعْلَمُونَ"، وَ"تَسْوَدُ وَجْوهُ"، وَ"عَهْدُ إِلَيْكُمْ"، وَالتَّمِيمِيُّ يُحَقِّقُ الْهَمْزَ، وَالْفَرَشِيُّ لَا يَهْمَزُ، وَقَبِيلَةُ بَلْحَرْتِ بْنِ كَعْبٍ تُلْزِمُ الْمُثَنَّى أَلْفًا فِي أَحْوَالِهِ الثَّلَاثِ، وَعَلَى هَذَا جَاءَتْ الْقِرَاءَةُ: "إِنَّ هَذَانِ لَسَاجِرَانِ"<sup>(3)</sup>.

وَأَمْثَلُهُ تَبَايُنِ الْقِرَاءَاتِ مُتَعَدِّدَةً فِي التَّنْزِيلِ مُتَكَثِرَةً، وَقَدْ تَدَبَّرَ ابْنُ قُتَيْبَةَ وَجُوهَ الْخِلَافَاتِ فِي الْقِرَاءَاتِ فَأَلْفَاها سَبْعَةً:

- مِنْهَا الْاِخْتِلَافُ فِي إِعْرَابِ الْكَلِمَةِ، أَوْ فِي حَرَكَةِ بِنَائِهَا بِمَا لَا يُزِيلُهَا عَنِ صَوْرَتِهَا فِي الْكِتَابِ وَلَا يُغَيِّرُ مَعْنَاهَا.
- وَالْاِخْتِلَافُ فِي إِعْرَابِ الْكَلِمَةِ وَحَرَكَاتِ بِنَائِهَا بِمَا يُغَيِّرُ مَعْنَاهَا، وَلَا يُزِيلُهَا عَنِ صَوْرَتِهَا فِي الْكِتَابِ.
- وَالْاِخْتِلَافُ فِي حُرُوفِ الْكَلِمَةِ دُونَ إِعْرَابِهَا بِمَا يُغَيِّرُ مَعْنَاهَا وَلَا يُزِيلُ صَوْرَتِهَا.
- وَالْاِخْتِلَافُ فِي الْكَلِمَةِ بِمَا يُغَيِّرُ صَوْرَتِهَا فِي الْكِتَابِ، وَلَا يُغَيِّرُ مَعْنَاهَا.
- وَالْاِخْتِلَافُ فِي الْكَلِمَةِ بِمَا يُزِيلُ صَوْرَتِهَا وَمَعْنَاهَا.
- وَالْاِخْتِلَافُ فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ.

(1) انظر: ابن الجزري، شمس الدين محمد (833هـ)، النشر في القراءات العشر، تحقيق علي الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، 1980م، 22/1.

(2) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 39، والآية (المؤمنون، 54)، و(الصفات، 174)، و(النازعات، 43).

(3) الآية (طه، 63).

- وَالْاِخْتِلَافُ بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ<sup>(1)</sup>.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ تَبَايِنَ اللَّهْجَاتِ لَيْسَ مَقْصُورًا عَلَى الظَّوَاهِرِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَقَدْ يَقَعُ فِي الْمُسْتَوَى الْمُعْجَمِيِّ، أَعْنِي كَلِمَةً مَا فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ تَنْتَسِبُ إِلَى لَهْجَةٍ مَا، وَقَدْ تَوَاضَعَتْ عَلَى دِلَالَةٍ مُفَارِقَةٍ لِلْكَلِمَةِ نَفْسِهَا لَهْجَةً أُخْرَى<sup>(2)</sup>، وَمِنْ ذَلِكَ كَلِمَةُ "يَيْأَسُ" فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: "أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا..."<sup>(3)</sup>، وَالْمَعْنَى الْمُتَعَيَّنُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: "أَفَلَمْ يَعْلَمْ" بِلُغَةِ النَّخَعِ، وَقَدْ جَاءَتْ فِي شَعْرِ سُحَيْمِ بْنِ وَثِيلٍ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى:

أَقُولُ لَهُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ يَأْسِرُونَنِي أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسٍ زَهْدَمٍ<sup>(4)</sup>.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ فِي الْآيَةِ إِشْكَالًا لَا يَخْفَى عَلَى صَاحِبِ نَظَرٍ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَظُنُّ أَنَّ الْيَأْسَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ نَقِيضُ الرَّجَاءِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ كَذَلِكَ الْبَتَّةَ، وَقَدْ نَبَّهَ ابْنُ قُتَيْبَةَ وَبَعْضُ مَنْ وَرَدَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الْمُتَعَيَّنِ مِنْهَا.

#### دَرَجَاتُهُ:

وَأَلْعَلَّهُ يَسْتَقِيمُ، بَعْدَ هَذَا الْعَرْضِ الْمُتَقَدِّمِ لِمَوَاضِعِ الْمَشْكِْلِ، الْقَوْلُ إِنَّ الَّذِي أَثْبَتَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ لَيْسَ سَوَاءً فِي دَرَجَةِ إِشْكَالِهِ؛ إِذْ إِنَّ النَّاطِرَ بِرَوِيَّةٍ يَقِفُ وَجَاهُ أَمْثَلَةٍ قَدْ تُنْسَبُ إِلَى ظَاهِرَةِ الْمَشْكِْلِ انْتِسَابًا حَمِيمًا، وَبَعْضُهَا لَا يَنْتَسِبُ الْبَتَّةَ، وَثَالِثًا يَتَرَدَّدُ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، وَصَفْوَةُ الْقَوْلِ أَنَّ مُثْلَ الْمَشْكِْلِ الَّتِي أَثْبَتَهَا ابْنُ قُتَيْبَةَ تَتَوَسَّعُهَا ثَلَاثُ شُعَبٍ:

#### أَوْلَاهَا:

(1) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 33-42.

(2) من ذلك كتاب "لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم" للهروي، و"اللغات في القرآن"، برواية ابن حسنون عن ابن عباس.

(3) الآية (الرعد، 31).

(4) انظر البيت: أبو عبيدة، مجاز القرآن، 1/332، وابن عباس، غريب القرآن في شعر العرب: سؤالات نافع بن الأزرق، تحقيق محمد عبد الرحيم، وأحمد نصر الله، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1993م، 37، والهروي، لغات القبائل، 150، وقد عدها بلغة هوازن، أما القرطبي فذكر اللغتين: لغة النخع ولغة هوازن، ثم إنه ذكر أن "اليأس" في سياق هذه الآية الشريفة قد يكون اليأس المعروف. انظر: الجامع، 9/320.

أمثلة لا يرتفع إشكالها؛ ذلك أن إشكالها مستحکم لا يوقف على المتعين من دلالتها إلا بالتوهم دون التحكم، وينبني على هذا أن يبقى المعنى مفتوحاً محتملاً، ومن أمثلة ذلك دلالة الصيغة الصرفية "عاصم" التي تردت بين معنيين صرفيين، فبقي المعنى مفتوحاً، ودلالة "أو" المحتملة في: "وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون"، وتردد التركيب بين المعنى الحقيقي والمجازي في: "وامراته حمالة الحطب"<sup>(1)</sup>.

### وثانيها:

أمثلة سيرت بركب المشكل اعتباطاً لا صدقاً؛ ذلك أن متأملها لا يُلْفِي فيها إشكالاً البتة، ولعلَّ عذر ابن قتيبة أنه وقف محامياً عن القرآن العزيز، فعمل على استشراف حكاية الطاعنين على القرآن ومساءلاتهم، فعمد إلى جمع ما رآه مشكلاً، وما عده الطاعنون كذلك، فالتقت هذه الأمثلة التي ينتسب بعضها إلى ظاهرة "المشكل" صدقاً مع أمثلة أخرى ألحقت بها ردًا على الطاعنين، وتجليه لجها لاتهم، وتقصير أفهامهم، ومن مثل ذلك: "واسأل القرية"، و"فوجد فيها جداراً يريد أن ينقض"، و"كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله"<sup>(2)</sup>، والمعنى: كلما هاجوا شراً، وأجمعوا أمراً، سكنه الله، ووهن أمرهم<sup>(3)</sup>، وليس يخفى أن هذه الأمثلة ونحوها مما لا يلحق بركب المشكل.

### وثالثها :

أمثلة مشكلة يرتفع إشكالها بالثقافة اللغوية العالية؛ إذ إن صاحب النظر والدربة اللغوية يقف على المتعين منها معتمداً على ما استقر في نفسه من معرفة لغوية ومراس، ولكن، قد يتعذر تحقيق هذا المطلب عند كثيرين؛ إذ إن الناس متفاوتون في سلم درجات المعرفة، فمنهم مبرز لمحة، ومنهم من هو دون ذلك طرائق قذداً، ولذا عمل ابن قتيبة على ذرع وهم قد يقع في خاطر الأول عند بعض الناس، فألحق هذه الآيات الكريمة بركب المشكل تنبيهاً إليها، وإشارة، وتحوطاً لما قد يقع من فهم يجافي المراد الذي رُمى إليه الحق تبارك في علاه، ومن ذلك قوله -تعالى-: "وصل عليهم"، و"شروه بئمن بخس"، و"إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون"<sup>(4)</sup>، والحق أن هذا يكثر إن تنبعت، وقد أوردت أمثلة تنبه على الغرض الذي قصدته.

(1) تقدم حديث عن ذلك قبلاً.

(2) الآية (المائدة، 64).

(3) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 148.

(4) تقدم حديث عن مشكل هذه الآيات في صفحات سابقة في هذه المباحث.

## بَوَاعِثُهُ:

وَبَعْدُ،

فَمَا تَقَدَّمَ حَدِيثُ مِضْمَارِهِ مَوَاضِعُ الْمُشْكِْلِ وَدَرَجَاتُهُ، وَيَبْقَى حَقًّا عَلَيَّ، اسْتِكْمَالًا لِمَتَطَلَّبَاتِ هَذَا الدَّرْسِ، أَنْ أَقِفَ عِنْدَ الْبَوَاعِثِ الَّتِي أُذِنْتُ بِتَخْلُقِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ، مُسْتَنِدًا فِي هَذَا كُلِّهِ إِلَى كِتَابِ ابْنِ قُتَيْبَةَ، وَالْحَقُّ أَنَّ نَمَّ بَوَاعِثَ مُتَضَافِرَةً أَفْضَتْ إِلَى بُزُوعِهَا، وَمِنْ ذَلِكَ:

- الْبَاعِثُ الْمَكَانِيُّ الَّذِي أَفْضَى إِلَى تَخْلُقِ الْمُشْكِْلِ الْآتِي مِنَ اللَّهْجَاتِ وَالْقِرَاءَاتِ.
- وَالْبَاعِثُ الزَّمَانِيُّ الَّذِي أُذِنَ بِالتَّطَوُّرِ الدَّلَالِيِّ وَانزِيَاكِ الْأَلْفَاظِ عَنْ مَعَانِيهَا الْأَوَّلِ.
- وَالْبَاعِثُ الْأَسْلُوبِيُّ الَّذِي أَفْضَى إِلَى نُشُوءِ الْمُشْكِْلِ الْآتِي مِنَ الْاجْتِزَاءِ، وَالزِّيَادَةِ، وَتَدَاخُلِ حُدُودِ الْجُمْلِ، وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، وَتَرَدُّدِ دِلَالَةِ التَّرْكِيبِ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ.
- وَلَيْسَ يُنْسَى فِي هَذَا الْمَقَامِ الْبَاعِثُ اللَّغَوِيُّ، فَقَدْ يَكُونُ الْمُشْكِْلُ آتِيًا مِنْ جِبَلَةِ اللُّغَةِ وَبِنِيَّتِهَا، فَلَا أَثَرَ فِي هَذَا الْبَاعِثِ لِلزَّمَانِ، أَوْ الْمَكَانِ، أَوْ الْأَسْلُوبِ، بَلْ ذَلِكَ مَرْدُهُ إِلَى التَّوَامِيصِ الَّتِي تَفْعَلُ فِي تَشْكِيلِ النِّظَامِ اللَّغَوِيِّ، وَمِنْ ذَلِكَ الْمُشْتَرَكُ اللَّفْظِيُّ، وَالْأَضْدَادُ، وَالصِّغُ الصَّرْفِيَّةُ الْمُحْتَمَلَةُ، وَعُمُومِيَّةُ الدَّلَالَةِ.
- وَيَنْصَافُ إِلَى تَلْكَمِ الْبَوَاعِثِ الْمُتَقَدِّمَةِ "الْمُعْتَقَدُ"، فَتَمَّ مُشْبِهَةٌ تَقْفُ وَجَاهَ الْمَنْزَهَةِ، وَقَدْرِيَّةٌ، وَجَبْرِيَّةٌ، وَغَيْرُهَا، وَالْكُلُّ يَصْدُرُ عَنِ فِكْرِ وَاعْتِقَادِ يُقِيمُ عَلَيْهِ، وَيَقِيءُ إِلَى النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ اللَّغَوِيِّ لَيْسِنْدَ مُعْتَقَدِهِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ هَذَا الصَّرْبَ مِنَ الْمُشْكِْلِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَظٌّ جَلِيٌّ فِي كِتَابِ ابْنِ قُتَيْبَةَ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَنْبَغِي الْإِلْمَاحُ إِلَيْهِ أَنَّ لِهَذَا الْبَاعِثِ سَهْمَةً جَلِيَّةً فِي بُزُوعِ ظَاهِرَةِ "الْمُشْكِْلِ"، وَأَنَّ النَّاسَ مُتَفَاوِتُونَ فِي تَقْدِيرِ الْإِشْكَالِ أَوْ انْتِقَائِهِ، فَمَا هُوَ مُحْكَمٌ عِنْدَ زَيْدٍ قَدْ يَكُونُ مُشْكَلاً مُتَشَابِهاً عِنْدَ عَمْرٍو، "وَالنَّاسُ مُتَنَازِعُونَ فِي الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ، كَمَا هُمْ مُتَنَازِعُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ، لِأَنَّ مَا يَعُدُّهُ الْمُشْبِهُ مُحْكَمًا عِنْدَ الْمُوَحِّدِ مِنَ الْمُتَشَابِهِ، وَمَا يَعُدُّهُ الْمُوَحِّدُ مُحْكَمًا عِنْدَ الْمُشْبِهِ بِخِلَافِهِ، وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِيمَنْ يَعْتَقِدُ الْجَبْرَ، وَفِيمَنْ يَقُولُ بِالْعَدْلِ"<sup>(1)</sup>.

(1) انظر: القاضي عبد الجبار (415هـ)، متشابه القرآن، تحقيق عدنان زرزور، دار التراث، القاهرة،

وَبَعْدُ؛ فَهَذَا نَظْرٌ بَحْثِيٌّ مَوْضُوعُهُ مُشْكَلُ الْقُرْآنِ عِنْدَ ابْنِ قُنَيْبَةَ، وَقَدْ تَرَدَّدَتْ فِيهِ بَيْنَ  
ثَلَاثَةِ مَطَالِبَ:

- أَوْلَاهَا مَوَاضِعُ الْمَشْكَلِ.

- وَثَانِيهَا دَرَجَاتُهُ.

- وَثَالِثُهَا بَوَاعِثُهُ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِي بَدْءٍ وَفِي خَتْمٍ

### ثبت المصادر والمراجع:

- أحمد الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، مكتبة النهضة العربية، بغداد، 1953م.
- الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد(370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مراجعة علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1964م.
- الأخفش، أبو الحسن سعيد بن مسعدة(215هـ)، معاني القرآن، تحقيق هدى قراعة، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990م.
- الأستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن(686هـ)، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق محمد الحسن وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982م.
- ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد(577هـ)، البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق طه عبد الحميد طه، مراجعة مصطفى السقا، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1980م.
- ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم(328هـ)، الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1987م.
- ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم(328هـ)، إيضاح الوقف والابتدا في كتاب الله عز وجل، تحقيق محيي الدين رمضان، ط1، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1971م.
- أولمان، ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، 1962م.
- البلخي، مقاتل بن سليمان(150هـ)، الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق عبد الله شحاتة، ط2، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1994م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم(728هـ)، تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير فيها القول الصواب، بل لا يوجد فيها إلا ما هو خطأ، تحقيق عبد العزيز الخليفة، ط1، مكتبة الرشد، الرياض، 1997م.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد(429هـ)، الأشباه والنظائر في الألفاظ القرآنية التي ترادفت مبانيتها وتنوعت معانيها، تحقيق محمد المصري، دار الفكر، دمشق، 1984م.

- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (429هـ)، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، دار الفكر، دمشق، 1997م.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (471هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1989م.
- ابن الجزري، شمس الدين محمد بن محمد (833هـ)، النشر في القراءات العشر، أشرف على تصحيحه ومراجعته علي الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، 1980م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (392هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ودار الشؤون الثقافية، بغداد، 1990م.
- أبو حيان، محمد بن يوسف (745هـ)، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م.
- الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد (444هـ)، المكتفى في الوقف والابتداء، ط1، تحقيق جابر مخلف، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، 1983م.
- الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (384هـ)، معاني الحروف، تحقيق عبد الفتاح شلبي، ط2، مكتبة الطالب الجامعي، السعودية، 1986م.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، 1987م.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (538هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، القاهرة، 1977م.
- السجستاني، أبو بكر محمد بن عزيز (330هـ)، نزهة القلوب في تفسير القرآن العزيز، تحقيق يوسف المرعشلي، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1990م.
- ابن سلام، يحيى بن سلام البصري (200هـ)، التصاريف: تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه، تحقيق هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1980م.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (180هـ)، كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م.
- ابن السّيد، عبد الله بن محمد البطليوسي (521هـ)، الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم، تحقيق محمد الداية، ط3، دار الفكر، بيروت، 1987م.



- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة الباز، ط2، مكتبة الباز، الرياض، 1998م.
- الطبرسي، الفضل بن الحسن (5--هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
- الطبري، محمد بن جرير (310هـ)، تفسير الطبري "المسمى جامع البيان في تفسير القرآن"، طبعة بولاق، 1329هجرية.
- ابن عباس، عبد الله بن عباس (68هـ)، غريب القرآن في شعر العرب: سؤالات نافع بن الأزرق، عبد الله بن عباس، تحقيق محمد عبد الرحيم وأحمد نصر الله، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1993م.
- ابن عباس، عبد الله بن عباس (68هـ)، كتاب اللغات في القرآن، رواية ابن حسنون، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1946م.
- أبو عبيدة، معمر بن المثنى (210هـ)، مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، محمد الخانجي، القاهرة، 1962م.
- العكبري، أبو البقاء عبدالله بن الحسين (616هـ)، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي البجاوي، ط2، دار الجيل، بيروت، 1987م.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (505هـ)، المستصفى في علم الأصول، تحقيق إبراهيم رمضان، دار الأرقم، بيروت، 1994م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (395هـ)، معجم مقاييس اللغة، ط1، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1991م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (395هـ)، الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق عمر الطباع، ط1، مكتبة المعارف، بيروت، 1993م.
- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (207هـ)، معاني القرآن، تحقيق أحمد نجاتي، ومحمد النجار، الدار المصرية، القاهرة، 1955م.
- القاضي، عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (415هـ)، متشابه القرآن، تحقيق عدنان زرزور، دار التراث، القاهرة، 1969م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (276هـ)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، 1973م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (276هـ)، تفسير غريب القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م.

- القرطبي، محمد بن أحمد(671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد(285هـ)، المقتضب، تحقيق محمد عضيمة، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1968م.
- محيي الدين شيخ زاده(951هـ)، حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، ضبط محمد عبد القادر شاهين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.
- مكي بن أبي طالب(437هـ)، العمدة في غريب القرآن، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981م.
- مكي بن أبي طالب(437هـ)، مشكل إعراب القرآن، تحقيق حاتم الضامن، وزارة الإعلام، بغداد، 1975م.
- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم(711هـ)، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد(338هـ)، القطع والائتلاف، تحقيق أحمد العمر، ط1، مطبعة العاني، بغداد، 1978م.
- ابن الهائم، أبو العباس أحمد بن محمد(815هـ)، التبيان في تفسير غريب القرآن، تحقيق فتحي أنور الدابولي، دار الصحابة، طنطا، 1992م.
- الهروي، أبو عبيد القاسم بن سلام(224هـ)، لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم، تحقيق عبد الحميد السيد طلب، جامعة الكويت، الكويت، 1985م.
- ابن هشام، جمال الدين بن هشام(761هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك، ومحمد حمد الله، ط2، مكتبة سيد الشهداء، دن، 1972م.
- ابن يعيش، موفق الدين(643هـ)، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

### أثر استشراف التطور الدلالي في فهم النص القرآني نماذج جزئية وموجهات كلية

صَفْوَةُ الْمُسْتَخْلَصِ مِنْ هَذِهِ الْمُبَاحَثَةِ أَنَّهَا قَائِمَةٌ عَلَى اسْتِرْفَادِ مَلْحَظٍ لِسَانِيٍّ مَضْمُونُهُ احْتِرَاسٌ مِنْ أَنْ يَفْهَمَ اللَّاحِقُ كَلَامَ السَّابِقِ كَمَا يَفْهَمُهُ فِي عَصْرِهِ ظَانًّا أَنَّ تِلْكَ الْأَلْفَاظَ الْمُتَقَادِمَةَ كَانَتْ تَعْنِي عِنْدَهُ -أَعْنِي السَّابِقَ- مَا تَعْنِيهِ الْيَوْمَ، وَالْبَاحِثُ إِذْ يُقَارِبُ هَذَا الْمَطْلَبَ فَإِنَّهُ يُعْنَى بِاسْتِشْرَافِ مُثَلٍّ مِنَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ وَقَعَ فِي دِلَالَةِ بَعْضِ كَلِمَاتِهَا تَطَوُّرٌ، فَأَفْضَى هَذَا إِلَى انزِيحِهَا عَنْ مَعَانِيهَا الْمُتَقَادِمَةِ، وَلِذَا لَيْسَ ثَمَّ بُدٌّ مِنْ اسْتِرْفَادِ مَلْحَظِ التَّطَوُّرِ الدَّلَالِيِّ، وَأَعْرَاضِهِ، وَبَوَاعِثِهِ، تَبْيَانًا لِلْمَقْصِدِ الَّذِي رَمَى إِلَيْهِ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ، وَاحْتِرَاسًا مِنْ أَنْ يَقَعَ الْمَرءُ فِي مَحْظُورٍ يَرُدُّ عَلَيْهِ عِنْدَ التَّجَافِي عَنْ مَلْحَظِ التَّطَوُّرِ الدَّلَالِيِّ.

### مُسَوِّغٌ أَوْلَى<sup>(1)</sup>:

قامَ هذا الدرسُ في نَفْسِي من مُسَاءَلَةٍ وَرَدَتْ عَلَيَّ إِذْ كُنْتُ مُحَاضِرًا فِي طُلَّابِي، فَقَدِ اعْتَرَضَهُ نَابَةٌ، بَعْدَ طَوِيلِ تَبَصُّرٍ وَتَدَبُّرٍ، فِي قَوْلِهِ -تَنَزَّهُ اسْمُهُ-: "ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ"<sup>(2)</sup>، وَقَدْ كَانَ مِضْمَارُ الْمُسَاءَلَةِ تِلْكَ اسْتِشْرَافَ السِّيَاقِ الْبِنْيَوِيِّ وَتَعَالَقِ الْكَلِمِ فِي الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْحَقَّ -جَلَّ فِي غَلَاهِ- يَقُولُ: "ارْكُضْ بِرِجْلِكَ"، فَلِمَاذَا الرَّجُلُ؟ وَهَلْ يَرْكُضُ الْإِنْسَانُ بِغَيْرِ رِجْلِهِ؟

وَإِذَا كَانَ الْجَوَابُ بِالْإِيجَابِ، فَهَلْ لَنَا أَنْ نَقُولَ: ارْكُضْ بِرَأْسِكَ، أَوْ يَدِكَ؟ أَمْ أَنَّ هَذَا التَّرْكِيبَ الْبِنْيَوِيَّ فِيهِ إِطْنَابٌ الْمَقْصُدُ مِنْهُ التَّوَكِيدُ؟ كُلُّ ذَلِكَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ السُّؤَالَاتِ الَّتِي ازْدَحَمَتْ فِي الدَّهْنِ، وَقَدْ جَنَحْتُ وَقَفَّتْهَا إِلَى عَدَّهَا مِمَّا يَنْتَسِبُ إِلَى مَطْلَبِ الْقَوْلِ عَلَى الْإِطْنَابِ لِعَرَضِ التَّوَكِيدِ<sup>(3)</sup>، كَقَوْلِنَا: رَأَيْتُهُ بِأَمِّ عَيْنِي، وَالْحَقُّ أَنَّنِي تَبَيَّنْتُ، بَعْدَ مُعَاوَدَةِ النَّظَرِ، فِي مِطَانِ التَّفْسِيرِ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ كَذَلِكَ؛ إِذْ إِنَّنِي أَلْقَيْتُ حُكْمِي جُرَافًا فِي تِلْكَ الْمُحَاضِرَةِ، فَالْمَعْوَلُ عَلَيْهِ فِي الْوُقُوفِ عَلَى الْمُتَعَيِّنِ مِنْ دِلَالَةِ "رِكْض" فِي سِيَاقِهَا الشَّرِيفِ ذَاكَ هُوَ اسْتِرْفَادُ مَلْحَظِ التَّطَوُّرِ الدَّلَالِيِّ؛ ذَلِكَ أَنَّ "رِكْضًا" -كَمَا سَيَتَبَيَّنُ بَعْدًا- يَقَعُ تَحْتَهَا مَعْنِيَانِ:

- أَوْلَاهَا مُتَقَادِمٌ مَعْمَرٌ.

- وَثَانِيهِمَا حَادِثٌ مُتَخَلِّقٌ مِنَ التَّطَوُّرِ الدَّلَالِيِّ.

وَقَدْ جَاءَتْ فِي سِيَاقِهَا الشَّرِيفِ ذَاكَ بِالْمَعْنَى الْمُنْتَقَدِمِ، فَاسْتَدْرَكْتُ، بَعْدَ هَذَا كَلِّهِ، مَا يَجِبُ عَلَى الْمُفَسِّرِ الْبِدَاءُ بِهِ، وَهُوَ الْعُلُومُ اللَّفْظِيَّةُ، وَعَلَى رَأْسِهَا -كَمَا يَرَى الرَّاعِبُ، وَالزَّرْكَشِيُّ، وَالسِّيَوطِيُّ- تَحْقِيقُ الْأَلْفَافِ الْمَفْرَدَةِ<sup>(4)</sup>، وَ"هُوَ كَمَا قَالُوا: إِنَّ الْمُرْكَبَ لَا يُعْلَمُ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِمَفْرَدَاتِهِ؛ لِأَنَّ الْجُزْءَ سَابِقٌ عَلَى الْكُلِّ فِي الْوُجُودِ مِنَ الدَّهْنِيِّ وَالْخَارِجِيِّ"<sup>(1)</sup>.

(1) نشر هذا البحث في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني في الأردن سنة 2005م في عددها الثامن والستين.

(2) الآية (ص، 42).

(3) انظر تعريف الإطناب وضروبه: السيوطي (911هـ)، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، إشراف عبد المنعم إبراهيم، ط2، مكتبة نزار الباز، الرياض، 1998م، 882-854/3.

(4) انظر: الراغب الأصفهاني (502هـ)، معجم المفردات في غريب القرآن، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، 8، والزركشي (794هـ)، البرهان في علوم القرآن،

### تأسيس ومهاد:

من المقرّر المستحکم أنّ ظاهرة التطور اللغويّ عامّة، والدلاليّ خاصّة، نافذة الفعل في اللغة، ويتجلى ذلك في مستويات اللغة: الصوتي، والصرفي، والتركيبي، والمعجمي، والأسلوبي، وموضع المباحثة في هذه الأنظار اللغوية خاص بالتطور الدلالي الذي له بواعث مخصوصة وأعراض، فدالات الألفاظ في حركة دائمة، فمن تميم، إلى تخصيص، إلى رقي، إلى انحطاط، إلى نقل، وتعل بواعث مخصوصة أدواراً تفضي إلى تطور دلالات الألفاظ، ومن ذلك الأدوار الاجتماعية، والتاريخية، والتفسيّة، وكثرة التداول، والحاجة، وتطور المجتمع<sup>(2)</sup>.

ثمّ إنّها وسيلة التفكير وأداته، والفكر في حركة دائمة متوتّبة، وما ينسحب على الفكر ينسحب على اللغة، والذي يخص هذه المباحثة هو التطور الواقعي في دلالة الكلمة المعجمية في التنزيل العزيز، والحق أنّ الناظر في المعجمات العربية يجد بين كثير من الألفاظ ودلالاتها تراخياً جلياً، ولا ينسى أنّ كثيراً من ألفاظ العربية المعمرّة متداولة، وقد خضعت لناموس التطور، فأنزاحت بعض الألفاظ عن دلالاتها قليلاً، وتراخت أخرى إلى حدّ الإيهام دون الإحكام، وقد كان من شأن هذا الذي تقدّم أنّ يُعقب التباساً وعموصاً في كثير من المواقف الكلامية، كأن يفهم اللاحق الألفاظ السابق كما يفهمها في عصره ظاناً أنّ تلكم الألفاظ المتقادمة كانت تعني عند السابق ما تعنيه عند اللاحق.

والظاهر أنّ العربية ليست بدعاً بين اللغات في هذه الجهة، فقد هجس بهذا، على صعيد عربي، بعض الدارسين الذين تحسّسوا هذا التقاض المتخلّق من التطور الدلالي، وانزياح الألفاظ المعمرّة عن دلالاتها المتقادمة، "ولو قمنا بمقارنة كاملة بين فترتين متباعدتين لتكشف لنا الأمر عن اختلافات عميقة كثيرة من شأنها أنّ تُعوق فهم المرحلة السابقة وإدراكها إدراكاً تاماً، فمما لا شكّ فيه أنّنا في حاجة إلى استعداد لغويّ خاصّ كي نتّمكّن من فهم

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، 1987م، 173/2، والسيوطي، الإتيان، 1194/4.

(1) انظر: الزركشي، البرهان، 173/2.

(2) لمزيد بسط القول في بواعث التطور الدلالي انظر: أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، ط1، مكتبة الشباب، القاهرة، 1962م، 159-206، ورمضان عبد التواب، التطور اللغوي: مظاهره وعلله وقوانينه، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990م، 182-200.

الملحمة الإنجليزية القديمة "Beowulf" مثلاً، أو أن نتذوق أساليب النثر في عهد الملك ألفريد King Alfred<sup>(1)</sup>.

### تَجْلِيَةٌ وَفَضْلُ بَيَانٍ:

لَعَلَّ أَوَّلَ مَا يَنْبَغِي الْمُكْتَبُ عِنْدَهُ، وَفَاءً بِالْخَوْصِ فِي مَطَالِبِ هَذَا الدَّرْسِ، وَاسْتِكْمَالاً لِمُسْتَلْزَمَاتِهِ، النَّظَرُ فِي بَاعِثِ الْبَاحِثِ عَلَى الدَّرْسِ الْمُتَخَلِّقِ مِنْ تِلْكَ الْمُسَاءَلَةِ الْمُتَقَدِّمِ بَيَانُهَا فِي "مُسَوِّغٍ أَوْلَى"، وَهِيَ دِلَالَةُ "الرَّكْضِ" فِي سِيَاقِهَا الْقُرْآنِيِّ الشَّرِيفِ:

يَحْسُنُ أَوَّلًا أَنْ يُبَيِّنَ التَّطَوُّرَ الدَّلَالِيَّ الْحَادِثُ فِي دِلَالَةِ الرَّكْضِ، لِيَعْقُبَهُ فَضْلُ بَيَانٍ يُجَلِّي أَثَرَ اسْتِشْرَافِ التَّطَوُّرِ الدَّلَالِيِّ فِي فَهْمِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ:

جاء في اللسان: رَكَضَ الدَّابَّةَ يَرْكُضُهَا رَكَضًا: ضَرَبَ جَنْبَيْهَا بِرِجْلِهِ، وَفُلَانٌ يَرْكُضُ دَابَّتَهُ: وَهُوَ ضَرَبُ مَرْكَلَيْهَا بِرِجْلِهِ، فَلَمَّا كَثُرَ هَذَا عَلَى أَسْنَتِهِمْ اسْتَعْمَلُوهُ فِي الدَّوَابِّ، فَقَالُوا: هِيَ تَرْكُضُ؛ كَأَنَّ الرَّكْضَ مِنْهَا، وَيُقَالُ أَيْضًا: أَرْكَضَتِ الْفَرَسُ إِذَا اضْطَرَبَ جَنْبُهَا فِي بَطْنِهَا، وَرَكَضَ الطَّائِرُ فِي طَيْرَانِهِ، أَي: ضَرَبَ بِجَنَاحَيْهِ، وَرَكَضَهُ الْبَعِيرُ بِرِجْلِهِ: أَي ضَرَبَهُ، وَأَصْلُ الرَّكْضِ الضَّرْبُ، وَالرَّكْضُ تَحْرِيكُ الرَّجْلِ، وَرَكَضَ الْأَرْضَ وَالثَّوْبَ: ضَرَبَهَا بِرِجْلِهِ، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ: "لَمَّا دَفَنَّا الْوَلِيدَ رَكَضَ فِي لَحْدِهِ"، أَي ضَرَبَ بِرِجْلِهِ الْأَرْضَ<sup>(2)</sup>.

وَلَعَلَّهُ يَصِحُّ فِي الْفَهْمِ أَنْ يُقَالَ إِنَّ الرِّكْلَ وَالرَّكْضَ فِي أَصْلِهِمَا إِنَّمَا يَفِيئَانِ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، فَقَدْ جَاءَ فِي اللِّسَانِ فِي مَادَّةِ "ر ك ل" أَنَّ الرِّكْلَ: ضَرَبْتُ الْفَرَسَ بِرِجْلِكَ لِيَعْدُوَ،... وَقِيلَ هُوَ الرَّكْضُ بِالرِّجْلِ،... وَمَرَائِلُ الدَّابَّةِ حَيْثُ يَرْكُلُهَا الْفَارِسُ بِرِجْلِهِ إِذَا حَرَكَهُ لِلرَّكْضِ<sup>(3)</sup>.

أَمَّا السُّؤَالُ عَنِ عَلَّةِ الْعِلَّةِ، وَهِيَ تَمَثُّلُ الْبَاعِثِ عَلَى تَدَاخُلِ مَادَّةِ "ر ك ض" مَعَ مَادَّةِ "ر ك ل"، فَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا حَاضِرٌ عَتِيدٌ؛ إِذْ إِنَّ مِنَ الْمُقَرَّرِ الْمُسْتَحْكِمِ أَنَّ ضَادَ الْعَرَبِيَّةِ أَمْسٍ لَيْسَتْ ضَادَ الْيَوْمِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الضَّادَ الْقَدِيمَةَ كَانَتْ رِخْوَةً جَانِبِيَّةً كَاللَّامِ، أَمَّا الضَّادُ الْحَادِثَةُ فَهِيَ انْفِجَارِيَّةٌ يَنْقَطِعُ مَعَهَا تَيَّارُ الْهَوَاءِ الْخَارِجِ؛ وَذَلِكَ نَحْوَ الْقَافِ وَالذَّالِ، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ تَمَّ مِثَابَةَ

(1) انظر: أولمان، دور الكلمة، 170.

(2) انظر: ابن منظور (711هـ)، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، د. ت، مادة "ركض"، وقد قال

الراغب: "فمتى نسب إلى الراكب فهو إعداء مركوب، نحو: رَكَضْتُ الْفَرَسَ، ومتى نُسِبَ إِلَى

الماشي فوطء الأرض". انظر: معجم المفردات في غريب القرآن، 228.

(3) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "ركل".

بَيْنَ الضَّادِ الْقَدِيمَةِ وَاللَّامِ، فَكِلَا الصَّوْتَيْنِ مَجْهُورٌ جَانِبِيٌّ، وَكِلَاهُمَا رِخْوٌ، وَقَدْ أَلْمَحَ بَلْ صَرَحَ  
بِهَذَا سيبويه فَقَالَ: "لَأَنَّ الضَّادَ اسْتَطَالَتْ لِرِخَاوَتِهَا حَتَّى اتَّصَلَتْ بِمَخْرَجِ اللَّامِ"<sup>(1)</sup>.

وَلِذَلِكَ يُلْفِي الْمَرَّةُ تَدَاخُلًا بَيْنَ الْمَادَتَيْنِ جَلِيًّا فِي الْمُعْجَمِ الْعَرَبِيِّ حَتَّى لَيْسُ كُنْهَ خَاطِرٌ  
مَفَادُهُ أَنَّ الرَّكْلَ وَالرَّكُضَ إِنَّمَا هُمَا مَادَتَانِ تَنْتَسِبَانِ إِلَى أَصْلِ وَاحِدٍ، كُلُّ ذَلِكَ بِاعْتِنَاءِ التَّمَاتِلِ  
النِّسْبِيِّ بَيْنَ ضَادِ الْأَمْسِ وَاللَّامِ.

وَلَعَلَّهُ -مِنْ وَجْهَةٍ أُخْرَى- يَسْتَقِيمُ بَعْدَ هَذَا الْعَرَضِ الذَّالِ بِالِاقْتِضَابِ عَلَى مَادَّةِ "ر ك  
ض" وَ"ر ك ل" أَنْ يُقَالَ إِنَّ اللَّفْظَ فِي هَذَا الْمِثَالِ قَدْ انْزَاخَ عَنِ دِلَالَتِهِ، فَأَصْلُهُ مِمَّا بَدَأَ أَنْفَاءً  
الضَّرْبُ الَّذِي يُسَاوِفُهُ حَرَكَةٌ، وَيُصَدِّقُ هَذَا: رَكَضَ الدَّابَّةِ، وَرَكَضَ الطَّائِرِ إِذَا ضَرَبَ جَنَاحَيْهِ،  
وَلَمَّا انْزَاخَ هَذَا اللَّفْظُ عَنِ دِلَالَتِهِ أَصْبَحْنَا نَقُولُ: رَكَضَتِ الدَّابَّةُ، وَرَكَضَ الرَّجُلُ إِذَا فَرَّ وَعَدَا،  
وَمِمَّا جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى الْحَادِثِ الْمُنْزَاخِ عَنِ الْمَعْنَى الْمُتَقَادِمِ قَوْلُهُ -  
تَبَارَكَ اسْمُهُ-: "إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ"<sup>(2)</sup>، وَقَوْلُهُ -جَل-: "لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا"<sup>(3)</sup>.

أَمَّا فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: "ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ"<sup>(4)</sup>، فَالْمَرَّةُ، لِلخَاطِرِ  
الْأَوَّلِ، قَدْ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ الْمَعْنَى الْحَادِثِ وَالْمُتَقَادِمِ، مَعَ وُجُودِ بَوْنٍ بَيْنَهُمَا جَلِيٍّ، وَإِقَامَةُ أَحَدِهِمَا مُقَامَ  
الْآخَرِ تُؤْذِنُ بِالِانْزِيَاخِ عَنِ الْمُرَادِ وَالْمُتَعَيِّنِ، وَقَدْ وَقَعَ هَذَا حَقًّا؛ إِذْ إِنَّ الطَّلَابَ الَّذِينَ وَقَفُوا وَجَاهَ  
هَذَا السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ الشَّرِيفِ مُفَسِّرِينَ تَجَافَوْا عَنِ الْمَعْنَى الْمُتَقَادِمِ، وَابْتَنَى عَلَى ذَلِكَ تَجَافٍ غَيْرُ  
مَقْصُودٍ عَنِ الْمَعْنَى الْمُتَعَيِّنِ فِيهَا، فَكَانَ حَظُّهُمْ مِنَ التَّوَاصُلِ خَافِتًا، بَلْ مُنْتَقِيًا، وَالْمَقْصِدُ الَّذِي  
رَمَى إِلَيْهِ الْحَقُّ -تَعَالَى- هُوَ: اضْرِبْ بِرِجْلِكَ الْأَرْضَ.

(1) انظر: سيبويه (180هـ)، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م،

457/4.

(2) الآية (الأنبياء، 12).

(3) الآية (الأنبياء، 13).

(4) الآية (ص، 42).

وَقَدْ قَالَ الطَّبْرَسِيُّ فِي مَعْرِضِ تَعْرِيجِهِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ: "أَيُّ: ادْفَعُ بِرِجْلِكَ الْأَرْضَ،...، وَالرُّكُضُ بِالْدَّفْعِ بِالرَّجْلِ عَلَى جِهَةِ الْإِسْرَاعِ"<sup>(1)</sup>.  
 وَالزَّمْخَشَرِيُّ يَقُولُ: "اضْرِبْ بِرِجْلِكَ الْأَرْضَ،...، فَضْرِبِهَا فَتَنْبَعُثُ عَيْنٌ"<sup>(2)</sup>.  
 وَالْقُرْطُبِيُّ يَقُولُ: "الرُّكُضُ: الدَّفْعُ بِالرَّجْلِ، يُقَالُ: رَكَضَ الدَّابَّةَ، وَرَكَضَ ثَوْبَهُ بِرِجْلِهِ، وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: الرُّكُضُ: التَّحْرِيكُ، وَلِهَذَا قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: يُقَالُ رُكِضَتِ الدَّابَّةُ، وَلَا يُقَالُ رَكَضَتْ هِيَ، لِأَنَّ الرُّكُضَ إِنَّمَا هُوَ تَحْرِيكُ رَاكِبِهَا رِجْلَيْهِ، وَلَا فِعْلَ لَهَا فِي ذَلِكَ"<sup>(3)</sup>.

### الإيمانُ:

مَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ تَنْتَسِبُ إِلَى مَجَالَيْنِ دِلَالِيَيْنِ:

- أَوْلُهُمَا مَجَالُ الشَّارِعِ.
  - وَثَانِيَهُمَا مَجَالُ اللُّغَوِيِّ.
- أَمَّا فِي الْمَجَالِ الْأَوَّلِ فَهِيَ تَعْنِي تَحْقِيقًا بِالْقَلْبِ، وَإِقْرَارًا بِاللِّسَانِ، وَعَمَلًا بِالْجَوَارِحِ<sup>(4)</sup>، وَلِلْإِيمَانِ شُعَبٌ، وَمَنَازِلٌ، وَشَرَائِطُ مَخْصُوصَةٌ، وَقَدْ عَرَّجَ الْبَلْخِيُّ، وَابْنُ قُتَيْبَةَ مِنْ بَعْدِهِ، عَلَى

(1) انظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن(--5هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، 281/8، وإلى هذا المعنى ذهب الطبري(310هـ)، جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت، 1978م، 107/23.  
 (2) انظر: الزمخشري(538هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، القاهرة، 1977م، 376/3.

(3) انظر: القرطبي، محمد بن أحمد(671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، 138/15، وانظر هذه المعاني: ابن كثير(774هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، 1980م، 39/4، وأبو عبيدة(210هـ)، مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1962م، 185/2، وابن قتيبة(276هـ)، تفسير غريب القرآن، تحقيق السيد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت1978م، 380، وابن عزيز(330هـ)، نزهة القلوب في تفسير القرآن العزيز، تحقيق يوسف المرعشلي، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1990م، 118، واليزيدي، غريب القرآن، 118، والراغب، المفردات، 202، وأبو حيان(745هـ)، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، وزارة الأوقاف، بغداد، 1977م، 115، وابن منظور، اللسان، مادة "ركض"، وأبو حيان(745هـ)، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، 384/7.

(4) انظر: الراغب، المفردات، 34.



دلالات "الإيمان" ووجوهها<sup>(1)</sup>، وبهذا يكون الإيمان عند الشارع ضد الكفر، وعند اللغوي ضده التّكذيب، "وقد اتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق"<sup>(2)</sup>، فنقول: ما أومن بشيء مما نقول؛ أي: ما أصدق بذلك<sup>(3)</sup>، ولكن دلالة الإيمان وردت بالمعنيين في التنزيل.

وليس يخفى على ذي نُهية أن معنى الشارع هو معنى محدث مرده إلى نقل دلالات الألفاظ الإسلامية من مضمار إلى آخر، وأن الأصل هو المعنى اللغوي المتقادم، والحق أن انتماء هذه الكلمة إلى هذين المجالين: اللغوي والشرعي قد يُفرز مواضع تقاضى تفضي إلى الدخول في بوابة الاحتمال.

لننظر في قول الحق -تعالى-: "وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين"<sup>(4)</sup>.

لعلّ دلالة "المؤمن" في سياقها المتقدّم جاءت باعتبار الأصل المتقادم، وهو: "وما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين"<sup>(5)</sup>، ولم يختلف أهل التفسير أن معناه: "ما أنت بمصدق لنا"<sup>(6)</sup>، وليس يذهب بي ما قدّمْتُ إلى أن دلالة "مؤمن" ههنا أشكلت أو احتملت؛ ذلك أن قرائن السياق المقاليّة والمقاميّة تؤذن برفع ما قد يرد من إشكال أو احتمال، ولكن دلالة "الإيمان" قد تُشكل عند بعضهم في قوله -تعالى-: "ذلكم آتة إذا دُعِيَ اللهُ وحده كفرتم، وإن يُشرك به تؤمنوا"<sup>(7)</sup>، والمعنى المنعني عماده الأصل اللغوي لا الشرعي، وهو: تُصدقوا<sup>(8)</sup>.

### الدّابّة:

الدّابّة من الألفاظ المعمرة التي قد يرد على قارئها في سياقها إشكال مرده إلى التطور الدلاليّ الواقع فيها؛ ذلك أن جماع المعنى -كما يلمح إليه ابن فارس- حركة على الأرض

(1) انظر: البلخي (150هـ)، الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق عبد الله شحاته، ط2، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1994م، 137-138، وابن قتيبة (276هـ)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، 1973م، 481-482.

(2) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "أمن"، وابن قتيبة، تفسير الغريب، 9.

(3) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "أمن".

(4) الآية (يوسف، 17).

(5) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 481، وتفسير الغريب، 9، واللسان، مادة "أمن".

(6) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 481، وتفسير الغريب، 9، واللسان، مادة "أمن".

(7) الآية (غافر، 12).

(8) انظر: ابن قتيبة، تفسير الغريب، 386، وتأويل المشكل، 481، والزمخشري، الكشاف، 419/3، والقرطبي، الجامع، 195/15، وأبو حيان، البحر المحيط، 436/7.

أَخْفُ مِنَ الْمَشِيِّ، تَقُولُ: دَبَّ دَبِيْبًا، وَكُلُّ مَا مَشَى عَلَى الْأَرْضِ فَهُوَ دَابَّةٌ<sup>(1)</sup>، وَلَيْسَتْ تِلْكَ الصَّبْغَةُ الْعُمُومِيَّةُ الْعَرِيضَةُ الَّتِي تَلُوْحُ لِلْقَارِيِّ مِنْ كَلَامِ ابْنِ فَارِسٍ بِخَافِيَةٍ: "وَكُلُّ مَا مَشَى عَلَى الْأَرْضِ فَهُوَ دَابَّةٌ"، وَالْحَقُّ أَنَّ الدَّلَالََةَ اللُّغَوِيَّةَ تُرْشِحُ لِأَنَّ تَشْتَمَلَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ عَلَى كُلِّ مَا يَدْبُ عَلَى وَجْهِ هَذِهِ البَسِيْطَةِ، فَالطَّيْرُ دَابَّةٌ، "وَقَدْ أُخْرِجَ بَعْضُ النَّاسِ الطَّيْرَ، وَهُوَ مُرْدُودٌ...، فَإِنَّ الطَّيْرَ يَدْبُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي بَعْضِ حَالَاتِهِ"<sup>(2)</sup>.

وَلَكِنَّ هَذِهِ الدَّلَالََةَ قَدْ تَطَوَّرَتْ، فَأَفْضَى هَذَا إِلَى اطِّرَاحِ بَعْضِ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ مِضْمَارِهَا، كَالإِنْسَانِ، وَقَدْ نَبَّهَتْ صَاحِبُ اللِّسَانِ إِلَى هَذَا التَّطَوُّرِ الدِّلَالِيِّ الْحَادِثِ، فَأَشَارَ إِلَى أَنَّ الدَّابَّةَ هِيَ الَّتِي تُرْكَبُ، وَأَنَّ هَذَا الْاسْمَ غَلَبَ عَلَى مَا يُرْكَبُ مِنَ الدَّوَابِّ، وَحَقِيقَتُهُ الصِّفَةُ<sup>(3)</sup>، وَهَذَا تَطَوُّرٌ دِلَالِيٌّ هَيْئَتُهُ التَّخْصِيصُ؛ إِذْ إِهْمَا كَانَتْ دِلَالَةً رَحْبَةً عَرِيضَةً تَشْتَمِلُ عَلَى مُدْخَلَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَلَكِنَّ دَائِرَتَهَا الدِّلَالِيَّةَ قَدْ انْكَمَشَتْ، فَاطَّرِحَ بَعْضُ مَا تَسْتَعْرِفُهُ كَالإِنْسَانِ، وَالْجِنِّ، وَالطَّيْرِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِم.

وَقَدْ وَرَدَتْ دِلَالَةُ "الدَّابَّةِ" فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيْزِ بِالْمَعْنِيَيْنِ؛ الْمُتَقَادِمِ وَالْحَادِثِ، وَالْأَمْثَلَةُ الْآتِيَةُ فِيهَا فَضْلٌ بَيَانٍ مُجَلِّ لِمَا تَقَدَّمَ:

### الآية الأولى:

"وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ<sup>(4)</sup>.  
يَظْهَرُ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيْفِ أَنَّ تَمَّ ثَالِوثًا مُؤْتَلَفًا مِنْ:  
- الْأَدْمِيِّ، وَيَتَعَيَّنُ مِنَ الْإِمَاحَةِ -تَعَالَى-: "أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ".  
- وَالطَّيْرِ، وَيَتَعَيَّنُ مِنْ قَوْلِهِ -تَعَالَى-: "وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ".  
- وَالدَّابَّةِ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الدَّابَّةَ فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيْفِ قَدْ جَاءَتْ بِالْمَعْنَى الْحَادِثِ، وَقَدْ اهْتَدَيْنَا إِلَى الْمَقْصِدِ الْمُتَعَيَّنِ مِنْهَا بِالْفِيءِ إِلَى السِّيَاقِ الْبِنْيَوِيِّ وَفَضْلِهِ فِي اسْتِشْرَافِ الْمَعْنَى<sup>(1)</sup>.

(1) انظر: ابن فارس (395هـ)، معجم مقاييس اللغة، ط1، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1991م، مادة "دبب".

(2) انظر: القرطبي، الجامع، 132/2.

(3) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "دبب".

(4) الآية (الأنعام، 38).

### الآية الثانية:

"إني توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها"<sup>(2)</sup>.  
 لعلّ دلالة "الدابة" في سياقها المتقدّم جاءت على اعتبار المعنى المتقادم العريض،  
 وإليه أشار القرطبي قائلًا: "أي: نفس تدب على الأرض،...، وكل ما فيه روح يُقال له داب،  
 ودابة، والهاء للمبالغة"<sup>(3)</sup>.

### الآية الثالثة:

"وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها"<sup>(4)</sup>.  
 وليست تجلية مطلب القول على الدابة في سياقها الشريف هذا ببعبدة عمّا تقدّم أنفًا؛ إذ  
 إن المرجح أن تعيين دلالة الدابة ههنا لا يكون إلا باسترفاد النظر القائل بالتطور الدلالي  
 الواقع فيها، واستيطان معناها المتقادم، ولذلك، يُمكن جدًّا أن تكون كلمة "الدابة" ههنا عامّة  
 تشتمل على كل ما دب، وقد التفت الطبرسي بثاقب بصره، وبعبدة تأمله، إلى الدلالة المتقادمة  
 التي تستغرق كل ما دب على وجه هذه البسيطة فقال: "أي: ليس من دابة تدب على وجه  
 الأرض، ويدخل فيه جميع ما خلقه الله -تعالى- على وجه الأرض من الجن، والإنس،  
 والطير، والأنعام، والهوام"<sup>(5)</sup>.

ولمّا وردَ عليها القرطبي أشار إلى "أنه -سبحانه- أخبر برزق الجميع، وأنه لا يغفل  
 عن تربيته..."<sup>(6)</sup>. ومن مثل ما تقدّم قوله -تعالى-: "وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله

(1) انظر ما قيل فيها: الطبرسي، المجمع، 37/4، والقرطبي، الجامع، 27/6، وأبو حيان، البحر  
 المحيط، 124/4.

(2) الآية (هود، 56).

(3) انظر: القرطبي، الجامع، 36/9، وانظر ما قاله الزمخشري فيها، الكشاف، 277/2، والطبرسي،  
 المجمع، 220/5.

(4) الآية (هود، 56).

(5) انظر: الطبرسي، المجمع، 182/5.

(6) انظر: القرطبي، الجامع، 9/6.

يرزقها"<sup>(1)</sup>، وتوجيه دلالتها ههنا عند الزمخشري: "كُلَّ نَفْسٍ دَبَّتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ عَقَلَتْ أَوْ لَمْ تَعَقَلْ"<sup>(2)</sup>.

### السُّبَاتُ:

وَمِمَّا يُجَلِّي مَطْلَبَ هَذِهِ الْمُبَاحَثَةِ دِلَالَةُ السُّبَاتِ فِي قَوْلِ الْحَقِّ -تَنْزَهُ-: "وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا"<sup>(3)</sup>، وَلَعَلَّهُ يَحْسُنُ قَبْلَ الْحَوْضِ فِي بَيَانِ الْمُقْصِدِ الَّذِي رَمَى إِلَيْهِ الْحَقُّ أَنْ يُعْرَجَ عَلَى الْمَعْنَى الْمُتَقَادِمِ وَالْحَادِثِ. أَمَّا الْأَوَّلُ -أَعْنِي الْمُتَقَادِمَ- فَهُوَ الْقَطْعُ، وَالسَّبْتُ، بِالْكَسْرِ، كُلُّ جِلْدٍ مَذْبُوحٍ، وَكَأَنَّهَا سُمِّيَتْ سَبْتِيَّةً لِأَنَّ شَعْرَهَا سُبِتَ عَنْهَا، أَيْ: حُلِقَ وَأُزِيلَ<sup>(4)</sup>، وَقَوْلُنَا: سَبَتَ شَعْرَهُ وَرَأْسَهُ: حَلَقَهُ، ثُمَّ تَطَوَّرَ هَذَا الْمَعْنَى، وَأَنْتَقَلَ فَصَارَ السَّبْتُ الرَّاحَةَ، وَلِذَلِكَ نَقُولُ: سَبَتَ يَسْبُوتُ سَبْتًا: إِذَا اسْتَرَاخَ وَسَكَنَ، وَمِنْ هُنَا تَخَلَّقَتْ دِلَالَةُ جَدِيدَةِ لِكَلِمَةِ السُّبَاتِ، فَغَدَّتْ تَدُلُّ عَلَى النَّوْمِ، وَأَصْلُهُ، كَمَا يَقُولُ صَاحِبُ اللِّسَانِ، الرَّاحَةُ، وَقِيلَ إِنَّ أَسْلَ السَّبْتِ الْقَطْعُ؛ فَكَأَنَّهُ إِذَا نَامَ انْقَطَعَ عَنِ النَّاسِ<sup>(5)</sup>.

لَعَلَّهُ يَسْتَقِيمُ بَعْدَ هَذَا الْعَرْضِ لِمَادَّةِ "س ب ت" أَنْ يُقَالَ إِنَّ الْأَصْلَ الدَّلَالِيَّ الْمُتَقَادِمَ هُوَ "الْقَطْعُ"، ثُمَّ تَطَوَّرَ فَعَدَا الرَّاحَةَ، ثُمَّ تَطَوَّرَ تَارَةً أُخْرَى فَصَارَ السُّبَاتُ نَوْمًا. أَمَّا السُّبَاتُ عَنِ هَيْئَةِ هَذَا النَّوْمِ -كَمَا إِلَيْهِ تُشِيرُ الْمُعْجَمَاتُ- فَهُوَ نَوْمَةٌ خَفِيفَةٌ، أَوْ خَفِيفَةٌ كَالْعَشِيَّةِ.

عَوْدًا عَلَى بَدءِ؛ عَلَى مَطْلَبِ هَذِهِ الْمُبَاحَثَةِ، وَهُوَ دِلَالَةُ مَادَّةِ "السَّبْتُ"، فَقَدْ وَرَدَتْ فِي آيَاتٍ مِنْهَا قَوْلُ الْحَقِّ الْعَلِيِّ:

- "وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ"<sup>(6)</sup>.
- "وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا، وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ"<sup>(7)</sup>.
- "وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا"<sup>(1)</sup>.

(1) الآية (العنكبوت، 60) .

(2) انظر: الزمخشري، الكشاف، 211/3، وانظر ما قاله فيها الفراء، معاني القرآن، 318/2.

(3) الآية (عم، 9).

(4) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "سبت".

(5) انظر: الراغب، المفردات، 248، وابن منظور، اللسان، مادة "سبت".

(6) الآية (البقرة، 65).

(7) الآية (الأعراف، 163).

السَّبْتُ فِي الْآيَةِ الْأُولَى "مَأخُودٌ مِنَ السَّبْتِ، وَهُوَ الْقَطْعُ، فَقِيلَ إِنَّ الْأَشْيَاءَ سُبِتَتْ وَتَمَّتْ خَلْقُهَا، وَقِيلَ هُوَ مَأخُودٌ مِنَ السَّبْوِ الَّذِي هُوَ الرَّاحَةُ وَالذَّعَةُ"<sup>(2)</sup>، وَكَذَلِكَ الْمَعْنَى فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ؛ فَالسَّبْتُ فِيهَا تَرْكُ الْعَمَلِ وَالانْقِطَاعُ عَنْهُ<sup>(3)</sup>.

أَمَّا الْآيَةُ الثَّلَاثَةُ -وهي مَوْضِعُ التَّمَثُّلِ وَبَابُ الْقَوْلِ- فَفِيهَا مَلْحَظٌ يَجِبُ اخْذُهُ بِعَيْنِ الرَّوْيَةِ وَالتَّدْبِيرِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَظُنُّ -وَالظَّنُّ لَا يُعْنَى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً- أَنَّ السُّبَاتَ هُنَا هُوَ النَّوْمُ وَفَاءً بِذَلِكَ الْمَعْنَى الْحَادِثِ الَّذِي رَانَ عَلَيْهِ الْفَنَاءُ الْيَوْمَ، وَلَكِنَّ هَذَا الْمَذْهَبَ يَعْزُرُهُ نَظَرٌ وَفَضْلٌ بَيَانٍ؛ إِذْ كَيْفَ يَكُونُ الْمَعْنَى: وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ نَوْمًا!؟

وَهُنَا يَتَجَلَّى ثَانِيَةً وَثَالِثَةً عَلَى وَجْهِ الْإِحْكَامِ فَضْلُ اسْتِشْرَافِ أَطْوَارِ الدَّلَالَةِ فِي بَيَانِ الْمُفْصِدِ وَالْمُنْتَعِينَ، وَهُوَ: وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُكُونًا، وَرَاحَةً، وَقَطْعًا عَنِ الْعَمَلِ<sup>(4)</sup>، "وَكَأَنَّهُ إِذَا نَامَ انْقَطَعَ عَنِ النَّاسِ وَالِاشْتِغَالِ"<sup>(5)</sup>، وَالْحَقُّ أَنَّنِي كُنْتُ قَدْ أوردْتُ بَعْضَ طُلَّابِ الْعَرَبِيَّةِ الشَّادِينَ عَلَيْهَا، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، عَدَلُوا كُلَّهُمْ إِلَى الْمَعْنَى الْحَادِثِ، مُسْتَرْشِدِينَ بِالْمَعْنَى الْمُسْتَحْكِمِ الْقَارِ فِي ثِقَاتِهِمْ، مُدْبِرِينَ عَنِ الْمَعْنَى الْمُتَقَادِمِ لِانْتِقَاءِ عَهْدِهِمْ بِهِ.

### السَّعْيُ:

لِلسَّعْيِ أَمْسٌ مَعْنَى مُفَارِقٍ لِمَا رَانَ عَلَيْهِ الْفَنَاءُ اللَّغَوِيُّ الْيَوْمَ؛ ذَلِكَ أَنَّنَا إِذَا أَنْعَمْنَا النَّظَرَ فِي دِلَالَتِهَا بِاعْتِبَارِ الْأَصْلِ لَا الْحَالِ، أَلْفَيْنَا أَنَّهَا كَانَتْ تَدُلُّ عَلَى الْإِسْرَاعِ فِي الْمَشْيِ<sup>(6)</sup>، وَقَدْ جَاءَ فِي اللِّسَانِ أَنَّ "السَّعْيَ: عَدُوٌّ دُونَ الشَّدِّ،... وَفِي الْحَدِيثِ: "إِذَا أُتِيئْتُمُ الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتُوها وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَلَكِنْ أَتُوها وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ"،...، فَالسَّعْيُ هُنَا الْعَدُوٌّ. سَعَى إِذَا عَدَا"<sup>(7)</sup>.

(1) الآية (عم، 9).

(2) انظر: القرطبي، الجامع، 299/1.

(3) انظر: القرطبي، الجامع، 194/7.

(4) انظر: الطبري، تفسيره، 30/30، والقرطبي، الجامع، 112/19، وأبو حيان، البحر المحيط، 403/8.

(5) انظر: القرطبي، الجامع، 112/19.

(6) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "سعى"، وابن قتيبة، تأويل المشكل، 509.

(7) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "سعى"، والراغب في مفرداته يرى أن السعي المشي السريع، وهو

دون العدو، انظر: المفردات، 261.

وَالظَّاهِرُ مِنْ هَذَا النَّصِّ الْمُقْتَبَسِ أَنِفًا أَنَّ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَنْهَى الْمَرْءَ عَنِ الْعَدْوِ إِلَى الصَّلَاةِ، وَيَأْمُرُ بِأَنْ يَأْتِيَهَا وَعَلَيْهِ السَّكِينَةُ، وَمِنْ وَجْهَةٍ أُخْرَى، يَتَجَلَّى لِلْقَارِئِ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنْ تَمَّ انْزِيَاخًا عَنِ الْإِلْفِ اللَّغَوِيِّ الْمُسْتَحْكِمِ عِنْدَنَا؛ ذَلِكَ أَنَّ السَّعْيَ الْيَوْمَ يُفَارِقُ هَذِهِ الدَّلَالََةَ الْمُتَقَادِمَةَ، وَلَعَلَّ تِلْكَ الدَّلَالََةَ "الْعَدْوُ" هِيَ الْأَصْلُ، ثُمَّ تَطَوَّرَتْ فَأَصْبَحَتْ تَدُلُّ عَلَى "الْقَصْدِ، وَالْعَمَلِ، وَالْمَشْيِ"<sup>(1)</sup>.

وَتَظْهَرُ هَذِهِ الْمَعَانِي جَلِيَّةً فِي إِمَّاخَةِ ابْنِ قُتَيْبَةَ فِي بَابِ اللَّفْظِ الْوَاحِدِ لِلْمَعَانِي الْمُخْتَلِفَةِ إِلَى هَذَا الْمَلْحَظِ، فَقَدْ أَشَارَ "إِلَى أَنَّ السَّعْيَ هُوَ إِسْرَاعٌ فِي الْمَشْيِ، وَلَكِنَّهُ يَنْصَرِفُ إِلَى مَعَانٍ أُخْرَى تَلْفُهَا كَلِمَةُ السَّعْيِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْعَمَلُ، كَقَوْلِهِ -تعالى-: "فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا"<sup>(2)</sup>، وَقَوْلِهِ -تبارك اسمُه-: "إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى"<sup>(3)</sup>، أَيْ: عَمَلَكُمْ لِمُخْتَلَفٍ"<sup>(4)</sup>.

وَالْمُسْتَخْلَصُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنِفًا أَنَّ دِلَالََةَ السَّعْيِ فِي أَصْلِهَا الْمُتَقَادِمِ تَدُلُّ عَلَى الْإِسْرَاعِ وَالْعَدْوِ، وَيَدُلُّنَا عَلَى هَذَا قَوْلُ ابْنِ مَنْظُورٍ، وَمِنْ قَوْلِهِ ابْنِ قُتَيْبَةَ، وَلَيْسَ يُنْسَى فِي هَذَا الْمَقَامِ مَطْلَبَانِ يَعْضُدَانِ مَا نَحْنُ فِيهِ:

- أَوْلُهُمَا حَدِيثُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْمُتَقَدِّمُ بَيَانُهُ فِي النَّهْيِ عَنِ السَّعْيِ إِلَى الصَّلَاةِ.

- وَثَانِيَهُمَا مَنْسِكٌ مِنْ مَنَاسِكِ الْحَجِّ الْمَقْرُونِ بِحَرَكَةِ تَجَسُّدِ دِلَالََةِ السَّعْيِ الْمُتَقَادِمَةَ، إِنَّهَا السَّعْيُ بَيْنَ الصَّافِ وَالْمَرُورَةِ، وَالْحَقُّ أَنَّ اسْتِرْفَادَ صُورَةِ السَّاعِي بَيْنَهُمَا، وَمَا يَقْتَرِنُ بِهَا مِنْ سُرْعَةٍ، وَبِدَارٍ، وَاسْتِدَادٍ، وَاسْتِحْضَارٍ هَمَّةٍ، كُلُّ ذَلِكَ مِنَ الدَّوَاعِي الْمَقْرَرَةِ بِمَعْنَى السَّعْيِ الْمُتَقَادِمِ.

لَيْسَ يَخْفَى عَلَى ذِي تَبَصُّرٍ أَنَّ إِشْكَالًا قَدْ يَرِدُ عَلَى الْمَرْءِ بَاعِثُهُ أَنَّ كَلِمَةَ السَّعْيِ تَتَرَدَّدُ بَيْنَ مَعْنَيْنِ: مَعْنَى مُتَقَادِمٍ، وَمَعْنَى حَادِثٍ، وَأَنَّهَا احْتَمَلَتْ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ تَيْنِكَ الدَّلَالَتَيْنِ، وَمِمَّا جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ بِالْمَعْنَى الْمُتَقَادِمِ قَوْلُهُ -تبارك-:

- "فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى"<sup>(5)</sup>.

(1) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "سعى".

(2) الآية (الإسراء، 19).

(3) الآية (الليل، 4).

(4) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 509.

(5) الآية (طه، 20).

- ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَا تَيْنِكَ سَعِيًّا<sup>(1)</sup>.
- "وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى"<sup>(2)</sup>.
- "وَجَاءَ رَجُلٌ يَسْعَى مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْقَوْمَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ..."<sup>(3)</sup>.

لَعَلَّ الْمَلْحَظَ الْأَوَّلَ الَّذِي يَتَّبِعِي الْإِلْمَاحَ إِلَيْهِ أَنَّنِي لَمْ أَظْفُرْ بِأَحَدٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْعَرَبِيَّةِ الشَّادِينَ ذِي عَهْدٍ بِالْمَعْنَى الَّذِي جَنَحَ إِلَيْهِ أَهْلُ التَّفْسِيرِ، وَهُوَ مَعْنَى قَائِمٍ - لَا رَيْبَ - عَلَى اسْتِشْرَافِ التَّطَوُّرِ الدَّلَالِيِّ، فَفِي الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ الْأُولَى جَنَحَ الزَّمْخَشَرِيُّ إِلَى الْقَوْلِ: "السَّعْيُ: الْمَشْيُ بِسُرْعَةٍ، وَخَفَّةٍ، وَحَرَكَةٍ،...، كَانَتْ فِي شَخْصِ الثَّعْبَانِ، وَسُرْعَةَ حَرَكَةِ الْجَانِّ"<sup>(4)</sup>.  
 وَالطَّبْرَسِيُّ يَقُولُ: "أَيُّ تَمْشِي بِسُرْعَةٍ..."<sup>(5)</sup>.  
 وَأَبُو حَيَّانٍ يَقُولُ: "تَنْتَقِلُ وَتَمْشِي بِسُرْعَةٍ"<sup>(6)</sup>.

أَمَّا فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ، وَهِيَ: "ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَا تَيْنِكَ سَعِيًّا"، فَقَدْ هَجَسَ الزَّمْخَشَرِيُّ بِالْمَعْنَى الْمُتَقَادِمِ، فَقَالَ: "سَاعِيَاتٍ مُسْرِعَاتٍ فِي طَيْرَانِهِنَّ، أَوْ فِي مَشِيهِنَّ"<sup>(7)</sup>، وَكَذَلِكَ الْحَالُ عِنْدَ الْقُرْطُبِيِّ الْقَائِلِ: "ثُمَّ كَرَّرَ النَّدَاءَ، فَجَاءَتْهُ سَعِيًّا، أَيُّ: عَدْوًا عَلَى أَرْجُلِهِنَّ، وَلَا يُقَالُ لِلطَّائِرِ "سَعَى" إِذَا طَارَ إِلَّا عَلَى التَّمَثِيلِ"<sup>(8)</sup>.

أَمَّا أَبُو حَيَّانٍ فَقَدْ التَّمَسَّ مِنْ دِلَالَةِ السَّعْيِ تِلْكَ فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ نُكْتَةً بِلَاغِيَّةً فِيهَا لَمِحَةٌ إِعْجَازٍ قَائِمَةٌ عَلَى اسْتِشْرَافِ مَلْحَظَيْنِ:

- أَوْلُهُمَا سَعَى الطَّائِرِ؛ إِذْ إِنَّا نَقُولُ: طَارَ الطَّائِرُ، وَسَعَى الْإِنْسَانُ.
- وَثَانِيَهُمَا مُسْتَقَى مِنْ دِلَالَةِ السَّعْيِ فِي سِيَاقِهَا الشَّرِيفِ، وَتَرْشِيحُ ذَلِكَ عِنْدَهُ "أَنَّهُ لَمَّا دَعَاهُنَّ فَأَتَيْنَهُ وَتَنَزَّلْنَ مَنْزِلَةَ الْعَاقِلِ الَّذِي يُوصَفُ بِالسَّعْيِ، وَكَانَ إِثْيَانُهُنَّ مُسْرِعَاتٍ

(1) الآية (البقرة، 260).

(2) الآية (ياسين، 20).

(3) الآية (القصص، 20).

(4) انظر: الزمخشري، الكشاف، 534/2.

(5) انظر: الطبرسي، المجمع، 13/7.

(6) انظر: أبوحيان، البحر المحيط، 221/6.

(7) انظر: الزمخشري، الكشاف، 392/1.

(8) انظر: القرطبي، الجامع، 195/3.

إِلَيْهِ فِي الْمَشْيِ أْبْلَغَ فِي الْآيَةِ...، وَجَعَلَ سَيْرَهُنَّ سَعْيًا؛ إِذْ هُوَ مِشْيَةُ الْمُجِدِّ الرَّاغِبِ  
فِي مَا يَمْشِي إِلَيْهِ لِإِظْهَارِ جِدِّهَا فِي قَصْدِ إِبْرَاهِيمَ، وَإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ...<sup>(1)</sup>.

أَمَّا الْآيَةُ الثَّلَاثَةُ: "وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى" فَقَدْ قِيلَ إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَانَ  
مَنْزَلُهُ عِنْدَ أَقْصَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ قَوْمَهُ قَدْ كَذَّبُوا الرَّسُلَ، وَهَمُّوا بِقَتْلِهِمْ جَاءَ  
يَعْدُو وَيَشْتَدُّ...<sup>(2)</sup>.

أَمَّا فِي الْآيَةِ الرَّابِعَةِ فَقَالَ فِيهَا أَبُو حَيَّانَ: "يَسْعَى: يَشْتَدُّ فِي مَشْيِهِ، وَلَمَّا أَمَرَ فِرْعَوْنُ  
بِقَتْلِهِ حَرَجَ الْجَلَاوِزَةَ مِنَ الشَّارِعِ الْأَعْظَمِ لَطَلْبِهِ، فَسَلَكَ الرَّجُلُ طَرِيقًا أُخْرَى أَقْرَبَ إِلَى مُوسَى"<sup>(3)</sup>.

### الْفِتْنَةُ:

فِي مَعْرِضِ تَعْرِيجَةِ ابْنِ قُتَيْبَةَ عَلَى بَابِ "اللَّفْظِ الْوَاحِدِ لِلْمَعَانِي الْمُخْتَلِفَةِ" تَلَبَّثَ عِنْدَ  
دِلَالَةِ "الْفِتْنَةِ" وَوُجُوهِهَا الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تُنْصَبَ مِنْ سِيَاقِهَا الْقُرْآنِيِّ الشَّرِيفِ، فَكَانَ تَمَّ:

- فِتْنَةُ الْاِخْتِبَارِ.
- وَفِتْنَةُ التَّعْذِيبِ.
- وَفِتْنَةُ الصِّدِّ وَالِاسْتِزْلَالِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: "وَإِخْرَجْنَاهُمْ مِنْ قُلُوبِهِمْ أَنْ يَقْتُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ الْغِيظِيُّ"<sup>(4)</sup>.
- وَفِتْنَةُ الْإِشْرَاكِ، وَالْكَفْرِ، وَالْإِثْمِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: "وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ  
فِتْنَةً"<sup>(5)</sup>.
- وَفِتْنَةُ الْعِبْرَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْحَقِّ: "رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً"<sup>(6)</sup>.

وَمِنْ الْأَمْثَلَةِ الْمُبِينَةِ عَنِ حَظَرِ فَهْمِ دِلَالَاتِ السَّابِقِ بِمَا يَتَعَارَفُ عَلَيْهِ اللَّاحِقُ دِلَالَةُ  
كَلِمَةِ "الْفِتْنَةِ"؛ إِذْ إِنَّ لَهَا مَعْنَى مُتَقَادِمًا لَا يَكَادُ يَنْقَدِحُ فِي الْخَاطِرِ إِلَّا عِنْدَ ثَلَاثَةٍ مِنَ  
الْمُتَخَصِّصِينَ، وَالْأَصْلُ الْمُتَقَادِمُ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ مَأْخُودٌ مِنَ الْإِخْرَاقِ، وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ وَغَيْرُهُ: جَمَاعُ

(1) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 311/2.

(2) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 202/8.

(3) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 106/7، والجلالوة مفردا الجولوز، وقيل معناها الشَّرْطِيُّ.

(4) الآية (المائدة، 49).

(5) الآية (البقرة، 193).

(6) الآية (يونس، 85)، وانظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 473.



مَعْنَى الْفِتْنَةِ الْإِبْتِلَاءُ، وَالْإِمْتِحَانُ، وَالْإِخْتِبَارُ، وَأَصْلُهَا مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِكَ: فَتَنْتُ الْفِضَّةَ وَالذَّهَبَ إِذَا أَدْبَتَهُمَا فِي النَّارِ لِتَمَيُّزِ الرَّذِيءِ مِنَ الْجَيِّدِ، وَفِي الصَّحَاحِ: إِذَا أَدْخَلْتَهُ النَّارَ لِنَتْنَرِ مَا جَوَّدْتَهُ،...، وَالْفَتْنُ الْإِحْرَاقُ،...، وَيُسَمَّى الصَّائِغُ الْفَتَّانَ،...، وَمِنْ هَذَا قِيلَ لِلْحَجَارَةِ السُّودَاءِ الَّتِي كَانَتْ أُحْرِقَتْ بِالنَّارِ: الْفَتَيْنُ،...، وَوَرِقٌ فَتَيْنٌ، أَي: فِضَّةٌ مُحْرَقَةٌ...<sup>(1)</sup>.

وَالَّذِي يَلُوحُ لِلْقَارِئِ لِمَا تَقَدَّمَ أَنَّ مَعْنَى الْإِبْتِلَاءِ، وَالْإِخْتِبَارِ، وَالْإِمْتِحَانِ - وَقَدْ عَرَّجَ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي صَاحِبُ اللِّسَانِ - إِنَّمَا هِيَ مَعَانٍ حَادِثَةٌ تَخَلَّقَتْ مِنَ الدَّلَالَةِ الْمُتَقَادِمَةِ الَّتِي نَصَّ عَلَيْهَا صَاحِبُ اللِّسَانِ لِيُقَرَّرَ أَنَّهَا أَصْلٌ دِلَالِيٌّ تَشَعَّبَ إِلَى دِلَالَاتٍ أُخْرَى، وَيَبْقَى الْإِمْتِحَانُ وَالْإِخْتِبَارُ الْخَيْطُ الْجَامِعَ الَّذِي يَنْتَظِمُ عَقْدَ هَذِهِ الْمَادَّةِ وَمَا يُشْتَقُّ مِنْهَا.

وَلَعَلَّهُ يَصِحُّ فِي الْفَهْمِ وَيَسْتَقِيمُ أَنْ يُقَالَ إِنَّهَا فِي سَابِقِ عَهْدِهَا كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ فِي إِذَابَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَإِحْرَاقِهَا، ثُمَّ انْتَقَلَتْ إِلَى إِحْرَاقِ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَمَّا كَانَ فِي إِذَابَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ إِخْتِبَارٌ لَهَا فِي تَمَيُّزِ الْجَيِّدِ وَالرَّذِيءِ نُقِلَ هَذَا الْمَعْنَى إِلَى الْإِسْتِعْمَالِ فِي مَعْرِضِ إِخْتِبَارِ النَّاسِ وَامْتِحَانِهِمْ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْمَعْنَى الْجَامِعَ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ فَارِسٍ يَسْتَقْبَلُ كُلَّ تَلَكُمِ الْإِسْتِعْمَالَاتِ وَالْمَعَانِي نَحْوَ الْمَعْنَى الْقُطْبِ<sup>(2)</sup>، وَقَدْ تَحَسَّسَ الرَّاعِبُ الْوَجْهَ الْجَامِعَ بَيْنَ الْمَعْنِيَيْنِ، فَقَالَ: "أَصْلُ الْفَتْنِ إِدْخَالُ الذَّهَبِ النَّارَ لِتَظْهَرَ جَوْدَتُهُ مِنْ رِذَائَتِهِ، وَاسْتَعْمَلَ فِي إِدْخَالِ الْإِنْسَانِ النَّارَ"<sup>(3)</sup>.

لِنَنْظُرُ فِيمَا يَأْتِي لِبَيَانِ مَعْنَى الْفِتْنَةِ فِي بَعْضِ آيَاتِ مِنَ التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ:

- "قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ"<sup>(4)</sup>.

- "وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ"<sup>(5)</sup>.

- "يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ"<sup>(6)</sup>.

- "إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ"<sup>(7)</sup>.

(1) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "فتن".

(2) انظر: ابن فارس، المقاييس، مادة "فتن".

(3) انظر: الراغب، المفردات، 416.

(4) الآية (طه، 85).

(5) الآية (العنكبوت، 3).

(6) الآية (الذاريات، 13).

(7) الآية (البروج، 10).

أَحْسَبُ أَنَّ مَعْنَى "الْفِتْنَةِ" فِي الْآيَتَيْنِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ جَلِيٌّ ظَاهِرٌ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْمَقْصِدَ فِي الْأُولَى: "اخْتَبَرْنَا هُمْ وَامْتَحَنَّا هُمْ"<sup>(1)</sup>.

أَمَّا فِي الثَّانِيَةِ فَهِيَ: "ابْتَلَيْنَاهُمْ"<sup>(2)</sup>.

أَمَّا فِي الثَّلَاثَةِ وَالرَّابِعَةِ فَتَمَّ مَلْحَظٌ يَنْبَغِي اسْتِرْفَادُهُ طَلَبًا لِلْوُقُوفِ عَلَى الْمَقْصِدِ الْمُتَعَيَّنِ؛ وَالْحَقُّ أَنَّي كُنْتُ قَدْ عَرَضْتُ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الشَّرِيفَتَيْنِ عَلَى ثَلَاثَةِ مِنَ الرَّمَلَاءِ مُلْتَمِسًا مِنْهُمْ فَضْلَ بَيَانٍ، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ، لَمْ أَظْفُرْ بِأَحَدٍ ذِي عَهْدٍ بِالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ صَاحِبُ التَّنْزِيلِ، وَقَدْ جَنَحُوا إِلَى مَعْنَى الْإِمْتِحَانِ وَالِاخْتِبَارِ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ كَذَلِكَ؛ إِذْ إِنَّ الْمُتَعَيَّنَ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ -تَنْزَهُ-: "يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ" هُوَ: يُحْرَقُونَ، وَالْمَعْنَى عِنْدَ الرَّمْخَسَرِيِّ: "يُحْرَقُونَ وَيُعَذَّبُونَ، وَمِنْهُ الْفَتْنُ، وَهِيَ الْحَرَّةُ؛ لِأَنَّ حِجَارَتَهَا كَأَنَّهَا مُحْرَقَةٌ"<sup>(3)</sup>.

وَالطَّبْرَسِيُّ يَقُولُ فِيهَا: "أَيُّ يَكُونُ هَذَا الْجَزَاءُ فِي يَوْمٍ يُعَذَّبُونَ فِيهَا، وَيُحْرَقُونَ بِالنَّارِ، وَقَالَ عِكْرَمَةُ: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الذَّهَبَ إِذَا أُدْخِلَ النَّارَ قِيلَ فُتِنَ، أَيُّ: فَهَوْلَاءِ يُفْتَنُونَ بِالْإِحْرَاقِ كَمَا يُفْتَنُ الذَّهَبُ بِإِحْرَاقِ الْعَشِيِّ الَّذِي فِيهِ، وَيَقُولُ لَهُمْ حَزَنَةُ النَّارِ: "ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ"، أَيُّ: عَذَابَكُمْ وَحَرِيْقَكُمْ، هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ"<sup>(4)</sup>، وَقَدْ تَابَعَهُمَا عَلَى هَذِهِ الْوُجْهِةِ فِي التَّفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ وَأَبُو حَيَّانَ<sup>(5)</sup>.

وَمِثْلُ مَا تَقَدَّمَ قَوْلُهُ -تَعَالَى- فِي الْآيَةِ الرَّابِعَةِ: "إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ"؛ إِذْ إِنَّ الْفِتْنَةَ فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ جَاءَتْ بِالْمَعْنَى الْمُتَقَادِمِ الَّذِي هُوَ فِي الْإِسْتِعْمَالِ أَصْلٌ، وَلِذَا قَالِ الْمُتَعَيَّنُ هُوَ: إِنَّ الَّذِينَ أَحْرَقُوهُمْ وَعَذَّبُوهُمْ بِالنَّارِ، وَقَدْ ذَهَبَ هَذَا الْمَذْهَبُ الطَّبْرَسِيُّ، وَالرَّاعِبِيُّ،

(1) انظر: القرطبي، الجامع، 155/11.

(2) انظر: ابن قتيبة، تفسير الغريب، 337.

(3) انظر: الرَّمْخَسَرِيُّ، الكشاف، 15/4، وهو المعنى الذي ذكره الفراء في معاني القرآن، 83/3.

(4) انظر: الطبرسي، المجمع، 195/9.

(5) انظر: القرطبي، الجامع، 24/17، وأبو حيان، البحر المحيط، 134/8.

وَالزَّمخسريُّ، وَالطَّبْرسيُّ، وَالقُرطبيُّ، وَأبو حَيَّانَ<sup>(1)</sup>، وَيَعضُدُ هَذَا المَذهَبِ اسْتِدْكَارُ السِّيَاقِ التَّارِيخِيِّ وَقِصَّةُ أَصْحَابِ الأَخْدودِ، وَالنَّارِ ذَاتِ الوُقُودِ<sup>(2)</sup>.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ تَمَّ تَفَاضُلًا فِي هَذَا المَوْضِعِ بَيِّنًا، وَقَدْ تَجَلَّى ذَلِكَ بِتَجَافِي أَوْلَانِكُمْ عَنِ المَقْصِدِ الَّذِي رَمَى إِلَيْهِ الحَقُّ، وَلَعَلَّ مَرَدَّ ذَلِكَ إِلَى اِقْتِصَارِ هَذِهِ الكَلِمَةِ اليَوْمَ عَلَى مَعْنَى لَا يَكَادُ يَنْفِدُحُ زِنَادُ الخَاطِرِ لِغَيْرِهِ، بَلْ مَرَدُّهُ إِلَى التَّطَوُّرِ الدَّلَالِيِّ الَّذِي أَذِنَ بِهَذَا اِلْتِقَاصِ، ثُمَّ إِنَّ الَّذِي يَزِيدُ مِنْ تَجَلِّي الإِضْرَابِ عَنِ المَعْنَى المُتَقَادِمِ هُوَ أَنَّ هَذِهِ الكَلِمَةَ مِنَ المَعْمَرَاتِ، وَلَيْسَ مِنْ مُعَمَّرٍ يَتَغافلُ عَلَيْهِ الزَّمَانُ، وَمِنِ المُرْجَحِ أَنَّهَا كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ فِي عَصْرِ النُّزُولِ بِمَعْنَى الإِخْتِبَارِ وَالإِمْتِحَانِ، وَمَا أَكْثَرَ هَذَا فِي التَّنْزِيلِ.

وَيَدُلُّنَا عَلَى هَذَا التَّطَوُّرِ الدَّلَالِيِّ الحَادِثِ قَوْلُ ابْنِ مَنْظُورٍ: "وَأَصْلُهَا مَأخُودٌ..."، وَقَدْ يَحْدُثُ أَنْ يَنْتَشِبَتْ المَرَّةُ بِطَوْرٍ دِلَالِيٍّ غَيْرِ الَّذِي سَرَّحَ إِلَيْهِ الخَاطِرَ الأَوَّلَ، وَلَعَلَّهُ يَسْتَقِيمُ، بَعْدَ هَذَا العَرَضِ، أَنْ يُقَالَ إِنَّ تَعاقِبَ الأَطْوَارِ الدَّلَالِيَّةِ شَبِيهٌ بِعِلْمِ "الطَّبَقَاتِ الأَثَرِيَّةِ"، فَإِذَا مَا تَرَاخَتْ تِلْكَ الطَّبَقَاتُ فَإِنَّ ذَلِكَ يُفْضِي إِلَى تَعَدُّرِ الفَصْلِ بَيْنَهَا فِي أَحْيَانٍ.

### نُجَيْكُ:

النَّجَاءُ الخَلَاصُ مِنَ الشَّيْءِ، فَنَقُولُ: نَجَا يَنْجُو نَجَاءً، وَنَجْوًا، وَنَجَاءً، وَالصَّدْقُ مَنْجَاءً، وَمِنْهُ قَوْلُهُ -تعالى-: "إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ"<sup>(3)</sup>، أَي: مُخَلَّصُوكَ مِنَ العَذَابِ وَأَهْلَكَ، وَالنَّجْوَةُ وَالنَّجَاءُ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الأَرْضِ فَلَمْ يَعْلَهُ السَّيْلُ، فَيَظُنُّ المَرءُ أَنَّهُ نَجَاؤُهُ<sup>(4)</sup>، وَلَعَلَّهُ يَسْتَقِيمُ أَنْ يُسَرَّحَ الخَاطِرُ إِلَى أَنَّ الأَصْلَ فِي هَذِهِ الدَّلَالَةِ هُوَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الأَرْضِ، وَهَذَا نَجَاءُ الهَارِبِ مِنَ السَّيْلِ وَغَيْرِهِ<sup>(5)</sup>، ثُمَّ تَطَوَّرَتْ هَذِهِ الدَّلَالَةُ فَعَدَّتْ تَنْسَعُ لِلْمَحْسُوسِ وَالمُجَرَّدِ، وَأَصْبَحَتْ النَّجَاءُ غَيْرَ

(1) انظر: الطبري، تفسيره، 87/30، والراغب، المفردات، 416، والزمخشري، الكشاف، 239/4، والطبرسي، مجمع البيان، 251/10، والقرطبي، الجامع، 194/19، وأبو حيان، البحر المحيط، 444/8.

(2) انظر كلام الفراء عن تحريقهم في المعاني، 253/3، وكلام القرطبي عن قصتهم ومسير اليهودي إليهم من حمير بعد أن دعاهم إلى اليهودية فأبوا، فخذ لهم الأخدود فحرقهم: القرطبي، الجامع، 192/19.

(3) الآية (العنكبوت، 33).

(4) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "نجا".

(5) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "نجا".

مُقْتَصِرَةً عَلَى طَلَبِ النَّاجِي النَّجْوَةَ، أَوْ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ، بَلْ إِنَّ كَلَّ مَا يُسَعِّفُهُ عَلَى تَنْجِيئِهِ هُوَ نَجَاؤُهُ وَنَجَاتُهُ.

لِنَنْظُرَ فِي دِلَالَةِ مَادَّةِ "ن ج ا" فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ:

- "فَنَجِّينَاكَ مِنَ الْعَمِّ وَفَتْنَاكَ فُتُونًا"<sup>(1)</sup>.

- "وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"<sup>(2)</sup>.

- "فَلَمَّا نَجَّأكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ"<sup>(3)</sup>.

- "فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ"<sup>(4)</sup>.

فِي الْآيَاتِ: الْأُولَى وَالثَّانِيَّةُ وَالثَّلَاثَةُ يَظْهَرُ أَنَّ مَعْنَى التَّنْجِيَةِ يَكَادُ يَتَّقُّ وَالْمَعْنَى الذَّائِعُ الْيَوْمَ، وَهُوَ التَّخْلِيصُ وَالْإِنْقَادُ، فَفِي الْآيَةِ الْأُولَى الْمَعْنَى الْمُتَعَيِّنُ مِنَ "فَنَجِّينَاكَ" هُوَ أَنَّنَا "أَمْنَاكَ مِنَ الْخَوْفِ، وَالْقَتْلِ، وَالْحَبْسِ"<sup>(5)</sup>.

أَمَّا فِي الْآيَةِ الثَّانِيَّةِ فَالْمُتَعَيِّنُ مِنْ دِلَالَةِ "نَجِّنَا" فِي سِيَاقِهَا الشَّرِيفِ ذَاكَ هُوَ "خَلِّصْنَا بِرَحْمَةٍ مِنْكَ وَإِحْسَانٍ"<sup>(6)</sup>.

أَمَّا فِي قَوْلِهِ -تعالى-: "فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ"، فَتَمَّ مَلْحَظُ يَجِبُ التَّنْبِيهُ إِلَيْهِ؛ ذَلِكَ أَنَّ "نُنَجِّيكَ" -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- جَاءَتْ بِاعْتِبَارِ الْأَصْلِ، لَا بِاعْتِبَارِ الْإِنْزِيَاكِ الدَّلَالِيِّ، فَالْمَعْنَى الْمُتَعَيِّنُ مِنْهَا أَنَّنَا نَجْعَلُكَ فَوْقَ نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، أَوْ نُثَلِّقُكَ عَلَى نَجْوَةٍ لِنُعْرِفَ، وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى خَلْقٌ مِنَ اللَّغَوِيِّينَ كَأَبِي عُبَيْدَةَ، وَالْأَخْفَشِ، وَابْنِ قُتَيْبَةَ، وَابْنِ عَزِيزٍ، وَالْبِزْدِيِّ، وَمَكِّي<sup>(7)</sup>، وَقَدْ تَابَعَهُمْ عَلَى هَذَا جَمْعٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ:

- فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَقُولُ الرَّمَخَشَرِيُّ: "تُلْقِيكَ بِنَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ"<sup>(8)</sup>.

- وَالطَّبْرَسِيُّ يَقُولُ فِيهَا: "أَيُّ تُلْقِيكَ عَلَى نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَهِيَ الْمَكَانُ الْمَرْتَفَعُ"<sup>(1)</sup>.

(1) الْآيَةُ (طه، 40).

(2) الْآيَةُ (يونس، 86).

(3) الْآيَةُ (الإسراء، 67).

(4) الْآيَةُ (يونس، 92).

(5) انظر: القرطبي، الجامع، 132/11.

(6) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن، 428/2.

(7) انظر: أبو عبيدة، مجاز القرآن، 281/1، والأخفش (215هـ)، معاني القرآن، تحقيق هدى قراعة، ط1،

مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990م، 378، وابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، 198، وابن عزيز،

نزهة القلوب، 458، والبيزدي، غريب القرآن، 78، ومكي، العمدة، 153.

(8) انظر: الزمخشري، الكشاف، 252/2، وعبارة الطبري في معناها: "...فاليوم نجعلك على نجوة من

الأرض". انظر: تفسيره، 113/11.

- وَابْنُ كَثِيرٍ يَقُولُ: "قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ إِنَّ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ شَكُوا فِي مَوْتِ فِرْعَوْنَ، فَأَمَرَ اللَّهُ -تعالى- الْبَحْرَ أَنْ يُلْقِيَهُ بِجَسَدِهِ سَوِيًّا بِلا رُوحٍ وَعَلَيْهِ دِرْعُهُ الْمَعْرُوفَةُ عَلَى نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَهُوَ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ، لِيَتَحَقَّقُوا مِنْ هَلَاكِهِ، وَلِهَذَا قَالَ -تعالى-: "قَالِيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ"<sup>(2)</sup>، وَيَسْنُدُ هَذَا قَوْلُهُ -تعالى-: "بِبَدْنِكَ"، وَلَمْ يَقُلْ: "بِرُوحِكَ"<sup>(3)</sup>، وَيَسْنُدُهُ أَيْضًا قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ: "قَالِيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ" (بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ)، أَي: نُلْقِيكَ بِنَاحِيَةٍ مِمَّا يَلِي الْبَحْرَ<sup>(4)</sup>.

### ما أشبه الليلة بالبارحة:

وَالْحَقُّ أَنْ اشْتِمَالَ كَلِمَةٍ مَا عَلَى مَعْنَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ مَرْدٌ تَخَلَّقَهُمَا إِلَى التَّطَوُّرِ الدَّلَالِيِّ قَدْ أَفْضَى إِلَى أَنْ تَكُونَ اللَّيْلَةُ شَبِيهَةً بِالْبَارِحَةِ، فَكَمَا وَقَعَ الشَّادُونَ مِنْ أُنْبَاءِ الْعَرَبِيَّةِ فِي تَقَاصِلِ وَإِشْكَالِ إِذْ تَجَافَوْا عَنِ اسْتِشْرَافِ الْمَعْنَى الْمُتَقَادِمِ لِانْتِفَاءِ عَهْدِهِمْ بِهِ، فَقَدْ تَرَدَّدَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ وَاللُّغَوِيِّينَ فِي تَعْيِينِ دِلَالَةِ الْكَلِمَةِ بَيْنَ مَعْنَيْنِ، أَهِيَ بِالْمَعْنَى الْمُتَقَادِمِ أَمْ الْحَادِثِ؟ ذَلِكَ أَنَّ السِّيَاقَ يَحْتَمِلُ دَيْنِكَ الْمَعْنَيْنِ.

وَمِنَ الْمُثَلِّ الْمَجَلِّيَّةِ لِمَا تَقَدَّمَ دِلَالَةُ "السَّعْيِ" فِي قَوْلِ الْحَقِّ -تبارك-: "ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى"<sup>(5)</sup>، وَقَدْ تَرَدَّدَ فِي دِلَالَتِهَا بَيْنَ الْمَعْنَيْنِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُمَا، فَقِيلَ: يَسْعَى: يَعْمَلُ فِي نِكَايَةِ مُوسَى وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَقِيلَ: يَسْعَى لَمَّا رَأَى الْحَيَّةَ فِي عِظْمِهَا أَدْبَرَ مَرْعُوبًا يُسْرِعُ فِي مَشْيِهِ وَيَسْتَدُّ<sup>(6)</sup>.

(1) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 166/5.

(2) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن، 431/2، وقد أشار القرطبي إلى أنها تحتل معنيين: أحدهما: نلقيك على نجوة من الأرض، والثاني: ظهر جسدك الذي لا روح فيه. انظر: القرطبي، الجامع، 243/8.

(3) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "نجا".

(4) انظر: الزمخشري، الكشاف، 252/2، وأبو حيان، البحر المحيط، 189/5.

(5) الآية (النازعات، 22).

(6) انظر هذين المعنيين: الزمخشري، الكشاف، 214/4، والطبرسي، مجمع البيان، 202/10، والقرطبي، الجامع، 131/19، وأبو حيان، البحر المحيط، 414/8، واكتفى ابن كثير بمعنى المكايدة والإفساد، انظر: ابن كثير، تفسير القرآن، 468/4.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ دِلَالَةُ "الْكَفْرِ" فِي قَوْلِ الْحَقِّ -عَزَّ شَأْنُهُ-: "كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتْرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا"<sup>(1)</sup>. وَلَعَلَّ الْمَعْنَى الْمُرَادَ هَهُنَا الزَّرْعُ؛ إِذْ إِنَّهُ يُقَالُ لِلزَّرْعِ كَافِرٌ، لِأَنَّهُ يُلْقَى الْبِذْرَ فِي الْأَرْضِ فَيَكْفُرُهُ "فَيُعْطِيهِ"، وَقَدْ خُصُّوا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْبَصَرِ بِالنَّبَاتِ وَالْفِلَاحَةِ، وَهَذِهِ دِلَالَةُ الْكُفْرِ الْأَصْلِيَّةِ "التَّعْطِيَةُ"، وَلَكِنَّهَا نُقِلَتْ إِلَى مَجَالٍ آخَرَ لِعِلَاقَةِ الْمُشَابَهَةِ، فَعَدَّتْ تَدُلُّ عَلَى مَا هُوَ نَقِيضٌ لِلإِيمَانِ، وَمَجْبِيئُهَا فِي سِيَاقِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ - وَهِيَ مُنْتَسِبَةٌ إِلَى حَقْلِ لُغَوِيٍّ مُفَارِقٍ لِلإِلْفِ - أَدْنَى بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، بَلْ بِتَعَدُّدِ وُجُوهِ الْقَوْلِ، فَقِيلَ إِنَّ الْكُفَّارَ فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ قَدْ تَعْنَى الْكُفَّارَ الَّذِينَ طَمَسَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَسِيَاقُ الْكَلَامِ لَا يَأْبَى هَذَا الْوَجْهَ، فَقَدْ شَبَّهَ اللَّهُ -تَبَارَكَ- حَالَ الدُّنْيَا، وَسُرْعَةَ تَقْصِيئِهَا مَعَ قَلَّةِ جَدْوَاهَا بِالنَّبَاتِ الَّذِي أُنبِتَهُ الْغَيْثُ فَاسْتَوَى، فَأَعْجَبَ بِهِ الْكُفَّارُ الْجَاحِدُونَ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْعَاهَةَ، فَهَاجَ وَاصْفَرَ، فَصَارَ حُطَامًا عَقُوبَةً لَهُمْ.

وَلَمَّا عَرَّجَ ابْنُ قُتَيْبَةَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ أَشَارَ إِلَى أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْمُعْرِضِينَ تَلَبَّثُوا عِنْدَ كَلِمَةِ "الْكَفَّارَ"، فَرَأَوْا أَنَّ هَذَا مِمَّا يَسْتَوِي فِيهِ الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ، وَلَا يَنْقُصُ إِيْمَانُ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ هُوَ أَعْجَبَهُمْ، فَلَمَّا ذَا خُصَّ الْكَافِرُونَ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ؟ وَلِذَا فَقَدْ وَجَّهَ ابْنُ قُتَيْبَةَ دِلَالَةَ هَذِهِ الْآيَةِ نَحْوَ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ الْمُتَقَادِمِ فِي كِتَابِيهِ: "تَأْوِيلُ مُشْكَلِ الْقُرْآنِ"، وَتَفْسِيرُ غَرِيبِ الْقُرْآنِ"، مُلْتَقِيًا إِلَى أَنَّ الزَّرْعَ يُقَالُ لَهُ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أُلْقِيَ الْبِذْرَ فِي الْأَرْضِ كَفَرَهُ، أَي: غَطَّاهُ، وَقَدْ تَرَدَّدَ بَيْنَ الْمَعْنِيَيْنِ ثَلَاثَةً مِنَ الْمُفَسِّرِينَ كَالطَّبْرِيِّ، وَالزَّاعِبِ، وَالطَّبْرَسِيِّ، وَالزَّمْخَشَرِيِّ، وَالْقُرْطَبِيِّ، وَأَبِي حَيَّانَ، وَابْنِ كَثِيرٍ<sup>(2)</sup>.

وَمُسْتَصْفَى الْقَوْلِ فِيهَا أَنَّ "الْكَفَّارَ هُنَا الزَّرْعُ؛ لِأَنَّهُمْ يُعْطُونَ الْبِذْرَ، وَالْمَعْنَى أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَالزَّرْعِ يُعْجَبُ النَّاطِرِينَ إِلَيْهِ لِخَضْرَتِهِ بِكَثْرَةِ الْأَمْطَارِ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَصِيرَ هَشِيمًا كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ، وَإِذَا أَعْجَبَ الزَّرْعَ فَهُوَ غَايَةُ مَا يُسْتَحْسَنُ،...، وَقِيلَ: الْكُفَّارُ هُنَا الْكَافِرُونَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ إِعْجَابًا بِزِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ، فَإِنَّ أَسْلَ الْإِعْجَابِ لَهُمْ وَفِيهِمْ، وَمِنْهُمْ يَظْهَرُ ذَلِكَ، وَهُوَ التَّعْظِيمُ لِلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا"<sup>(3)</sup>.

(1) الآية (الحديد، 20).

(2) انظر: الراغب، المفردات، 486، والطبرسي، مجمع البيان، 306/9، والزمخشري، الكشاف، 65/4، والقرطبي، الجامع، 165/17، وأبو حيان، البحر المحيط، 223/8، وابن كثير، تفسير القرآن، 313/4.

(3) انظر: القرطبي، الجامع، 165/17.

وَبَاعِثُ التَّرْدِدِ بَيْنَ الْمَعْنَيْنِ فِي هَذَا الْمَقَامِ هُوَ انْتِسَابُ دِلَالَةِ الْكُفْرِ إِلَى مَجَالَيْنِ دِلَالِيَيْنِ، كُلُّ وَاحِدَةٍ تَكْتَسِي بِلَبُوسٍ مَعْنَوِيٍّ مُفَارِقٍ لِلْآخَرِ، مَعَ وُجُودِ خَيْطِ جَامِعٍ، فَمَنْ حَمَلَهُ عَلَى مَعْنَى التَّغْطِيَةِ؛ تَغْطِيَةَ الْبِذْرِ بِالتَّرَابِ، فَقَدْ تَشَبَّهَتْ بِدِلَالَةِ الْكَلِمَةِ فِي مَجَالِهَا اللَّغَوِيِّ، وَمَنْ حَمَلَهُ عَلَى مَعْنَى الْكُفْرِ فَقَدْ تَشَبَّهَتْ بِدِلَالَةِ الْكَلِمَةِ فِي مَجَالِهَا الشَّرْعِيِّ الدِّينِيِّ<sup>(1)</sup>، وَالْحَاصِلُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ هَذَا التَّبَايْنَ فِي الْفَهْمِ وَالْحُكْمِ إِنَّمَا مَرَدُّهُ إِلَى "الْمَجَالَاتِ الدَّلَالِيَّةِ" النَّاشِئَةِ عَنِ التَّنْظِيرِ الدَّلَالِيِّ.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ دِلَالَةُ الْوِزْرِ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ:

الْوِزْرُ لُغَةً: الْحِمْلُ الثَّقِيلُ، وَقَدْ أُسِغَتْ هَذِهِ الدَّلَالَةُ عَلَى الذَّنْبِ لِثِقَلِهِ، وَالْآثَامُ تُسَمَّى أَوْزَارًا لِأَنَّهَا أَحْمَالٌ تُنْقَضُ ظَهَرَ صَاحِبِهَا، وَتُنْقَلُ كَاهِلَهُ، "وَأَصْلُ الْوِزْرِ: مَا حَمَلَهُ الْإِنْسَانُ عَلَى ظَهْرِهِ"<sup>(2)</sup>، وَمِنْ هَذِهِ الدَّلَالَةِ جَاءَتْ كَلِمَةُ الْوِزِيرِ، "فَهُوَ حَبَأُ الْمَلِكِ الَّذِي يَحْمِلُ ثِقْلَهُ، وَيُعِينُهُ بِرَأْيِهِ، وَقِيلَ لَوْزِيرِ السُّلْطَانِ وَزِيرٌ لِأَنَّهُ يَزُرُّ عَنْهُ أَنْقَالَ مَا أُسْنِدَ إِلَيْهِ مِنْ تَدْبِيرِ الْمَمْلَكَةِ، أَيْ يَحْمِلُ ذَلِكَ"<sup>(3)</sup>.

وَالْمُسْتَخْلَصُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الْأَصْلَ الدَّلَالِيَّ لِكَلِمَةِ "الْوِزْرِ" هُوَ الْحِمْلُ الثَّقِيلُ، ثُمَّ صَارَ "الْوِزْرُ" ذَنْبًا تَجَوَّرًا وَتَشْبِيهًا؛ لِأَنَّ الْمَرْءَ إِذَا مَا اجْتَرَحَهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُهُ وَيَتَقَلَّدُهُ، وَلَيْسَ يَخْفَى، مِنْ جُوهَةٍ أُخْرَى، أَنَّ هَذَا التَّنْظِيرَ الدَّلَالِيَّ هُوَ انْتِقَالٌ مِنْ مِضْمَارِ الْمَحْسُوسِ "الْحِمْلُ الثَّقِيلُ" إِلَى مِضْمَارِ الْمَجْرَدِ "الذَّنْبُ"، وَقَدْ وَرَدَتْ كَلِمَةُ "الْوِزْرِ" فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ بِالْمَعْنَيْنِ: الْمُتَقَادِمِ وَالْحَادِثِ الْقَائِمِ عَلَى اسْتِرْفَادِ مَلْحَظِ الْإِنْزِيَاكِ وَالتَّنْظِيرِ:

- "وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ"<sup>(4)</sup>.

- "وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ"<sup>(5)</sup>.

- "وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ"<sup>(6)</sup>.

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 65/4، وأبو حيان، البحر المحيط، 223/8، وقد ذكرا الوجهين.

(2) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 140.

(3) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "وزر".

(4) الآية (الانشراح، 2).

(5) الآية (الأنعام، 31).

(6) الآية (طه، 87).

ها نَحْنُ أَوْلَاءِ نَقْفُ وَجَاهِ ثَلَاثِ آيَاتٍ كَرِيمَاتٍ تَتَجَلَّى فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ كَلِمَةٌ تَقِيءُ إِلَى مَادَّةِ "الْوَزْرِ"، وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ تَتَفَاوَتْ مِنْ حَيْثُ تَعْيِينُ الْمَقْصِدِ الدَّلَالِيِّ فِي كَلِمَةِ "الْوَزْرِ"؛ فَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ الْأُولَى لَا شَيْءَ عَلَيْهِ وَلَا إِشْكَالَ؛ إِذْ إِنَّ دِلَالََةَ الْوَزْرِ فِي ذَلِكَ السِّيَاقِ الشَّرِيفِ هُوَ: وَوَضَعْنَا عَنْكَ إِنْتَمَكَ<sup>(1)</sup>، وَالْمَعْنَى عِنْدَ الْقُرْطُبِيِّ: "حَطَطْنَا عَنْكَ ذَنْبَكَ"<sup>(2)</sup>، وَهِيَ عِنْدَ أَبِي حَيَّانٍ كِنَايَةٌ عَنِ عِصْمَتِهِ مِنَ الذَّنُوبِ، وَتَطْهِيرِهِ مِنَ الْأَدْنَسِ"<sup>(3)</sup>.

أَمَّا فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ، وَهِيَ: "وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ"، فَالْمَعْنَى الْمُتَعَيَّنُ مِنَ الْأَوْزَارِ "الْآثَامُ"، وَقَدْ تَحَسَّسَ الزَّمْخَشَرِيُّ الْوَجْهَ الْجَامِعَ بَيْنَ الْأَسْتِعْمَالَيْنِ: الْحَقِيقِيِّ وَالْمَجَازِيِّ؛ وَذَلِكَ "لَأَنَّهُ اعْتِيدَ حَمْلُ الْأَثَامِ عَلَى الظُّهُورِ، كَمَا أَلْفَ الْكَسْبُ بِالْأَيْدِي"<sup>(4)</sup>، وَعَنْهَا قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: "أَيُّ: ذُنُوبِهِمْ، جَمْعُ وَزْرٍ، عَلَى ظُهُورِهِمْ: مَجَازٌ، وَتَوَسُّعٌ، وَتَشْبِيهُ بِمَنْ يَحْمِلُ ثِقْلًا"<sup>(5)</sup>، وَقَدْ ذَهَبَ الطَّبْرِيُّ وَأَبُو حَيَّانٍ فِي دِلَالََةِ الْوَزْرِ فِي تِلْكَ الْآيَةِ مَذْهَبَيْنِ:

- أَوْلُهُمَا مَا تَقَدَّمَ عَنْهُ فَضْلُ بَيَانِ.
- وَثَانِيَهُمَا أَنَّ الظَّاهِرَ مِنَ "الْوَزْرِ" فِيهَا هُوَ أَنَّ هَذَا الْحَمْلَ حَقِيقَةٌ؛ إِذْ إِنَّ الْعَمَلَ يَمْتَلِئُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ قَبِيحِ الْوَجْهِ وَالصُّورَةِ فَيُرَكَّبُ"<sup>(6)</sup>.

أَمَّا دِلَالََةُ "الْوَزْرِ" فِي الْآيَةِ الثَّلَاثَةِ، وَهِيَ "وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ" فَقَدْ اعْتَصَصَ مَعْنَاهَا، وَتَأَبَّى عَنِ التَّعْيِينِ عَلَى وَجْهِ مِنَ الْإِحْكَامِ دُونَ الْإِبْهَامِ، فَتَبَايَنَ وَجْهُ الْقَوْلِ عَلَيْهَا؛ إِذْ إِنَّ ابْنَ قُتَيْبَةَ يَذْهَبُ فِي مَعْنَاهَا فِي كِتَابَيْهِ: "تَأْوِيلُ مُشْكَلِ الْقُرْآنِ"، وَ"تَفْسِيرُ غَرِيبِ الْقُرْآنِ" إِلَى الْأَصْلِ الدَّلَالِيِّ الْعَرِيضِ مُسْتَدَكِرًا الْمَعْنَى الْمُتَقَادِمَ، فَالْأَصْلُ هُوَ "مَا حَمَلَهُ الْإِنْسَانُ عَلَى ظَهْرِهِ، قَالَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: "وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ" أَيُّ: أَحْمَالًا مِنْ حُلِيِّهِمْ"<sup>(7)</sup>، وَتَابَعَهُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى الْقَائِمِ عَلَى اسْتِرْفَادِ الْأَصْلِ الدَّلَالِيِّ السِّجِسْتَانِيِّ"<sup>(8)</sup>.

(1) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 140.

(2) انظر: القرطبي، الجامع، 72/2.

(3) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 484/8.

(4) انظر: الزمخشري، الكشاف، 14/2.

(5) انظر: القرطبي، الجامع، 266/6.

(6) يقول الطبري: "وقد زعم بعضهم أن الوزر الثقل والحمل، ولست أعرف ذلك كذلك..."، وأحسب أن

هذا مردود، فقد ذهب لغويون كثيرون إلى ما أنكره الطبري، انظر: تفسيره، 114/7، وأبو حيان،

البحر المحيط، 111/4.

(7) انظر: ابن قتيبة، تأويل المشكل، 140، وتفسير الغريب، 281.

(8) انظر: ابن عزيز، نزهة القلوب، 71.



وَالْحَقُّ أَنَّ أَثَرَ التَّطَوُّرِ الدَّلَالِيِّ يَظْهَرُ جَلِيًّا هَهُنَا؛ ذَلِكَ أَنَّ الْمُفَسِّرِينَ تَرَدَّدُوا بَيْنَ الْمَعْنِيِّينَ، وَمِنْهُمْ الزَّمْخَشَرِيُّ، وَالطَّبْرَسِيُّ، وَالْقُرْطُبِيُّ، وَأَبُو حَيَّانَ، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ عِنْدَهُمْ قَائِمٌ عَلَى اسْتِشْرَافِ التَّطَوُّرِ الدَّلَالِيِّ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ التَّقْدِيرُ: وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَثْقَالَ مِنَ الْقَبْطِ وَزِينَتِهِمْ، وَتَمَّ مَعْنَى آخَرَ عِمَادَهُ الْمَعْنَى الْحَادِثُ الْقَائِمُ عَلَى التَّجَوُّزِ وَالتَّوَسُّعِ، وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ الْمُتَأَخَّرُ يَكُونُ التَّقْدِيرُ: وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا آثَامًا وَتَبَعَاتٍ مِنْ حُلِيِّ الْقَوْمِ؛ لِأَنَّهُمْ اسْتَعَارُوا حُلِيًّا مِنَ الْقَبْطِ لِيَنْزِيَنُوا بِهَا فِي عِيدِ كَانَ لَهُمْ، ثُمَّ لَمْ يَرُدُّوْهَا عَلَيْهِمْ عِنْدَ الْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ؛ إِذْ كَانُوا مَعَهُمْ فِي حُكْمِ الْمُسْتَأْمَنِينَ فِي دَارِ الْحَرْبِ<sup>(1)</sup>.

### عَلَّةُ الْعَلَّةِ:

أَمَّا الْبَحْثُ عَنِ عِلَّةِ الْعَلَّةِ فَإِنَّهُ يُؤَدِّنُ بِالْوَقُوفِ عَلَى بَاعْتِنِ عَرِيضَيْنِ:

#### أُولَاهُمَا:

أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَلْفَاظِ تَطَوَّرَتْ دِلَالَتُهَا بِبَاعِثٍ كَرِيمٍ نَسَخَ كَثِيرًا مِنَ الْمَفْهُومَاتِ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ الْكَرِيمُ، فَنَقَلَ الْأَلْفَاظَ مِنْ مِضْمَارٍ إِلَى مِضْمَارٍ، فَعَدَّوْنَا نَقْفًا عَلَى دِلَالَتَيْنِ لِلْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ:

- أُولَاهُمَا لُغَوِيَّةٌ مُتَقَادِمَةٌ.

- وَثَانِيَتُهُمَا شَرْعِيَّةٌ حَادِثَةٌ.

وَقَدْ عَرَّجَ عَلَى هَذِهِ الظَّاهِرَةِ ابْنُ قُتَيْبَةَ جَانِحًا إِلَى إِقَامَةِ بَوْنٍ بَيْنَ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ الْمُتَقَادِمِ، وَالْمَعْنَى الشَّرْعِيَّةِ الْحَادِثِ؛ إِذْ إِنَّ الْإِسْلَامَ الْكَرِيمَ بِمُصْطَلِحَاتِهِ الْجَدِيدَةِ قَدْ أَثَّرَ كَثِيرًا فِي انْزِيَاكِ الْأَلْفَاظِ عَنِ دِلَالَتِهَا إِلَى الْحَدِّ الَّذِي أَصْبَحَ فِيهِ الْفَرْعُ أَصْلًا، وَالْأَصْلُ فَرْعًا، وَقَدْ تَحَدَّثَ ابْنُ قُتَيْبَةَ عَنِ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالنَّيِّمِ، وَالْوُضُوءِ، وَالْفُنُوتِ<sup>(2)</sup>؛ وَذَلِكَ نَحْوُ:

- دِلَالَةُ "الْإِيمَانِ" الَّتِي جَاءَتْ بِالْمَعْنَى الْمُتَقَادِمِ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: "وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا".

- وَدِلَالَةُ "الصَّوْمِ" فِي قَوْلِهِ -تَبَارَكَ اسْمُهُ-: "فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا"<sup>(3)</sup>.

(1) انظر ما قيل في هذين المعنيين: الزمخشري، الكشاف، 550/2، والطبرسي، مجمع البيان، 39/7، والقرطبي، الجامع، 156/11، وأبو حيان، البحر المحيط، 249/6، وابن كثير، تفسير القرآن، 162/3، واكتفى الطبري بمعنى الأثقال والأحمال، انظر: تفسيره، 147/16.

(2) انظر: ابن قتيبة، غريب الحديث، 54-8/1، ومن المظان التي أفردت للتصنيف في الألفاظ الإسلامية كتاب "الزينة في الكلمات الإسلامية" لأبي حاتم الرازي.

(3) الآية (مريم، 26).

- ودلالة "الكفر" في قوله -تنزه-: "كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ".

### وثاني ذينك الباعثين العريضين:

- عوامل مقررّة في علم اللسان الحديث، كالعوامل الاجتماعية، والثقافية، والتاريخية، والنفسية، كل ذلك مما يؤذن بتطور دلالات الألفاظ، ومما ورد في هذه المباحث:
- تخصيص دلالة "الدابة" بعد أن كانت تدل على كل ما دب على وجه البسيطة.
  - وتعميم دلالة "السعي" التي لم تعد ركضاً خالصاً.
  - وانتقال دلالة "الفئة" من مضمير المحسوس إلى المجرد.

### تحوط واستدراك:

ويبقى حقاً علي، استكمالاً لمتطلبات هذا الدرس، أن أستقبل ما استدبرت بتحوط يعقبه استدراك:

أما التحوط فلعل من التكرير، ولكنه من التذكير، القول ثانية وثالثة إن العربية ليست بدعاً بين اللغات في هذه الجهة؛ فقد تقدّم في ثني مفتح هذا الدرس شكايّة أتت من صعيد عربيّ جأر بها "ستيفين أولمان"، وأزيد على هذا المتقدّم نظر إبراهيم أنيس المتجلي في قوله: "وكان لهذا أستاذ الأدب الإنجليزيّ يُحذّرنا من تلك الألفاظ التي نضن أننا نفهم معناها، ويقول لطلابيه: إنني لا أخشى عليكم في أدب "شكسبير" من تلك الألفاظ الغريبة التي لم تُصايفوها في نصوص أخرى، أو لم تسمعوا بها من قبل، ولكني أخشى عليكم من تلك الألفاظ التي لا تزال تشيع بصورتها القديمة في الأدب الإنجليزيّ الحديث، والتي يخطر في أذهانكم لأول وهلة أن دلالتها واضحة مألوفة لكم جميعاً، فهي محمل الزلل والخطأ؛ لأن كثيراً منها قد تطوّرت دلالتها، وتغيّرت مع الزمن، أما الأولى فأمرها هيّن لا تكلفكم سوى البحث عنها في مظانها، والوقوف على معناها"<sup>(1)</sup>.

أما الاستدراك فمضمونه أن أثر استشراق التطور الدلاليّ ليس مقصوراً على التنزيل العزيز، بل هو مطلبّ يعضّ عليه بالنواجذ أن ولوج الأحق في كل نصّ يتنسب إلى السابق، ولاكتفب بنصين أضربهما مثلاً على أن هذا الاستشراق مطلبّ له خطره في تعيين مقاصد الكلم ورُسوم التعبير:

(1) انظر: إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، 123.

أما المثال الأول فهو من كلام الحريري في المقامة الطيبية:

"...فوالذي فطر السماء، وعلم آدم الأسماء، إني لفقير العرب الغريب، وأعلم من تحت الجرباء، فصمد له فتى فتق اللسان، جريء الجنان...<sup>(1)</sup>، ولكلمة الصمود أمس دلالة ليست كدلاليتها اليوم، وفي الاستبانة التي أدعتها في طلاب العربية الشادين يظهر أنهم جنحوا إلى أن معنى "صمد له" في سياق مقامة الحريري هو: "ثبت له"، وهو المعنى الحادث الشائع بين أبناء العربية اليوم، وإخال أن المعنى الذي هو أليق بسياق الكلام: "قصده وذهب إليه".

أما المثال الثاني فهو قول الشاعر:

دَعَرْتُ بِهِ الْقَطَا وَنَقَيْتُ عَنْهُ      مَقَامَ الذَّنْبِ كَالرَّجْلِ اللَّعِينِ

وموضع المباحثة فيه دلالة "اللعين" في سياقها المتقدم، فاللغز لغة هو الإبعاد والطرد، ولعن الله إبليس: طرده حين قال: اخرج منها مذهباً، ثم انتقل ذلك فصار قولاً<sup>(2)</sup>، أي أنها تطورت فعدا كل من لعنه الله بعيداً عن رحمته، مستحقاً للعذاب هالكاً<sup>(3)</sup>، وقد أراد الشاعر: مقام الذنب اللعين الطريد كالرجل، وقيل: أراد مقام الذي هو كالرجل اللعين المنفي<sup>(4)</sup>.

ويعد،

فهذه أمثال من ثلاث فُرِحَ: من كلام رب الناس، ونبي الناس، وكلام الناس، وقد وقع تجاف عن المقصد المركز فيها تجافياً غير مقصود، والباعث على ذلك هو تغييب استيراد الأنظار الفائلة بالتطور الدلالي لانتفاء العهد بها، ولانزياحها عن الإلف اللغوي المستحكم، أو لانزياح الإلف اللغوي المستحكم عنها.

وصفوة المستخلص مما تقدم أن هذا المطلب قائم على استيراد ملحظ لسان مضمونه احتراش من أن يفهم اللاحق كلام السابق كما يفهمه في عصره، ظاناً أن تلكم الألفاظ المتقدمة كانت تعني عنده -أعني السابق- ما تعنيه اليوم، وقد تجلّت معالجة هذه المباحثة بالفيء إلى نماذج جزئية، وذلك بالوقوف عند آيات كريمات، وأحاديث شريفة، وقع في بعض كلماتها تطور دلالي، وانبنى على تلكم النماذج الجزئية موجهات كلية عمادها المكين قائم على استشراف ملحظ التطور الدلالي، وأعراضه، وبواعثه، تبياناً للمقصد الذي رمى إليه الحق

(1) انظر: الشريشي، شرح مقامات الحريري، 433/2، والسيوطي، المزهري، 624/1.

(2) انظر: ابن قتيبة، تفسير الغريب، 26، والآية (الأعراف، 18).

(3) انظر: ابن قتيبة، تفسير الغريب، 27، وابن منظور، اللسان، مادة "لعن".

(4) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "لعن"، والشعر منسوب للشماخ.

سُبْحَانَهُ، وَتَحْقِيقًا لِلأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ، وَاحْتِرَاسًا مِنْ أَنْ يَقَعَ الْمَرُءُ فِي مَحْظُورٍ يَرُدُّ عَلَيْهِ عِنْدَ التَّجَافِي عَنِ مَلْحَظِ "أَثْرِ اسْتِشْرَافِ التَّطَوُّرِ الدَّلَالِيِّ فِي فَهْمِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ".

### ثبت المصادر والمراجع:

- إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ط6، دار المعارف، القاهرة، 1986م.
- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات (606هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق أحمد الزاوي ومحمود الطناحي، دار الفكر، بيروت، 1963م.
- الأخفش، أبو الحسن سعيد بن مسعدة (215هـ)، معاني القرآن، تحقيق هدى قراعة، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990م.
- الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد (370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مراجعة علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1964م.
- أولمان، ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، 1962م.
- البلخي، مقاتل بن سليمان (150هـ)، الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق عبد الله شحاتة، ط2، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1994م.
- أبو حيان، محمد بن يوسف (745هـ)، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، وزارة الأوقاف، بغداد، 1977م.
- أبو حيان، محمد بن يوسف (745هـ)، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م.
- الرازي، أبو حاتم بن حمدان (322هـ)، كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، ط2، المعهد الهمداني للدراسات الإسلامية، تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني، القاهرة، 1975م.
- الراغب الأصفهاني (503هـ)، معجم المفردات في غريب القرآن، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
- رمضان عبد التواب، التطور اللغوي: مظاهره وعلله وقوانينه، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990م.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، 1987م.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (538هـ)، الفائق في غريب الحديث، تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، 1993م.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (538هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، القاهرة، 1977م.

- السجستاني، أبو بكر محمد بن عزيز (330هـ)، نزهة القلوب في تفسير القرآن العزيز، تحقيق يوسف المرعشلي، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1990م.
- ابن سلام، يحيى بن سلام البصري (200هـ)، التصاريف: تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه، تحقيق هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1980م.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (180هـ)، كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (911هـ)، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة الباز، ط2، مكتبة الباز، الرياض، 1998م.
- الطبرسي، الفضل بن الحسن (5--هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (310هـ)، جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت، 1978م.
- أبو عبيدة، معمر بن المثنى (210هـ)، مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1962م.
- عودة أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، ط1، مكتبة المنار، الزرقاء، 1985م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (395هـ)، معجم مقاييس اللغة، ط1، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1991م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (395هـ)، الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق عمر الطباع، ط1، مكتبة المعارف، بيروت، 1993م.
- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (207هـ)، معاني القرآن، تحقيق أحمد نجاتي، ومحمد النجار، الدار المصرية، القاهرة، 1955م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (276هـ)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، 1973م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (276هـ)، تفسير غريب القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م.

- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (276هـ)، غريب الحديث، دراسة رضا السويسي، الدار التونسية، تونس، 1979م.
- القرطبي، محمد بن أحمد (671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.
- ابن كثير، إسماعيل بن كثير (774هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، 1980م.
- مكّي بن أبي طالب (437هـ)، العمدة في غريب القرآن، تحقيق يوسف المرعشلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981م.
- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم (711هـ)، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، (د.ت.).
- اليزيدي، عبد الله بن يحيى (237هـ)، غريب القرآن وتفسيره، تحقيق عبد الرزاق حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987م.

### "تحليل الظواهر النحوية في قراءة ابن محيصن المكي الشاذة"

لَعَلَّه يَظْهَرُ مِنْ عُنْوَانِ هَذِهِ الْمُبَاحَثَةِ أَنَّ مِضْمَارَهَا الرَّئِيسَ يَأْخُذُ فِي ثَلَاثِ شُعَبٍ: أَوَّلُهَا اسْتِشْرَافُ ظَوَاهِرِ نَحْوِيَّةٍ مَخْصُوصَةٍ، وَثَانِيهَا قِرَاءَةٌ شَاذَةٌ، وَثَالِثُهَا الْمُقَرُّ بْنُ مُحْيِصِنٍ، وَالْحَقُّ أَنَّ تِلْكَ الظَّوَاهِرَ - كَمَا سَيَتَبَيَّنُ بَعْدًا - مُتَعَدِّدَةٌ مُفْرَقَةٌ، وَالسَّبِيلُ إِلَى تَحْقِيقِ هَذَا الْمُبْتَغَى جَمْعُهَا تَحْتَ عُنْوَانَاتٍ دَالَّةٍ، وَمِمَّا وَقَفَ عِنْدَهُ بِالتَّجْلِيَةِ وَالشَّرْحِ ظَاهِرَةُ الاجْتِزَاءِ الظَّاهِرِ وَالْمُقَدَّرِ، وَالتَّعْلُقِ، وَالْحَمْلِ عَلَى الْمَعْنَى، وَأَثَرُ تَغْيِيرِ صِيغَةِ الْفِعْلِ فِي السِّيَاقِ الْبِنْيَوِيِّ، وَتَعَاوُرِ حُرُوفِ الْمَعَانِي، وَالْوَقْفِ، وَقَدْ تَرَدَّدَ الْبَاحِثُ فِي مُنَاقَشَتِهِ الْمُتَقَدِّمَ بَيَانُهُ بَيْنَ الْعَرَضِ؛ عَرَضِ الظَّوَاهِرِ، وَالتَّحْلِيلِ، وَالْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الْقِرَاءَاتِ، وَقَدْ بَدَأَ أَنَّ قِرَاءَةَ ابْنِ مُحْيِصِنٍ تَلْتَقِي فِي كَثِيرٍ مِنْ وُجُوهِهَا بِالْقِرَاءَاتِ السَّبْعِ عَامَّةً، وَقِرَاءَةَ ابْنِ كَثِيرٍ خَاصَّةً، وَلَعَلَّ الْبَاعِثَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُمَا مَكِّيَانِ.

### "تحليل الظواهر النحوية في قراءة ابن محيصن المكي الشاذة"

في مقاصد العنوان:

لَعَلَّه يَظْهَرُ مِنْ عُنْوَانِ هَذِهِ الْمُبَاحَثَةِ أَنَّ مِضْمَارَهَا الرَّئِيسَ يَأْخُذُ فِي ثَلَاثِ شُعَبٍ:



- أولها استشرافُ ظواهرِ نَحْوِيَّةٍ مَخْصُوصَةٍ.
- وثانيها قِراءةُ شاذَّةٍ.
- وثالثها المُقَرِّئُ ابنُ مُحَيِّصِنٍ<sup>(1)</sup>.

### المُقَرِّئُ ابنُ مُحَيِّصِنٍ:

أما ثالثها فهو مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ مُحَيِّصِنِ السَّهْمِيِّ المَكِّيِّ، مُقَرِّئُ أَهْلِ مَكَّةَ مَعَ ابْنِ كَثِيرٍ، ثِقَّةٌ مُحَدِّثٌ رَوَى لَهُ مُسْلِمٌ، وَعَرَضَ عَلَى مُجَاهِدٍ، وَسَعِيدِ بنِ جُبَيْرٍ، وَدِرْبَاسِ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ شَيْبُلُ بنُ عَبَّادٍ، وَأَبُو عَمْرٍو بنُ العَلَاءِ، وَعَيْسَى بنُ عَمَرَ، وَإِسْمَاعِيلُ بنُ مُسْلِمِ المَكِّيِّ، وَقَدْ جَعَلَهُ الذَّهَبِيُّ مِنْ قُرَّاءِ الطَّبَقَةِ الثَّلَاثَةِ، تُوْفِيَ سَنَةَ ثَلَاثِ وَعِشْرِينَ وَمِئَةً، وَقِيلَ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ وَمِئَةً<sup>(2)</sup>.

### قِراءةُ ابنِ مُحَيِّصِنِ الشَّاذَّةُ:

أما ثانيها، وَهِيَ قِراءةُ ابنِ مُحَيِّصِنٍ، فَقَدْ أَلْحَقَتْ بِرِكْبِ القِراءاتِ الشَّاذَّةِ، وَالْحَقُّ أَنَّ القِراءاتِ مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرِ القَائِلِينَ بِالتَّوَاتُرِ - تَنَقُّسُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسامٍ:

- أولها قِسْمٌ اتَّفَقَ عَلَى تَوَاتُرِهِ، وَهَمُ السَّبْعَةُ المَشْهُورُونَ.
- وَقِسْمٌ اخْتَلَفَ فِيهِ، وَالأَصْحَحُ الأَكْثَرُ المُخْتَارُ تَوَاتُرُهُ، وَهَمُ الثَّلَاثَةُ.

(1) نشر هذا البحث في مجلة "الأبحاث" في الجامعة الأمريكية ببيروت، سنة 2006م في عددها الرابع والخمسين.

(2) انظر مصادر ترجمته: ابن مجاهد، أحمد بن موسى (324هـ)، السبعة في القراءات، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، د.ت، 65، والأندرابي، أحمد بن أبي عمر (5هـ)، قراءات القراء المعروفين بروايات الرواة المشهورين، تحقيق أحمد الجنابي، ط2، مؤسسة الرسالة، 1985م، 75، وجمال الدين يوسف المزي (742هـ)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ط1، تحقيق بشار معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998م، 367/5، والذهبي (748هـ)، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، ط1، تحقيق بشار عواد وآخرين، مؤسسة الرسالة، 1984م، 99/1، وابن الجزري، محمد بن محمد (833هـ)، غاية النهاية في طبقات القراء، ط1، تحقيق برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، 167/2، وابن العماد، أبو الفلاح الحنبلي (1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط2، دار المسيرة، بيروت، 1979م، 162/1.

- وقسم اتفق على شذوذه، وهم الأربعة: الحسن البصري، وابن محيصن، والأعمش، واليزيدي<sup>(1)</sup>.

وقد وضع أهل هذا العلم الشريف؛ أعني علم القراءات<sup>(2)</sup> مُحْتَكَمَاتٍ ثَلَاثَةً بُغِيَةَ التَّعْيِيرِ بِأَنَّ تِلْكَ الْقِرَاءَةَ صَحِيحَةٌ، وَأَنَّ هَذِهِ شَاذَّةٌ أَوْ ضَعِيفَةٌ، فَكُلُّ قِرَاءَةٍ -كَمَا يُقَرَّرُ ابْنُ الْجَزْرِيِّ، وَمِنْ قَبْلِهِ مَكِّي- وَافَقَتِ الْعَرَبِيَّةَ وَلَوْ بِوَجْهِ أَوَّلًا، وَوَأَفَقَتْ أَحَدَ الْمَصَاحِفِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَلَوْ احْتِمَالًا، ثَانِيًا، وَصَحَّ سَنَدُهَا ثَالِثًا، فَهِيَ الْقِرَاءَةُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي لَا يَجُوزُ رُدُّهَا، وَلَا يَحِلُّ إِنكَارُهَا؛ ذَلِكَ أَنَّهَا مِنَ الْأَحْرَفِ السَّبْعَةِ الَّتِي بِهَا نَزَلَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، وَوَجِبَ عَلَى النَّاسِ قَبُولُهَا، "وَمَتَى اخْتَلَّ رُكْنٌ مِنْ هَذِهِ الْأَرْكَانِ الثَّلَاثَةِ، أُطْلِقَ عَلَيْهَا ضَعِيفَةٌ، أَوْ شَاذَّةٌ، أَوْ بَاطِلَةٌ"<sup>(3)</sup>.

أَمَّا مُوَافَقَةُ وَجْهِ مِنْ وُجُوهِ النَّحْوِ فَسَوَاءٌ أَكَانَ الْوَجْهُ "أَفْصَحَ أَمْ فَصِيحًا، مُجْمَعًا عَلَيْهِ أَمْ مُخْتَلَفًا فِيهِ اخْتِلَافًا لَا يَضُرُّ مِثْلَهُ إِذَا كَانَتِ الْقِرَاءَةُ مِمَّا شَاعَ وَذَاعَ وَتَلَقَّاهُ الْأَثْمَةُ بِالْإِسْنَادِ الصَّحِيحِ"<sup>(4)</sup>.

وَأَمَّا مُوَافَقَةُ الرَّسْمِ فَقَدْ تَكُونُ تَحْقِيقًا، وَهِيَ الْمُوَافَقَةُ الصَّرِيحَةُ، وَقَدْ تَكُونُ تَقْدِيرًا، وَهِيَ الْمُوَافَقَةُ احْتِمَالًا<sup>(5)</sup>.

(1) انظر: البناء، أحمد بن محمد الدميطي (1117هـ)، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، وضع حواشيه أنس مهرة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، 6، 14.

(2) حد علم القراءة بأنه علم يعلم منه اتفاق الناقلين لكتاب الله -تعالى- واختلافهم في الحذف، والإثبات، والتحريك، والتسكين، والفصل، والوصل، وغير ذلك من هيئة النطق والإبدال وغيره من حيث السماع. انظر: البناء، الإتحاف، 6.

(3) انظر: ابن الجزري، محمد بن محمد (833هـ)، النشر في القراءات العشر، ط1، تقديم علي الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، 15/1، وانظر هذه المحتكمات عند مكِّي بن أبي طالب (437هـ)، الإبانة عن معاني القراءات، ط1، تحقيق محيي الدين رمضان، دار المأمون، دمشق، 1979م، 65.

(4) انظر: ابن الجزري، النشر، 16/1.

(5) تفسير ذلك كتابة "ملك يوم الدين" بغير ألف في جميع المصاحف، فقراءة الحذف تحتمله تخفيفا كما كتب "ملك الناس"، وقراءة الألف محتملة تقديرا كما كتب "مالك الملك"، انظر: ابن الجزري، النشر، 17/1، وانظر كتابه: منجد المقرئين ومرشد الطالبين، ط1، مكتبة القدسي، القاهرة، 1996م، 23.

أما التواتر فهو ما رواه جماعة عن جماعة يمنع تواطؤهم على الكذب من البداءة إلى المنتهى<sup>(1)</sup>، والحق أن مكياً وابن الجزري لم يريا في التواتر محتكماً رئيساً، وركناً أصيلاً يُفَاء إليه في التقرير بأن هذه قراءة صحيحة أو غير ذلك، فقد ارتضيا صحة الإسناد مع الاشتهار مُحْتَكَمِينَ رئيسين<sup>(2)</sup>.

وقد ضرب ابن الجزري مثلاً دالة على الشذوذ وبواعثه، ومن ذلك أن ابن عباس قرأ قول الحق -تعالى-: "وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا": "كل سفينة صالحة"<sup>(3)</sup>، والظاهر أن هذه القراءة لا تخالف وجهاً من وجوه العربية. ومما يضاف إلى المحتكمات أنها مما صح نقله عن الآحاد، ولكن العلة الباعثة على إلحاقها بركب الشاذ أنها خالفت الرسم العثماني.

وكذلك قراءة من فتح الباء في قوله الحق: "وإن أدري"<sup>(4)</sup>؛ إذ لا إشكال في السند، ولا النقل، ولا الرسم كما يرى ابن الجزري، ولكن الإشكال يتجلى في أن لا وجه له في العربية<sup>(5)</sup>، وقد وقف عندها ابن جني متأملاً مفسراً، مُلمحاً إلى إنكار ابن مجاهد هذا الوجه، مُشيراً إلى أن التَّحْرِيكَ بالياء إنما جاء لشبهة عرضت، وليس خطأ ساذجاً بحتاً<sup>(6)</sup>.

(1) انظر: القسطلاني، شهاب الدين أحمد بن محمد (923هـ)، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق عامر السيد عثمان، وعبد الصبور شاهين، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1972م، 67/1.

(2) انظر حديث ابن الجزري عن الإسناد الضعيف والاشتهار، النشر، 18-20، ومكي، الإبانة، 57، ومحمود الصغير، القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، 1999م، 71.

(3) انظر: ابن الجزري، النشر، 19/1، وانظر أمثلة أخرى في كتابه: منجد المقرئين، 27، والآية (الكهف، 79).

(4) الآية (الأنبياء، 109).

(5) انظر: ابن الجزري، النشر، 20/1، وانظر أمثلة على القراءات الشاذة وبواعث الشذوذ وضروب القراءات الشاذة: شعبان إسماعيل، القراءات: أحكامها ومصادرها، 105، ومحمد القضاة وآخرون، مقدمات في علم القراءات، ط1، دار عمار، عمان، 2001م، 73.

(6) انظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان (392هـ)، المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق محمد عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، 112/2.

وَلَعَلَّ الْمُسَاءَلَةَ الَّتِي تَقُومُ فِي النَّفْسِ بَعْدَ هَذَا الْمُتَقَدِّمِ مِضْمَارُهَا الْبَاعِثُ الَّذِي أُذِنَ بَعْدَ قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيْصِنٍ شَادَّةً، إِخَالُ أَنْ مَرَدَّ ذَلِكَ لَا إِلَى السَّنَدِ، وَلَا إِلَى تَجَافِي قِرَاءَتِهِ عَنْ وُجُوهِ الْعَرَبِيَّةِ؛ ذَلِكَ أَنَّ سَنَدَهُ مُتَّصِلٌ لَا شَيْئَةَ عَلَيْهِ وَلَا شُبُهَةَ<sup>(1)</sup>، ثُمَّ إِنَّ أَبَا عَمْرٍو بْنَ الْعَلَاءِ، وَهُوَ وَاحِدٌ مِنَ السَّبْعَةِ الَّذِينَ أَقَامَ عَلَيْهِمْ ابْنُ مُجَاهِدٍ كِتَابَهُ، قَدْ عَرَضَ عَلَيْهِ وَأَخَذَ مِنْهُ<sup>(2)</sup>.

وَمَسْأَلَةُ السَّنَدِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي أُوْلِيَتْ عَيْنَ الْعِنَايَةِ فِي عِلْمِ الْقِرَاءَاتِ، فَكَثِيرًا مَا كَانَ الْعُلَمَاءُ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالتَّمْحِيصِ يُدَقِّقُونَ فِي السَّنَدِ وَاتِّصَالِهِ<sup>(3)</sup>، وَلَا أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ وَقُوفِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ عِنْدَ أَسْمَاءِ الْقُرَّاءِ، وَرَوَاتِهِمْ، وَأَسَانِيدِهِمْ، وَاتِّصَالِهَا بِالنَّبِيِّ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ<sup>(4)</sup>، وَالظَّاهِرُ أَنَّ قِرَاءَةَ ابْنِ مُحَيْصِنٍ سَنَدُهَا مُتَّصِلٌ بِالرَّسُولِ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَالْمُفَارِقَةُ الْمُعْجِبَةُ حَقًّا أَنْ مُؤَلَّفًا فِي الْقِرَاءَاتِ، وَهُوَ الْأَنْدَرَابِيُّ، صَاحِبُ كِتَابِ "قِرَاءَاتِ الْقُرَّاءِ الْمَعْرُوفِينَ بِرَوَايَاتِ الرِّوَاةِ الْمَشْهُورِينَ" قَدْ خَالَفَ ابْنَ مُجَاهِدٍ فِي تَسْبِيحِهِ الْقُرَّاءِ، وَلَيْسَ مَوْضِعُ الْمُخَالَفَةِ هَذَا الْمُتَقَدِّمَ، بَلْ جَعَلَ ابْنَ مُحَيْصِنٍ وَاحِدًا مِنَ الْقُرَّاءِ الْعَشْرَةِ الْمَشْهُورِينَ فِي كِتَابِهِ، فَلَمْ يَعُدَّهُ صَاحِبَ قِرَاءَةٍ شَادَّةٍ<sup>(5)</sup>، وَهَذِهِ قِسْمَةٌ تُخَالَفُ قِسْمَةَ ابْنِ الْجَزْرِيِّ وَالبَنَاءِ اللَّذِينَ جَاءَ بَعْدَهُ، وَمَعَ كُلِّ هَذَا الْمُتَقَدِّمِ بَيَانُهُ أَنْفَاءً، يَبْقَى رَجِيعٌ مِنَ النَّسَالِ يَأْخُذُ نَصِيبَهُ فِي النَّفْسِ عَنِ الْعِلَّةِ الْبَاعِثَةِ عَلَى كَوْنِ قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيْصِنٍ شَادَّةً.

(1) أورد الأهوازي سند قراءة ابن محيصة مشيرا إلى أنه -أعني ابن محيصة- قرأ على أبي داود شبل بن عباد مولى ابن عامر الأموي، على درياس على عبد الله بن عباس على أبي المنذر أبي بن كعب على الرسول صلى الله عليه وسلم. انظر الأهوازي، رواية ابن محيصة، 2ب، وانظر ما قاله البناء في الإتحاف، 14.

(2) انظر: ابن خلف الأنصاري، أبو جعفر أحمد (540هـ)، الإقناع في القراءات السبع، تحقيق أحمد المزيدي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م، 58.

(3) انظر باب اتصال السند واهتمام العلماء به: محمد القضاة وآخرون، مقدمات في علم القراءات، 110.

(4) انظر: الرعياني، أبو عبد الله محمد بن شريح (476هـ)، الكافي في القراءات السبع، تحقيق أحمد محمود الشافعي، ط1، دار الكتب العلمية، 2000م، 34، وأبو معشر الطبري (478هـ)، التلخيص في القراءات الثماني، تحقيق محمد حسن موسى، ط1، (د.ن)، جدة، 1992م، 89-129، وابن خلف الأنصاري، الإقناع، 20-102.

(5) انظر: الأندرابي، قراءات القراء المعروفين، 75.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْإِجَابَةَ قَدْ قَالَهَا ابْنُ مُجَاهِدٍ فِي "السَّبْعَةِ" قَبْلًا، وَنَقَلَهَا عَنْهُ ابْنُ الْجَزْرِيِّ فِي "الغَايَةِ" بَعْدًا، فَقَدْ كَانَ لابْنِ مُحْيِصِنٍ اخْتِيَارٌ فِي الْقِرَاءَةِ عَلَى مَذْهَبِ الْعَرَبِيَّةِ، فَخَرَجَ بِهِ عَنْ إِجْمَاعِ أَهْلِ بَلَدِهِ، فَزَعَبَ النَّاسُ عَنْ قِرَاءَتِهِ مُجْمَعِينَ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ كَثِيرٍ الْمَكِّيِّ لِاتِّبَاعِهِ<sup>(1)</sup>، وَقَدْ قَرَأَ بِهَا الْقُرْآنَ ابْنُ الْجَزْرِيِّ، "وَلَوْلَا مَا فِيهَا مِنْ مُخَالَفَةِ الْمُصْحَفِ لَأُحِقَّتْ بِالْقِرَاءَاتِ الْمَشْهُورَةِ"<sup>(2)</sup>.

### تَحْلِيلُ الظَّوَاهِرِ النَّحْوِيَّةِ:

أَمَّا أَوَّلُ مَطَالِبِ هَذِهِ الْمُبَاحَثَةِ الْمُتَجَلِّيَةِ مِنْ عُنْوَانِهَا الْعَرِيضِ فَهُوَ تَحْلِيلُ ظَوَاهِرِ نَحْوِيَّةٍ مَخْصُوصَةٍ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مُحْيِصِنٍ، وَالْحَقُّ أَنَّهَا مُتَعَدِّدَةٌ مُفْرَقَةٌ، وَالسَّبِيلُ إِلَى تَحْقِيقِ هَذَا الْمُبْتَغَى جَمْعُهَا تَحْتَ عُنْوَانَاتٍ دَالَّةٍ، وَمِمَّا سَنَقْفُ عِنْدَهُ بِالتَّجْلِيَةِ وَالشَّرْحِ بَعْدًا:

- ظَاهِرَةُ الْاجْتِزَاءِ، كَالْاجْتِزَاءِ الظَّاهِرِ، وَالْمُقَدَّرِ، وَضُرُوبِهِمَا.
- وَالتَّعْلُقُ.
- وَالْحَمْلُ عَلَى الْمَعْنَى.
- وَأَثَرُ تَغْيِيرِ صِيغَةِ الْفِعْلِ فِي السِّيَاقِ الْبِنْيَوِيِّ.
- وَتَعَاوُرُ حُرُوفِ الْمَعَانِي.
- وَالْوَقْفُ.

لَعَلَّهُ يَحْسُنُ أَنْ أَكْتَفِيَ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ مُجَلِّ لِحُدُودِ الْعُنْوَانِ وَمَقَاصِدِهِ، فَلَأَنْتَقِلَ مِنْ مِضْمَارِ النَّظَرِيَّةِ إِلَى مِضْمَارِ التَّطْبِيقِ، وَاسْتِشْرَافِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الظَّوَاهِرِ النَّحْوِيَّةِ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مُحْيِصِنٍ الْمَكِّيِّ<sup>(3)</sup>:

### أَوَّلًا: الْاجْتِزَاءُ

(1) انظر: ابن مجاهد، السبعة، 65.

(2) انظر: ابن الجزري، الغاية، 167/2.

(3) كان قد وقع بين يدي مخطوط فريد في القدس الشريف في قسم إحياء التراث الإسلامي، وهو موسوم بـ "رواية الحسن البصري وأبي عبد الله محمد بن محيصة السهمي"، لمصنفه أبي علي الحسن بن علي الأهوازي (446هـ)، وهو مخطوط فريد له خطره في علم القراءات؛ ذلك أنه يجمع بين طياته ملامح قراءة ابن محيصة المكي، فهو، بناءً على ما تقدم، مصدر أصيل لاستشراف معالم قراءة ابن محيصة، وقد أفدت منه كثيرا في توصيف قراءة ابن محيصة، ويعكف على تحقيقه أحد الباحثين تَمَّ.

يَظْهَرُ لِلْقَارِئِ الْمُتَدَبِّرِ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيِّصِنٍ أَنَّ الاجْتِزَاءَ مَلْحَظٌ يَكَادُ يَكُونُ مُطْرَدًا فِي قِرَاءَتِهِ، وَالْمَقْصِدُ الْمُتَعَيَّنُ مِنْهُ أَنْ يُجْتَزَأَ شَيْءٌ مِنْ مَوْلَفَاتِ السِّيَاقِ الْبِنْيَوِيِّ الشَّرِيفِ، وَالْحَقُّ أَنَّ الاجْتِزَاءَ عِنْدَهُ يَنْتَسِبُ إِلَى شَقَّيْنِ:

- أَوْلُهُمَا اجْتِزَاءٌ ظَاهِرٌ.

- وَثَانِيَهُمَا اجْتِزَاءٌ مُقَدَّرٌ.

أَمَّا الْأَوَّلُ فَلَهُ هَيْئَاتٌ يَتَجَلَّى عَلَيْهَا، فَقَدْ يَكُونُ اجْتِزَاءٌ لِحُرُوفِ الْمَعَانِي، وَقَدْ يَكُونُ اجْتِزَاءٌ لِحَرَكَةِ الْإِعْرَابِ، وَقَدْ يَكُونُ اجْتِزَاءٌ مِنْ بِنْيَةِ الْكَلِمَةِ ذَاتِهَا، وَفِيمَا يَأْتِي فَضْلٌ بَيَانٍ مُجَلِّ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَوْصَافٍ وَهَيْئَاتٍ:

### أَوَّلًا: الاجْتِزَاءُ الظَّاهِرُ

#### حذف حركة الإعراب:

إِنَّ الْمُتَأَمِّلَ فِي مِطَازِ النَّحْوِيِّينَ يَجِدُ أَنَّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ خِلَافًا وَأَقَاوِيلَ:

- أَحَدُهَا الْجَوَازُ مُطْلَقًا، وَعَلَيْهِ ابْنُ مَالِكٍ، وَقَدْ حَرَجَ عَلَيْهِ قِرَاءَاتٍ قُرْآنِيَّةً تَعَضُّدُ هَذَا الْمَذْهَبِ.

- وَالثَّانِي الْمَنْعُ مُطْلَقًا فِي الشَّعْرِ وَغَيْرِهِ، وَعَلَيْهِ الْمُبَرِّدُ.

- وَالثَّلَاثُ الْجَوَازُ فِي الشَّعْرِ، وَالْمَنْعُ فِي الْاِخْتِيَارِ، وَعَلَيْهِ الْجُمْهُورُ<sup>(1)</sup>.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ الْمَوْسُومَةَ أَنْفًا مِنْ مَعَالِمِ قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيِّصِنِ الْقَائِمَةِ عَلَى اخْتِلاسِ الْحَرَكَةِ، فَهِيَ إِسْرَاعٌ فِي الْحَرَكَةِ إِسْرَاعًا يُفْضِي بِالسَّمْعِ إِلَى التَّقْرِيرِ بِأَنَّ الْحَرَكَةَ قَدْ ذَهَبَتْ أَوْ تَكَادُ تَكُونُ، وَقَدْ عَرَجَ عَلَى هَذِهِ الظَّاهِرَةِ اللَّهْجِيَّةِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ سَبِيوِيهِ مُلْمَحًا إِلَى أَنَّهَا مِنَ الْخَفِيِّ بوزنِ الْمُظْهَرِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى قِرَاءَةِ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ فِي قَوْلِهِ -تعالى-: "بَارِكُمْ"<sup>(2)</sup>، وَالْحَقُّ أَنَّ ابْنَ مُحَيِّصِنِ كَانَ يَخْتَلِسُ الْحَرَكَةَ إِذَا تَوَالَى ثَلَاثَ ضَمَّاتٍ، وَهُوَ بِهَذَا يُوَافِقُ أَبَا عَمْرٍو فِي قِرَاءَتِهِ؛ وَذَلِكَ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ -تعالى-:

(1) انظر هذه المسألة عند السيوطي، جلال الدين (911هـ)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق

أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، 1/183-185.

(2) انظر: سبوييه، أبو بشر عمرو بن عثمان (180هـ)، كتاب سبوييه، تحقيق عبدالسلام هارون، ط3،

مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م، 4/202، والآية (البقرة، 54)، وانظر أمثلة أخرى في قراءة أبي

عمرو عند ابن الأبازي الغافقي (569هـ)، رواية أبي عمرو بن العلاء البصري، ط1، تحقيق سر

الختم الحسن عمر، دار عمار، عمان، 2001م، 87.

- "يَأْمُرُكُمْ" (1).

- "يُنْصُرُكُمْ" (2).

- "تَحْشُرُهُمْ" (3).

وَلَعَلَّهُ يَحْسُنُ أَنْ يُعَقَّبَ عَلَى هَذَا الْمُتَقَدِّمِ بِاسْتِدْرَاكَيْنِ:

- الْأَوَّلُ أَنَّ الْمُبْتَغَى مِنَ اخْتِلَاسِ الْحَرَكَةِ التَّخْفِيفُ أَنَّ اجْتِمَاعَ ثَلَاثِ حَرَكَاتٍ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ، وَهَذِهِ لُغَةٌ بَنِي أُسْدٍ، وَتَمِيمٍ، وَبَعْضِ نَجْدٍ، وَضِدُّ ذَلِكَ الْإِشْبَاعُ، "فَأَمَّا الَّذِينَ لَا يُشْبِعُونَ فَيُخْتَلِسُونَ اخْتِلَاسًا" (4).

- وَثَانِي ذَيْنِكَ الْاسْتِدْرَاكَيْنِ أَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي الْحَرَكَةِ الْمُخْتَلَسَةِ أَلَّا يَكُونَ قَدْ تَقَدَّمَهَا تَشْدِيدٌ أَوْ سُكُونٌ، وَأَلَّا يَكُونَ قَدْ وَقَعَ قَبْلَ الصَّمِّ صَوْتُ عِلَّةٍ؛ وَذَلِكَ نَحْوَ "يُنَالُهُمْ"، وَ"يَزِيدُهُمْ"؛ إِذْ لَا اخْتِلَاسَ فِيهِمَا وَلَا تَسْكِينَ (5).

وَالْمُسْتَصْفَى أَنَّ الْاِخْتِلَاسَ عِنْدَ ابْنِ مُحَيْصِنٍ وَقَعَ عِنْدَ تَوَالِي ثَلَاثِ ضَمَّاتٍ كَمَا فِي قَوْلِنَا "يُنْصُرُكُمْ"، وَعِنْدَ تَوَالِي ضَمَّتَيْنِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: "يَجْمَعُكُمْ" (6)، وَ"يَكْلُوكُمْ" (7)، وَنَحْوَ ذَلِكَ (8). أَمَّا فِيمَا هُوَ مِنْ نَحْوِ "بَارِكُمْ"، وَ"رَوْفٍ"، فَقَدْ أَشْبَعَ فِيهِ الْحَرَكَةَ، وَخَالَفَ بِذَلِكَ أَبَا عَمْرٍو فِي "بَارِكُمْ" (9).

وَتَمَّ حَالٌ ثَالِثَةٌ تَأْتِي عَقَبَ هَذَا، وَهِيَ الْإِسْكَانُ الصَّرِيحُ، فَقَدْ كَانَ ابْنُ مُحَيْصِنٍ يَجْتَرِئُ الْحَرَكَةَ اجْتِزَاءً كَامِلًا فِي نَحْوِ قَوْلِهِ -تَعَالَى-:

- "وَأَرْزَأْنَا مَنْاسِكَنَا" (10).

(1) الآية (البقرة، 169).

(2) الآية (الملك، 20).

(3) الآية (الأنعام، 22).

(4) انظر: سيبويه، الكتاب، 202/4.

(5) انظر: عبد الفتاح القاضي، القراءات الشاذة، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 1981م، 30.

(6) الآية (التغابن، 9).

(7) الآية (الأنبياء، 42).

(8) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 3.

(9) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 3، والبناء، الإتحاف، 178، ومحمد خاروف، الميسر في

القراءات الأربعة عشرة، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 1995م، 22.

(10) الآية (البقرة، 128).

- "أرنا الله جهرة" (1).
- "أرني أنظر إليك" (2).
- "ربنا أرنا للذين" (3).

ها نحن أولاء نتردد في قراءة ابن محيصن بين ثلاثة مظاهر في هذه المباحثة:

- أولها الكثير الغالب، وهو إشباع الحركة وتحقيقها.
- وثانيها اختلاس الحركة في مواضع مخصوصة تقدم الحديث عليها.
- وثالثها إسكان الرء في فعل الأمر "أرني" و"أرنا" حيث وقعا، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو (4).

والحق أن الاختلاس قد يكون كالتسكين في النطق؛ إذ يصعب التقريق بينهما، فالأهوازي لما وقف عند أبواب الأصول في قراءة ابن محيصن ذكر اختلاس الحركة من نحو "يأمركم"، ولكنه لما انتقل إلى فرش الحروف أشار إلى التسكين في "يأمركم" (5)، وكذلك أشار إلى أنه سكت النون في قوله -تعالى-: "يلعنهم" (6)، وقد جمع الداني بين الاختلاس والإخفاء، فعدهما ظاهرة واحدة، فقال: "فأما إخفاء الحركات فهو اختلاسها، والإسراع باللفظين من غير تسكين ولا تشديد" (7).

والوجه في إسكان الرء في "أرني" و"أرنا" عند الفارسي حسن متقبل؛ ذلك أن حركة الرء -كما يرى الفارسي- ليست حركة إعراب، ثم إنها بمنزلة "فخذ" التي يجوز فيها الإسكان

(1) الآية (النساء، 153).

(2) الآية (الأعراف، 143).

(3) الآية (فصلت، 29).

(4) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصن، 3ب، وابن غلبون، طاهر بن عبد المنعم (399هـ)، التنكرة في القراءات، تحقيق سعيد زعيمة، دار ابن خلدون، الإسكندرية، 2001م، 195، والطبري، التلخيص، 214، وابن الأبرازي، رواية أبي عمرو، 89، وابن الجزري، النشر، 167/2، والبناء، الإتحاف، 193.

(5) الآية (آل عمران، 80).

(6) الآية (البقرة، 159)، والأهوازي، رواية ابن محيصن، 4ب.

(7) انظر: الداني، التيسير في القراءات السبع، تصحيح أوتوبرنزل، إستنبول، 1930م، 127، وغانم قدوري، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ط1، دار عمار، 2003م، 433.



لِتَعْدَوْ "فَحْذًا"، وَالْحَقُّ أَنَّ هَذَا التَّغْلِيلَ مُحْتَاجٌ إِلَى نَظَرٍ وَتَمَحِيصٍ، فَأَمَّا أَنْ تَكُونَ مِثْلَ "فَحْذٍ" الَّتِي تُسَهَّلُ وَتُخَفَّفُ فَتُحَذَفُ مِنْهَا الْحَرَكَةُ، فَهَذَا قِيَاسٌ حَمِيدٌ قَدْ قَالَ بِهِ سَبْيُوهِه مِنْ قَبْلُ<sup>(1)</sup>، وَأَمَّا أَنْ يُقَالَ إِنَّ الْمُسَوِّجَ لِحَذْفِ حَرَكَةِ الرَّاءِ عَدُّهَا لَيْسَتْ حَرَكَةً إِعْرَابٍ فَهَذَا لَا يَسْتَقِيمُ؛ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْقُرَاءَةِ؛ كَابْنِ مُحَيْصِنٍ، وَأَبِي عَمْرٍو، قَدْ حَذَفَ الْحَرَكَةَ مِمَّا هُوَ نَحْوُ "يَأْمُرُكُمْ"، وَهِيَ حَرَكَةُ إِعْرَابِيَّةٌ<sup>(2)</sup>.

وَتَفْسِيرُ هَذَا الاجْتِزَاءِ مِنْ وَجْهَةٍ صَوْتِيَّةٍ قَائِمٌ عَلَى التَّخْفِيفِ، وَقَدْ قِيلَ إِنَّ أَحَدَهُمْ سَأَلَ أَبَا عَمْرٍو عَنِ قَوْلِهِ الْحَقِّ: "يَعْلَمُهُم الْكِتَابُ"<sup>(3)</sup>، فَأَشَارَ إِلَى أَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ يَقُولُونَ "يَعْلَمُهُمْ"، وَ"يَعْلَمُهُمْ" مُثَقَّلَتَيْنِ، وَلِغَةِ تَمِيمٍ: "يَعْلَمُهُمْ"، وَ"يَعْلَمُهُمْ"، وَلَمَّا عَرَّجَ عَلَى هَذِهِ الظَّاهِرَةِ اللَّهْجِيَّةِ فِي الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ابْنُ جَنِّي أَشَارَ إِلَى أَنَّ التَّثْقِيلَ لَا سُؤَالَ عَنْهُ وَلَا فِيهِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ اسْتِيفَاءٌ وَاجِبٌ الْإِعْرَابِ، وَلَكِنَّ مَنْ حَذَفَ فَعَنْهُ السُّؤَالَ، وَعَلَّتَهُ تَوَالِي الْحَرَكَاتِ مَعَ الضَّمَمَاتِ، فَيَثْقُلُ عَلَيْهِمْ، فَيُخَفِّفُونَ بِإِسْكَانِ حَرَكَةِ الْإِعْرَابِ، وَعَلَيْهِ قِرَاءَةُ أَبِي عَمْرٍو: "فَتَوَبُوا إِلَى بَارِكُمْ" فَيَمُنُّ رَوَاهُ بِسُكُونِ الْهَمْزَةِ<sup>(4)</sup>.

#### اجْتِزَاءٌ عَلَى مُسْتَوَى الْكَلِمَةِ:

وَيَكْتَرُ هَذَا الضَّرْبُ مِنَ الاجْتِزَاءِ فِي حُرُوفِ الْمَعَانِي، وَمِنْ أَمْثَلِهِ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيْصِنٍ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: "سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ"<sup>(5)</sup> بِهَمْزَةٍ وَاحِدَةٍ، وَقَدْ عَلَّلَ ذَلِكَ الْأَهْوَازِيُّ بِأَنَّ حَذْفَ الْهَمْزَةِ هُنَا جَاءَ لِلْخَبْرِ<sup>(6)</sup>، وَالْحَقُّ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ كَذَلِكَ عِنْدَ ابْنِ جَنِّي، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى هُوَ الْاسْتِيفَاءُ أَيْضًا، فَقَدْ حُذِفَتِ الْهَمْزَةُ تَخْفِيفًا كَرَاهَةً تَوَالِي هَمْزَتَيْنِ أَوَّلًا، وَلِأَنَّ قَوْلَ الْحَقِّ "سَوَاءٌ"

(1) انظر: سببويه، الكتاب، 202/4.

(2) انظر: الفارسي، الحسن بن عبد الغفار (377هـ)، الحجة للقراء السبعة، تحقيق بدر الدين قهوجي وآخرين، ط1، دار المأمون للتراث، دمشق، 1987م، 84/2، وابن أبي مريم (565هـ)، الموضح في وجوه القراءات وعللها، ط1، تحقيق عمر الكبيسي، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن، جدة، 1993م، 302/1، وأبو حيان الأندلسي، أثير الدين محمد بن يوسف (745هـ)، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، 651/1.

(3) الآية (البقرة، 129).

(4) انظر: ابن جني، المحتسب، 195/1، وهي قراءة حمزة والبيدي.

(5) الآية (البقرة، 6، وياسين، 10).

(6) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصن، 4.

عليهم" يُستفادُ منه أن تكونَ ثمَّ تسويةً بينَ شَيئَيْنِ فأكثرَ ثانيًا، ولمجيءِ "أم" من بعدِ ذلكَ ثانيًا، وهذا كُلُّهُ يُفْضِي إلى القَوْلِ إِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى الاستِفْهَامِ<sup>(1)</sup>، وَمَعَ هَذَا، تَبْقَى قِرَاءَةً شَادَّةً؛ ذَلِكَ أَنَّهَا افْتَقَرَتْ إِلَى رُكْنٍ رَئِيسٍ مِنْ أَرْكَانِ القِرَاءَةِ الصَّحِيحَةِ، وَهُوَ مُوَافَقَتُهَا الرِّسْمِ العُثْمَانِيَّ<sup>(2)</sup>، وَقَدْ قُرِئَتْ "أُنذَرْتَهُمْ" فِي هَذَا المَوْضِعِ الشَّرِيفِ وَمَا شَاكَلَهُ -وَعَدَّتْهَا ثَمَانِيَّةً وَعَشْرُونَ مَوْضِعًا- بِتَحْقِيقِ الهَمْزَتَيْنِ مُتَوَالِيَتَيْنِ، وَبِتَحْقِيقِ الأُولَى وَتَعْوِيزِ مَدَّةٍ مِنَ الثَّانِيَةِ، وَبِهَمْزَتَيْنِ بَيْنَهُمَا مَدَّةٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ عَرَبِيٌّ فَصِيحٌ<sup>(3)</sup>.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الاجْتِزَاءِ قِرَاءَتُهُ قَوْلِ الحَقِّ -تعالى-: "نَادِمِينَ وَيَقُولُ": "نَادِمِينَ يَقُولُ"<sup>(4)</sup>، وَالْمَلْحَظُ اللَّافْتُ لِلخَاطِرِ أَنَّ هَذِهِ القِرَاءَةَ المَوْسُومَةَ بِالشَّادَّةِ تُوَافِقُ قِرَاءَةً صَحِيحَةً، وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ كَثِيرٍ، فَقَدْ قَرَأَهَا بِإِسْقَاطِ الواوِ وَرَفْعِ اللَّامِ كَمَا ابْنُ مُحِيسِنٍ مُوَافِقًا بِذَلِكَ المَصَاحِفِ المَكِّيَّةِ؛ إِذِ إِنَّهُمَا -أَعْنِي ابْنَ مُحِيسِنٍ وَابْنَ كَثِيرٍ- مَكِّيَّانِ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ قِرَاءَةُ نَافِعٍ، وَابْنِ عَامِرٍ مِنَ السَّبْعَةِ، وَأَبِي جَعْفَرٍ مِنَ العَشْرَةِ<sup>(5)</sup>.

أَمَّا قِرَاءَةُ أَبِي عَمْرٍو فَقَدْ تَفَرَّدَ فِيهَا بِالواوِ وَنَصَبِ اللَّامِ<sup>(6)</sup>. أَمَّا حَذْفُ الواوِ فَعَلَى الاستِغْنَاءِ عَنِ حَرْفِ العَطْفِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ -تقدَّسَ اسْمُهُ-: "ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ"<sup>(7)</sup>، أَمَّا النَّصْبُ فَوَجْهُهُ العَطْفُ عَلَى قَوْلِهِ: "أَنْ يَأْتِي". وَأَمَّا الرَّفْعُ فَهُوَ قَائِمٌ عَلَى الاستِثْنَاءِ، وَكَأَنَّهُ

(1) انظر: ابن جنبي، المحتسب، 129/1-130.

(2) انظر: البناء، الإتحاف، 169، وعبد الفتاح القاضي، القراءات الشاذة، 27.

(3) انظر ما قيل فيها: الأزهري، معاني القراءات، 39-40، وابن خالويه، الحجة، 22، وابن غلبون، التذكرة، 72، والطبري، التلخيص، 170، والأنصاري، الإقناع، 224-225، وابن الجزري، النشر، 282/1-283.

(4) الآية (المائدة، 52-53)، وانظر: الأهوازي، رواية ابن محيصن، 6أ.

(5) انظر: الأزهري، أبو منصور محمد (370هـ)، معاني القراءات، تحقيق أحمد المزيدي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م، 142، وابن غلبون، التذكرة، 246، ومكي بن أبي طالب (437هـ)، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، تحقيق محيي الدين رمضان، ط5، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م، 411/1، والطبري، التلخيص، 250، والأنصاري، الإقناع، 394، وابن الجزري، النشر، 191/2، والبناء، الإتحاف، 254.

(6) انظر: ابن الأبرازي، رواية أبي عمرو، 106، والكرماني، أبو العلاء (563هـ)، مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ط1، تحقيق عبد الكريم مدلج، دار ابن حزم، بيروت، 2001م، 154.

(7) الآية (الكهف، 22).

جَوَابٍ لِقَائِلٍ يَقُولُ: فَمَاذَا يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ؟<sup>(1)</sup>، أَوْ عَطْفُ جُمْلَةٍ عَلَى جُمْلَةٍ، "وَالِاخْتِيَارُ الرَّفْعُ؛ إِذْ عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ، وَلِظَهْوَرِ وَجْهِهِ، وَلِتَرْكِ التَّكْلُفِ فِيهِ، كَمَا احتِيجَ إِلَى التَّكْلُفِ فِي النَّصْبِ مِنْ تَقْدِيمِ لَفْظِ مُؤَخَّرٍ"<sup>(2)</sup>.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ قِرَاءَتُهُ قَوْلَهُ -تعالى-: "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا"<sup>(3)</sup> بِإِسْقَاطِ "ثُمَّ"، وَقَدْ أَشَارَ الْأَهْوَازِيُّ وَالْبَنَاءُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ رِوَايَةُ الْبَرِّيِّ عَنِ ابْنِ مُحَيْصِنٍ<sup>(4)</sup>، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ -تعالى-: "أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا"<sup>(5)</sup> بِإِسْقَاطِ الْوَاوِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ هَمْزَةِ الْاسْتِفْهَامِ وَحَرْفِ الْجَزْمِ<sup>(6)</sup>، وَقَدْ تَقَرَّدَ ابْنُ كَثِيرٍ بَيْنَ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ بِمُؤَافَقَةِ ابْنِ مُحَيْصِنٍ هُنَا، وَلَا غَرَابَةَ فِي ذَلِكَ؛ إِذْ إِنَّهُمَا مَكْتَبَانِ، وَهِيَ كَذَلِكَ فِي مَصَاحِفِ أَهْلِ مَكَّةَ، وَقِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ بِوَاوٍ<sup>(7)</sup>.

وَقَدْ يُفْضَى بَعْضُ أَمْثَلِ هَذَا الاجْتِرَاءِ إِلَى تَشَاكُلِ الْأَسَالِبِ النَّحْوِيَّةِ الْعَرِيضَةِ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيْصِنٍ، كَأَنَّ يَتَشَاكَلُ أَسْلُوبُ الْاسْتِفْهَامِ وَالْإِخْبَارِ أَنَّ الاجْتِرَاءَ، وَمِثَالُ ذَلِكَ: "قَالُوا أَنْتَكَ لِأَنْتَ يَوْسُفُ"<sup>(8)</sup>، فَقَدْ ذَهَبَ ابْنُ مُحَيْصِنٍ إِلَى أَنَّهَا جَاءَتْ بِهَمْزَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى الْخَبَرِ، وَهَذِهِ قِرَاءَةُ ابْنِ كَثِيرٍ وَأَبِي جَعْفَرٍ، وَالْبَاقُونَ بِهَمْزَتَيْنِ عَلَى الْاسْتِفْهَامِ التَّقْرِيرِيِّ<sup>(9)</sup>.

وَمِثْلُ مَا تَقَدَّمَ قِرَاءَةُ ابْنِ مُحَيْصِنٍ قَوْلَهُ -تعالى-: "إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا"<sup>(10)</sup> بِهَمْزَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى الْخَبَرِ أَيْضًا، وَهِيَ قِرَاءَةُ نَافِعٍ، وَابْنِ كَثِيرٍ، وَخَفْصٍ، مِنْ السَّبْعَةِ، وَأَبِي جَعْفَرٍ مِنَ الْعَشْرَةِ<sup>(1)</sup>،

(1) انظر التوجيه عند ابن أبي مريم، الموضح، 443/1، وأبي حيان، البحر المحيط، 521/3، والبناء، الإتحاف، 254.

(2) انظر: مكي، الكشف، 412/1.

(3) الآية (الأنعام، 2)، وقراءة ابن محيصة: "خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ لِيَقْضِيَ أَجَلًا".

(4) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 6، والبناء، الإتحاف، 260، والقاضي، القراءات الشاذة، 44.

(5) الآية (الأنبياء، 30).

(6) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 10، والبناء، الإتحاف، 392.

(7) انظر: الأزهرى، معاني القراءات، 306، والفارسي، الحجة، 255/5، وابن غلبون، التذكرة، 366،

والطبري، التلخيص، 332، والأنصاري، الإقناع، 429، وأبو حيان، البحر المحيط، 287/6، وابن

الجزري، النشر، 243/2، والبناء، الإتحاف، 391، ومثل ذلك قراءته بإسقاط الواو من قوله -

تعالى-: "وقال موسى" (القصص، 37)، وهي قراءة ابن كثير.

(8) الآية (يوسف، 90).

(9) انظر: الكرمانى، مفاتيح الأغاني، 226، والبناء، الإتحاف، 335.

(10) الآية (الأعراف، 113).

والمعنى المتعين من هذه القراءة: إن كُنَّا غَالِبِينَ فَإِنَّ لَنَا أَجْرًا، والمُرَادُ بهذا التَّقْرِيرِ الإِلْزَامُ؛ الإِلْزَامُ فِرْعَوْنَ بِأَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ أَجْرًا، وَحِجَّةٌ مَن اسْتَقْبَهُمْ أَنَّهُ أَجْرَاهُ عَلَى مَعْنَى الاسْتِخْبَارِ؛ اسْتِخْبَارِ فِرْعَوْنَ هَلْ يَجْعَلُ لَهُمْ أَجْرًا إِنْ غَلَبُوا أَوْ لَا يَجْعَلُ، وَكِلَا الْجِهَيْنِ حَسَنٌ، وَالاسْتِخْبَارُ بِهِ أَوْلَى، وَأَحَبُّ إِلَيَّ،...، وَيَقْوَى ذَلِكَ إِجْمَاعُهُمْ عَلَى لَفْظِ الاسْتِخْبَارِ فِي الشُّعْرَاءِ فِي "أَيُّنَ لَنَا أَجْرًا"<sup>(2)</sup>.

### اجْتِزَاءٌ مِنْ بِنْيَةِ الْكَلِمَةِ:

مِنَ الْمَعَالِمِ الْغَالِبَةِ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيْصِنٍ تَسْهِيلُ الْهَمْزِ، وَهَذَا يَعْنِي، مِنْ وَجْهَةٍ صَوْتِيَّةٍ سِيَاقِيَّةٍ، أَنْ يُجْتَزَأَ مِنْ بِنْيَةِ الْكَلِمَةِ بِحَذْفِ أَحَدِ حُرُوفِهَا، وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّهُ قَرَأَ قَوْلَ الْحَقِّ -تَعَالَى-: "أُنْكِحَكَ إِحْدَى"<sup>(3)</sup>، وَقَوْلَهُ -تَعَالَى-: "فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا"<sup>(4)</sup>، بِالْوَصْلِ، وَلَعَلَّ هَيْئَةَ تِلْكَ الْقِرَاءَةَ قَائِمَةٌ عَلَى إِسْقَاطِ صَوْتِ الْهَمْزَةِ، وَالكِتَابَةُ الصَّوْتِيَّةُ تُجَلِّي ذَلِكَ:

ء-ن ك-ح-ك-ه-ء-خ ← ء-ن ك-ح-ك-ه-خ

### ثَانِيًا: الاجْتِزَاءُ الْمُقَدَّرُ

وَالْمَقْصِدُ الْمُتَعَيَّنُ مِنْهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقَارِئُ عَلَى نَحْوِ مَا مُلْتَمَسًا تَأْوِيلًا عِمَادُهُ تَقْدِيرُ مَحْذُوفٍ يُفَسِّرُ بِهِ قِرَاءَتَهُ إِنْ رَفَعًا، وَإِنْ نَصَبًا، وَإِنْ جَرًّا، فَحَرَكَاتُ الإِعْرَابِ قَدْ تَتَبَّأَيْنُ بَيْنَ الْقِرَاءَاتِ فِي مَوَاضِعَ وَفَقًا لِتَبَايُنِ الْوُجُوهِ النَّحْوِيَّةِ، وَبِوَاغَتْ ذَلِكَ مُتَبَايِنَةٌ قَدْ يُرَدُّ بَعْضُهَا إِلَى مَا الْبَحْثُ خَائِضٌ فِيهِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: "هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ"<sup>(5)</sup>، فَقَدْ قَرَأَهَا ابْنُ مُحَيْصِنٍ بِالنَّصْبِ، وَتَابَعَهُ عَلَى ذَلِكَ نَافِعٌ وَحَدَهُ<sup>(6)</sup>، وَقَدْ قَرَأَهَا الْبَاقُونَ، كَأَبِي عَمْرٍو، وَعَاصِمٌ، بِالرَّفْعِ مُلْتَمَسِينَ تَأْوِيلًا آخَرَ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ قِرَاءَةَ ابْنِ مُحَيْصِنٍ قَائِمَةٌ عَلَى اسْتِشْرَافِ مُقَدَّرٍ مَحْذُوفٍ أَفْضَى إِلَى نَصْبِ "يَوْمٌ"، وَالْأَمْرُ بِالصَّدِّ عِنْدَ مَنْ رَفَعَ، فَالْتَّصِبُ عَلَى الظَّرْفِ لِلْقَوْلِ فِي التَّقْدِيرِ: "قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى-

(1) انظر: الأزهرى، معاني القراءات، 186، ومكي، الكشف، 472/1، والطبري، التلخيص، 267،

والبنا، الإتحاف، 287.

(2) انظر: مكي، الكشف، 473/1، والآية (الشعراء، 41).

(3) الآية (القصص، 27).

(4) الآية (القصص، 25).

(5) الآية (المائدة، 119).

(6) انظر: الأزهرى، معاني القراءات، 148، وابن غلبون، التذكرة، 249، ومكي، الكشف، 424/1،

والأنصاري، الإقناع، 395، والبنا، الإتحاف، 258.

هذا القول يوم...<sup>(1)</sup>، أما على الرفع فلا محذوف ولا تقدير، بل ثم مبتدأ وخبره "يوم"، و"هذا" إشارة إلى يوم القيامة، وهو اليوم الذي ينفع الصادقين صدقهم<sup>(2)</sup>.

ومن مثل ما تقدم قوله -تعالى-: "ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو"<sup>(3)</sup>، ووجه نصب كلمة "العفو" في قراءة ابن محيصن أن ثم محذوفاً مقدراً عمل في كلمة "العفو"، فوجب أن يكون الجواب منصوباً؛ إذ إن النصب على عدّ "ماذا" اسماً للاستيفهام منصوباً بـ"ينفقون"<sup>(4)</sup>، أما في قراءة من رفع فعلى اعتبار "ماذا" مؤتلفة من اسمين: الأول "ما"، وهو مبتدأ، والثاني "ذا" وهو الخبر، ووجه رفع "العفو" على أنها خبر مبتدأ محذوف تقديره: الذي ينفقونه العفو<sup>(5)</sup>.

والمقابلة اللطيفة في هذه المباحث أن ابن محيصن كان يقرأ في مواضع مخصوصة على نحو يلتبس فيه اجتزاءً مقدراً، وقد تقدمت أمثلة تنبّه على هذا الملحظ آنفاً، ولكنه في موضع آخر كان يقرأ دون أن يكون تقدير لمجتزأ أو محذوف، فتكون المسألة بالصدّ، ومن ذلك قول الله -تعالى-: "ولسليمان الريح"<sup>(6)</sup>، برفع "الريح" على أنها مبتدأ خبره متعلق بشبه الجملة، وقد وافق في قراءته هذه رواية شعبة عن عاصم، وقد عرج على القراءتين؛ قراءة الرفع، وقراءة

(1) انظر تفسير نصب كلمة "يوم" عند الأزهرى، معاني القراءات، 148، ومكي، الكشف، 424/1،  
والعكبري، التبيان، 477/1.

(2) انظر ما قيل فيها: الفارسي، الحجة، 283/3، ومكي، الكشف، 424/1، وابن أبي مريم، الموضح،  
457/1، والكرمانى، مفاتيح الأغاني، 157، والبناء، الإتحاف، 285، ومحمد محيسن، المغني في  
توجيه القراءات العشر المتواترة، دار الجيل، ط2، بيروت، 1988م، 34/2، وثم آراء أخرى عند  
أبي حيان في البحر المحيط، 67/4.

(3) الآية (البقرة، 219).

(4) انظر: الفراء، معاني القرآن، 141/1.

(5) انظر ما قيل فيها: ابن خالويه، الحجة، 43، والأزهرى، معاني القراءات، 75، والنحاس، إعراب  
القرآن، 309/1، وابن الأنباري، البيان، 141/1، وابن غلبون، التذكرة، 204، والعكبري، التبيان،  
176/1، والكرمانى، مفاتيح الأغاني، 114، وأبو حيان، البحر المحيط، 168/2، والبناء،  
الإتحاف، 203.

(6) الآية (سبأ، 12).

النَّصْبِ، الْأَزْهَرِيُّ، فَأَشَارَ إِلَى أَنَّهُ إِنَّمَا "سَمَّحَ الرَّفْعُ لِمَا تَضَمَّنَ فِيهِ مِنَ التَّسْخِيرِ"<sup>(1)</sup>، وَالْباقُونَ بِالنَّصْبِ<sup>(2)</sup>؛ إِذْ إِنَّهَا مَنْصُوبَةٌ بِفِعْلِ مَحذُوفٍ تَقْدِيرُهُ "سَخَّرْنَا"<sup>(3)</sup>.

وَقَدْ كَانَ لِمَكِّي تَفْسِيرٌ يَنْقُضُ وُجْهَةَ الْأَزْهَرِيِّ، فَقَدْ أَلْمَحَ إِلَى أَنَّ بَعْضَهُمْ قَرَأَ بِالرَّفْعِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَالْمَجْرُورَ قَبْلَهُ هُوَ الْخَبْرُ، "وَحَسَنَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الرِّيحَ لَمَّا سُخِّرَتْ لَهُ صَارَتْ كَأَنَّهَا فِي قَبْضَتِهِ؛ إِذْ عَنِ أَمْرِهِ تَسِيرُ، فَأَخْبَرَ عَنْهَا أَنَّهَا فِي مَلِكِهِ؛ إِذْ هُوَ الْمَالِكُ أَمْرَهَا فِي سَيْرِهَا بِهِ،... وَالنَّصْبُ هُوَ الْإِخْتِيَارُ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى عَلَيْهِ"<sup>(4)</sup>.

وَلَيْسَ يَذْهَبُ بِالْقَارِي الطَّنُّ إِلَى أَنَّ ظَاهِرَةَ الْاجْتِزَاءِ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيْصِنٍ مَلْحَظٌ مُطَرِّدٌ يَكَادُ يَكُونُ سَائِرًا غَالِبًا فِيهَا، وَلَكِنَّهُ مَلْحَظٌ يَجِبُ التَّنْبِيهُ إِلَيْهِ وَفَاءً بِتَوْصِيفِ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ، وَاسْتِكْمَالًا لِاسْتِشْرَافِ الظَّوَاهِرِ النَّحْوِيَّةِ فِيهَا، وَقَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ بِالصَّدِّ، فَفِي مَوَاضِعَ شَرِيفَةٍ مَخْصُوصَةٍ يَتَجَلَّى أَنَّ قِرَاءَتَهُ قَائِمَةٌ عَلَى الزِّيَادَةِ لَا الْاجْتِزَاءِ، وَإِذَا كَانَتْ قِرَاءَةُ ابْنِ مُحَيْصِنٍ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى- الْمُنْتَقِمِ: "سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ"، قَائِمَةٌ عَلَى الْاجْتِزَاءِ؛ اجْتِزَاءِ الْهَمْزَةِ، فَإِنَّهَا فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: "أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ"<sup>(5)</sup> قَائِمَةٌ عَلَى زِيَادَتِهَا، لِيُصْبِحَ ثَمَّ هَمْزَتَانِ مَفْتُوحَتَانِ مُتَجَاوِرَتَانِ، وَبِهَذَا تَغْدُو هَاتَانِ الْهَمْزَتَانِ أَلْفَ مَدٍّ طَوِيلَةً فِي ثِنْتِي الْقِرَاءَةِ، أَيُّ: "أَنْ يُؤْتَى"، وَالْمَعْنَى الْاسْتِفْهَامُ.

وَاللَّاقِئُ لِلخَاطِرِ أَنَّ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ تُوَافِقُ قِرَاءَةً صَحِيحَةً مِنَ الْقِرَاءَاتِ السَّبْعِ، فَقَدْ تَفَرَّدَ ابْنُ كَثِيرٍ بِالْمَدِّ عَلَى الْاسْتِفْهَامِ، وَلَمْ يَمُدَّ الْآخَرُونَ<sup>(6)</sup>. أَمَّا وَجْهُ قِرَاءَةِ الْمَكِّيِّينَ؛ ابْنِ مُحَيْصِنٍ وَابْنِ

(1) انظر: الأزهرى، معاني القراءات، 390.

(2) انظر: الأزهرى، معاني القراءات، 390، وابن غلبون، التنكرة، 423، ومكي، الكشف، 203/2، والطبري، التلخيص، 373، والأنصاري، الإقناع، 447، وابن الجزري، النشر، 262/2، والبناء، الإتحاف، 458.

(3) انظر: الأزهرى، معاني القراءات، 390، والنحاس، إعراب القرآن، 335/3، وابن الأبرازي، رواية أبي عمرو، 167، والكرمانى، مفاتيح الأغاني، 336، وأبو حيان، البحر المحيط، 253/7، والأهوازي، مفردة الحسن البصري، 61.

(4) انظر: مكي، الكشف، 203/2.

(5) الآية (آل عمران، 73).

(6) انظر: الأزهرى، معاني القراءات، 104، وابن خالويه، الحجة، 53، وابن غلبون، التنكرة، 221، ومكي، الإبانة، 348/1، والطبري، التلخيص، 234، والأنصاري، الإقناع، 388، وابن الجزري، النشر، 181/2، والبناء، الإتحاف، 225.

كثير، وهو المدد، فهو إدخال همزة الاستفهام على "أن" ليؤكد الإنكار الذي قالوه، فهو استفهام معناه الإنكار؛ إذ إن أحبار اليهود قالوا لشيعتهم ودويهم: أيؤتى أحد مثل ما أوتيتم؟ والمعنى: لا يؤتى أحد...

أما حجة من لم يمد، فهي مجيئها على الخبر، ومن لم يمد لم يجز له أن يبتدىء به؛ لأن الكلام متواصل غير متفصل، فالمصدر "أن يؤتى" مفعول قوله "ولا تؤمنوا". أما من مد فقد جاز له أن يبتدىء به؛ ذلك أن قوله "أن يؤتى أحد" في موضع رفع بالابتداء، وخبره محذوف تقديره: أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم تصدقونه<sup>(1)</sup>.

ومن أمثلة هذا الملحظ في قراءته قوله -تعالى-: "وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار"<sup>(2)</sup> زيادة حرف الجر "من" فيها<sup>(3)</sup>، واللافت للخاطر ثانية وثالثة أن هذه القراءة الموسومة بالشاذة وافقت قراءة ابن كثير الذي تفرد بين القراء بإضافة "من" في هذا السياق الشريف، وهي كذلك في المصاحف المكية، وباقي السبعة بإسقاطها على ما رسم في مصاحفهم<sup>(4)</sup>.

والظاهر أن اجتزاء "من" يفضي بها إلى أن تكون ظرفاً: تجري تحتها، وأن زيادتها تؤذن بعدها اسماً مجروراً: تجري من تحتها، والمعنى -كما يلمسه ابن الجزري استشفافاً- أن الماء ينبع من تحت أشجارها لا أنه يأتي من موضع وتجري من تحت هذه الأشجار، وأما في سائر القرآن فالمعنى أنها تأتي من موضع وتجري تحت هذه الأشجار، والله أعلى وأعلم<sup>(5)</sup>.

## ثانياً: التعلق

(1) في إعراب المصدر المؤول "أن يؤتى" وجوه متعددة، انظر ما قيل فيها: ابن جني، المحتسب، 260/1، ومكي، الإبانة، 438/1، والزمخشري، الكشاف، 437/1، والأنباري، البيان، 184/1، وأبو حيان، البحر المحيط، 518/5-521.

(2) الآية (التوبة، 100).

(3) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 7، والبناء، الإتحاف، 306.

(4) انظر: الأزهرى، معاني القراءات، 214، وابن غلبون، التنكرة، 289، ومكي، الإبانة، 505/1، والطبري، التلخيص، 279، والأنصاري، الإقناع، 407، والكرمانى، مفاتيح الأغاني، 200، وأبو حيان، البحر المحيط، 96/5، وابن الجزري، النشر، 211/2، والبناء، الإتحاف، 306.

(5) انظر: ابن الجزري، النشر، 211/2.

وَقَدْ يَحْدُثُ أَنْ تَتَدَاخَلَ الْعَلَاقَاتُ السِّيَاقِيَّةُ التَّرَكِيبِيَّةُ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ، فَيُفْضِي هَذَا إِلَى تَعَدُّدِ وُجُوهِ التَّلَقُّقِ وَرَبِطِ الْكَلِمِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَلِهَذَا التَّعَدُّدِ مَوَاضِعُ مُعَيَّنَةٌ، وَمِنْ ذَلِكَ:

- اشْتِبَاهُ تَلَقُّقِ الْأَسْمِ الْمَوْصُولِ بِمَرْجَعِينَ مُتَقَدِّمِينَ.
- وَالصَّفَةِ بِمَوْصُوفِينَ.
- وَالْحَالِ بِصَاحِبِينَ.
- وَاشْتِبَاهُ تَعْيِينِ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ، وَالتَّوَكِيدِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَمِنْ أَمْثَلِهِ مَا وَقَعَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيْصِنٍ مِنْ نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ:

#### تَرَدُّدٌ فِي الْمَوْصُوفِ:

وَمِنْ مِثْلِ ذَلِكَ قَوْلُهُ -تعالى-: "هَذَاكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ"<sup>(1)</sup>، وَالظَّاهِرُ لِلْخَاطِرِ الْأَوَّلِ أَنْ تَمَّ تَدَاخُلًا بَاعْتُهُ تَعَالُقُ الْكَلِمِ فِي سِيَاقِهِ الشَّرِيفِ، فَكَلِمَةُ "الْحَقِّ" صَالِحَةٌ لِأَنَّ تَكُونَ صِفَةً لِلَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَلِلْوَلَايَةِ كَذَلِكَ، وَقَدْ جَاءَتْ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيْصِنٍ تَابِعَةً لِلْحَقِّ مَكْسُورَةً<sup>(2)</sup>، وَقَدْ جُعِلَتْ "الْحَقِّ" صِفَةً لِلْجَلَالَةِ الشَّرِيفَةِ، وَهِيَ مَصْدَرٌ وَصِفَ بِهِ كَمَا وَصِفَ بِالْعَدْلِ وَبِالسَّلَامِ، وَيُقَوِّي ذَلِكَ قَوْلُهُ -تعالى- فِي سِيَاقٍ آخَرَ شَرِيفٍ: "وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ..."، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ الشَّرِيفُ: "تَمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ"<sup>(3)</sup>، وَقَرَأَهَا أَبُو عَمْرٍو وَالْكَسَائِيُّ مَرْفُوعَةً عَلَى أَنَّهَا تَابِعَةٌ لِلْوَلَايَةِ<sup>(4)</sup>، وَالِاخْتِيَارُ عِنْدَ مَكِّيِّ الْخَفْضُ؛ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ عَلَيْهِ<sup>(5)</sup>.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ تَلَقُّقِ الصَّفَةِ بِغَيْرِ مَوْصُوفٍ قِرَاءَةُ ابْنِ مُحَيْصِنٍ قَوْلَهُ -تعالى-: "لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزٍ أَلِيمٍ"<sup>(6)</sup> بِرَفْعِهِ الْمِيمِ فِي الْمَوْضِعِينَ: "سَبَأً"، وَ"الْجَائِثِيَّةَ"، عَلَى أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ

(1) الآية (الكهف، 44).

(2) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 19.

(3) الآيتان (النور، 25، والأنعام، 62)، وانظر ما قاله: مكي، الكشف، 63/2، والكرماني، مفاتيح الأغاني، 258.

(4) انظر: الأزهري، معاني القراءات، 268، وابن غلبون، التذكرة، 343، والطبري، التلخيص، 317، والأنصاري، الإقناع، 422، وابن الجزري، النشر، 233/2، والبناء، الإتحاف، 367.

(5) انظر: مكي، الكشف، 63/2.

(6) الآية (سبأ، 5 والجاثية، 11).



بـ"عذاب" (1)، وَقَدْ وافقت قراءته هذه قراءة ابن كثير وحفص من السبعة، ويعقوب من العشرة (2).

### وَكذلك تَرَدُّدٌ في المُستثنى مِنْهُ:

وذلك في قوله -تعالى-: "لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر" (3)، وموضع المباحثة هنا "غير"؛ ذلك أنها تصلح لأن تكون متعلقة بغير مرجع تقدمها، وقد قرأها ابن محيصن منصوبة على الاستثناء من القاعدين، أو المؤمنين، أو الحال، وهي قراءة نافع، وابن عامر، والكسائي (4)، وقرأها آخرون مستشرقين تعلقاً آخر بالرفع، ذاهبين إلى أنها صفة للقاعدين، والمعنى: لا يستوي القاعدون الذين هم غير أولي الضرر (5).

### وَكذلك تَرَدُّدٌ بَيْنَ التَّأكِيدِ وَالخَبْرِ:

وذلك في قوله -تعالى-: "إن الأمر كله لله" (6)، وقد يحدث أن تتردد الكلمة بين معنيين نحويين لاحتمال تعلقها بما تقدمها، ومن ذلك قراءة ابن محيصن "كله" في الآية الكريمة المتقدم بيأنها منصوبة اللام، وهي بهذا متعلقة باسم "إن" المنصوب، وهي قراءة توافق الجمهور، وقد قرأها أبو عمرو ويعقوب بالرفع على الابتداء، و"حسن أن يكون كل ابتداء، وهي مما يؤكد بها، لأنها أدخل في الأسماء منها في التأكيد؛ إذ تقع فاعلة، ومفعولة، ومجرورة" (7).

### وَكذلك تَرَدُّدٌ في المَعطوفِ عَلَيْهِ:

(1) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصن، 11ب، وأبو حيان، البحر المحيط، 249/7، والبناء، الإتحاف، 457.

(2) انظر: الأزهري، معاني القراءات، 389، وابن غلبون، التنكرة، 422، ومكي، الكشف، 201/2، والأنصاري، الإقناع، 447، والطبري، التلخيص، 373، وابن الجزري، النشر، 262/2.

(3) الآية (النساء، 95).

(4) انظر: الأزهري، معاني القراءات، 132، ومكي، الكشف، 396/1.

(5) انظر وجوه إعرابها: النحاس، إعراب القرآن، 483/1، وابن الأنباري، البيان، 229/1، والكرمانلي، مفاتيح الأغاني، 147-148، والعكبري، التبيان، 383/1، وأبو حيان، البحر المحيط، 345/3.

(6) الآية (آل عمران، 154).

(7) انظر: مكي، الكشف، 361/1، وانظر: الأزهري، معاني القراءات، 111، وابن خالويه، الحجة، 56، وأبو حيان، البحر المحيط، 95/3، والبناء، الإتحاف، 230.

فَقَدْ قَرَأَ قَوْلَهُ -تعالى-: "يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ"<sup>(1)</sup>، وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي تَعْلُقِ النَّصْفِ وَالثُّلُثِ، أَتَتَعَلَّقُ بِثُلُثِي اللَّيْلِ أَمْ بِالْقِيَامِ، وَقَدْ كَانَتْ قِرَاءَةُ ابْنِ مُحَيْصِنٍ بِنِصْبِ الْفَاءِ وَالثَّاءِ عَلَى مَعْنَى تَعَلُّقِهِمَا بـ"أدنى"<sup>(2)</sup>، وَهَذِهِ قِرَاءَةُ ابْنِ كَثِيرٍ، وَعَاصِمٍ، وَحَمْرَةَ، وَالْكَسَائِيِّ مِنَ السَّبْعَةِ<sup>(3)</sup>، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ الْمَعْنَى عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِنَ التَّعَلُّقِ هُوَ الْعَطْفُ عَلَى "أدنى" الَّذِي هُوَ مَنْصُوبٌ، وَالتَّقْدِيرُ: وَتَقُومُ نِصْفَهُ وَثُلُثَهُ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالْخَفْضِ مَلْتَمِسِينَ وَجْهًا آخَرَ لِتَعَلُّقِ "أدنى" فِي سِيَاقِهَا الشَّرِيفِ، وَهُوَ الْعَطْفُ عَلَى "ثُلُثِي اللَّيْلِ"، وَالْمَعْنَى: "وَأَدْنَى مِنْ نِصْفِهِ وَأَدْنَى مِنْ ثُلُثِهِ"، وَالْوَجْهَانِ مُتَقَبَّلَانِ صَالِحَانِ<sup>(4)</sup>، وَقَدْ اخْتَارَ الْفَرَّاءُ النَّصْبَ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْمَعْنَى عَلَيْهِ أَوْلَى، وَبِهِ الْيَقِينُ، وَكَذَلِكَ الْحَالُ عِنْدَ مَكِّيٍّ، فَالْنَّصْبُ أَقْوَى وَآكُذُ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْفَرَضَ كَانَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قِيَامَ ثُلُثِ اللَّيْلِ<sup>(5)</sup>.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ تَعَلُّقٍ بِاعْتِنَاءِ الْعَطْفِ قِرَاءَةُ ابْنِ مُحَيْصِنٍ قَوْلَهُ -تعالى-: "فَأَصْدَقَ وَأَكْنَ"<sup>(6)</sup>: "وَأَكُونَ"<sup>(7)</sup>، وَفِي قِرَاءَتِي الْحَسَنِ وَالْيَزِيدِيِّ الشَّاذَّيْنِ قُرِئَتْ عَلَى هَذَا النَّحْوِ الْمُتَقَدِّمِ، وَالْمُفَارَقَةُ الْمُعْجِبَةُ أَنَّ أَبَا عَمْرٍو قَدْ تَفَرَّدَ بَيْنَ الْقُرَّاءِ فِي هَذَا الْحَرْفِ؛ إِذْ قَرَأَهُ بِالْوَاوِ مَنْصُوبًا كَمَا وَرَدَ فِي الْقِرَاءَاتِ الثَّلَاثِ الْمَذْكُورَةِ آتِفًا<sup>(8)</sup>.

وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ حُجَّةَ مَنْ نَصَبَ أَنَّهُ اسْتَشْرَفَ تَعَلُّقًا ظَاهِرًا بَيْنَ الْفِعْلَيْنِ "أَصْدَقَ" وَ"أَكُونَ"، فَجَنَحَ إِلَى الْعَطْفِ؛ ذَلِكَ أَنَّ "أَصْدَقَ" مَنْصُوبٌ بِإِضْمَارِ "أَنْ"؛ لِأَنَّهُ جَوَابُ التَّمَنِّيِّ،

(1) الآية (المزمل، 20).

(2) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 15، والبناء، الإتحاف، 561.

(3) انظر: مكِّي، الكشف، 345/2، وابن غلبون، التنكرة، 520، والبناء، الإتحاف، 561.

(4) انظر ما قيل فيها: الأزهري، معاني القراءات، 512، والنحاس، إعراب القرآن، 62/5، والأنباري،

البيان، 395، والكرمانبي، مفاتيح الأغاني، 415، والعكبري، إعراب القرآن، 1249/2، وأبو حيان،

البحر المحيط، 354/8.

(5) انظر: الفرَّاء، معاني القرآن، 199/3، ومكِّي، الكشف، 345/2.

(6) الآية (المنافقون، 10).

(7) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 14ب، والبناء، الإتحاف، 543، وقد أشار الأهوازي إلى أنها

في قراءة ابن محيصة برواية البزي بغير واو.

(8) انظر: الأبرازي، رواية أبي عمرو، 196، والأزهري، معاني القراءات، 49، ومكِّي، الكشف، 322/2،

والبناء، الإتحاف، 543.

وَحُجَّةٌ مَنْ جَزَمَ، وَهِيَ قِرَاءَةُ الْبَاقِينَ، أَنَّهُ عَطَفَهُ عَلَى مَوْضِعِ "فَأَصْدَقَ"؛ ذَلِكَ أَنَّ مَوْضِعَهُ، قَبْلَ دُخُولِ الْفَاءِ فِيهِ، جَزَمَ عَلَى جَوَابِ التَّمَنِّيِّ<sup>(1)</sup>.

- وَمِمَّا يَقْتَرِبُ مِنَ الْمُبَاحَثَةِ الْخَائِضَةِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: "كُنْ فَيَكُونُ"، وَقَدْ وَرَدَ الْحَرْفُ ثَمَانِي مَرَاتٍ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ فِي الْآيَاتِ التَّالِيَةِ:
- 1- "وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"<sup>(2)</sup>.
  - 2- "إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"<sup>(3)</sup>.
  - 3- "خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"<sup>(4)</sup>.
  - 4- "وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ"<sup>(5)</sup>.
  - 5- "إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"<sup>(6)</sup>.
  - 6- "إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"<sup>(7)</sup>.
  - 7- "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"<sup>(8)</sup>.
  - 8- "فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"<sup>(9)</sup>.

وَقَدْ جَنَحَ ابْنُ مُحَيِّصِنٍ إِلَى نَسْبِ "فَيَكُونُ" مَرَّتَيْنِ فَقَطْ، فِي "النَّحْلِ" و"يَاسِينِ"<sup>(10)</sup>، وَقَدْ ذَكَرَ صَاحِبُ "الْإِتْحَافِ" أَنَّ ابْنَ مُحَيِّصِنٍ وَافَقَ ابْنَ عَامِرٍ وَالْكَسَائِيَّ بِالنَّسْبِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ مَوْضِعُ "يَاسِينِ"، وَالْحَقُّ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ كَذَلِكَ، فَقَدْ وَافَقَهُمَا فِي الْمَوْضِعَيْنِ، وَيَشْهَدُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ الْأَهْوَازِيِّ فِي رِوَايَةِ ابْنِ مُحَيِّصِنٍ: "بِنَسْبِ النَّوْنِ هَهُنَا وَفِي "يَاسِينِ" فَقَطْ"<sup>(11)</sup>، وَالظَّاهِرُ أَنَّ تَرَدُّدَ "يَكُونُ" بَيْنَ الصَّمِّ وَالْفَتْحِ مِنْ مَوَاضِعِ اخْتِلَافِ الْقُرْآنِ، وَقَدْ أَجْمَعُوا عَلَى رَفْعِهَا فِي مَوْضِعَيْنِ

(1) انظر ما قيل فيها: الأزهرى، معاني القراءات، 492، والنحاس، إعراب القرآن، 437/4، ومكي،

الكشف، 323/2، وابن الأثير، البيان، 368/2، والعكبري، التبيان، 1225/2.

(2) الآية (البقرة، 117).

(3) الآية (آل عمران، 47).

(4) الآية (آل عمران، 59).

(5) الآية (الأنعام، 73).

(6) الآية (النحل، 40).

(7) الآية (مريم، 35).

(8) الآية (ياسين، 82).

(9) الآية (غافر، 68).

(10) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 8ب.

(11) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 8ب.

اثنتين، وهما "آل عمران 47" و"الأنعام 73"<sup>(1)</sup>، أما السنّة الأخرى فقد اختلف فيها، والأكثرُونَ على الضّمّ<sup>(2)</sup>.

والظاهر أن مرّد تردّد القراء في هذه الوجوه الإعرابية إلى التعلّق، فحجّة من نصب جعل "يكون" متعلّقاً بـ"كن"؛ ذلك أنه جعله جواباً بالفاء للفظ "كن"، وهذا إذا كان لفظه لفظ الأمر، وإن كان معناه غير معنى الأمر، فالتقدير ضعيف، لأن "كن" في معناه الكليّ ليس بأمر، ومن رفع فحجّته أنه جعل "فيكون" منقطعاً عما قبله مستأنفاً، ولما امتنع أن يكون جواباً في المعنى رُفع على الابتداء، فالتقدير على هذا المحمل: فهو يكون، وهو وجه الكلام والاختيار، وعليه جماعة القراء، وبه يتمّ المعنى<sup>(3)</sup>.

وأما اختصاص ابن محيصن بالنصب في الموضعين المتقدمين فهو اختصاص الكسائي أيضاً، وهو حسن قوي؛ لأن فيه: "أن يقول"، فعطف "يكون" على "يقول"، ثم نصب "فيكون" على الجواب، إنما نصبه على العطف على "يقول"، وكذلك في آخر "ياسين"، ففيه "أن يقول"، فعطفه على "يقول"، وهو حسن، لكنّ الرفع عليه الجماعة، وهو على الاستئناف والقطع والابتداء كالأول<sup>(4)</sup>.

### ثالثاً: تعاوُر حُرُوفِ المعاني

ولابن محيصن اختيارات في قراءته مضمائرها حُرُوفِ المعاني، كأن يُنزل حرفاً مكان آخر، أو يُعَمِلَ حرفاً ما عملاً غير الذي عمّله الحرف نفسه في قراءة آخر، ولذلك كله توجيهات وبواعث، فقد يوسم هذا -أعني تعاوُر حُرُوفِ المعاني- بأنه تعاوُر للمعاني والمباني، أو تعاوُر للمعاني دون المباني، أو تعاوُر للمباني دون المعاني. لنرجع النظر في قول يفصل هذا المُجْمَل:

### أولاً: تعاوُرِ المعاني والمباني

(1) انظر: البناء، الإتحاف، 190.

(2) انظر: ابن غلبون، التذكرة، 193، ومكي، الكشف، 260/1، وقد أشارا إلى أن ابن عامر نصب

النون في "البقرة"، و"آل عمران"، و"النحل"، و"مريم"، و"ياسين"، و"الطور"، وقد وافقه الكسائي في

النصب الذي هو في "النحل" و"ياسين".

(3) انظر: مكي، الكشف، 261/1.

(4) انظر: مكي، الكشف، 261/1.

قَرَأَ ابْنُ مُحَيِّصٍ قَوْلَهُ -تعالى-: "أَوَامِنَ أَهْلِ الْقُرَى" (1) بِإِسْكَانِ الْوَاوِ فِي "أَوْ" (2)، وَبِذَلِكَ يَتَّبِأَيْنُ الْمَعْنَى تَبَايُنًا تَامًا لِتَبَايُنِ الْحَرْفَيْنِ، وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيِّصٍ أَنَّهَا وَأَفْقَتْ قِرَاءَةَ نَافِعٍ، وَابْنِ كَثِيرٍ، وَابْنِ عَامِرٍ مِنَ السَّبْعَةِ، وَأَبِي جَعْفَرٍ مِنَ الْعَشْرَةِ، وَقَدْ قَرَأَ الْبَاقُونَ بِفَتْحِ الْوَاوِ (3).

أَمَّا قِرَاءَةُ ابْنِ مُحَيِّصٍ، وَهِيَ الْإِسْكَانُ، فَقَدْ كَانَتْ قَائِمَةً عَلَى كَوْنِ "أَوْ" الَّتِي لِلْعَطْفِ، عَلَى مَعْنَى الْإِبَاحَةِ، كَقَوْلِهِ -تعالى-: "وَلَا تُطْعُ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا" (4)، أَيْ لَا تُطْعُ هَذَا الْجِنْسَ، وَالْمَعْنَى: أَقَامِنَا هَذِهِ الصَّرُوبَ مِنَ الْعُقُوبَاتِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِأَحَدِ الشَّيْئَيْنِ (5)، وَقَدْ جَنَحَ أَبُو حَيَّانٍ إِلَى عَدِّهَا لِلتَّنْوِيعِ لَا لِلإِبَاحَةِ وَالتَّخْيِيرِ (6). وَحُجَّةٌ مَنْ فَتَحَ الْوَاوَ أَنَّهُ جَعَلَهَا وَاؤًا لِلْعَطْفِ الَّتِي دَخَلَتْ عَلَيْهَا أَلْفُ الْاسْتِفْهَامِ (7).

لَعَلَّهُ يَظْهَرُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ نَمَّ مَعْنِيَيْنِ نَحْوِيَيْنِ عَرِيضِيَيْنِ: مَعْنَى يَتَجَلَّى فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيِّصٍ بَاعْتِهَ عَدُّ "أَوْ" عَاطِفَةً، وَمَعْنَى آخَرَ يَتَجَلَّى مِنْ جَعَلِ "أَوْ" كَلِمَتَيْنِ: أَوْلَاهُمَا تُقِيدُ الْاسْتِفْهَامَ، وَثَانِيَهُمَا تُقِيدُ الْعَطْفَ (8).

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيِّصٍ الَّتِي تَتَعَاوَرُ فِيهَا حُرُوفُ الْمَعَانِي: "قَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ" (9)، فَقَدْ قَرَأَ كَلِمَةَ "لَا" بِغَيْرِ أَلْفٍ (10)، وَتَابَعَهُ عَلَى ذَلِكَ ابْنُ قُتَيْبَةَ وَالْجَحْدَرِيُّ (11)، وَالْعَامَّةُ عَلَى أَنَّهَا بِأَلْفٍ، وَفِي هَاتَيْنِ الْقِرَاءَتَيْنِ تَتَعَاوَرُ "لَا" النَّافِيَةُ مَعَ لَامِ الْقَسَمِ،

(1) الآية (الأعراف، 98).

(2) انظر: الأهوازي، رواية ابن محييصن، 7، والبناء، الإتحاف، 286.

(3) انظر: الأزهري، معاني القراءات، 184، وابن غلبون، التذكرة، 272، والأنصاري، الإقناع، 402، ومكي، الكشف، 468/1، وابن الجزري، النشر، 203/2، والبناء، الإتحاف، 286.

(4) الآية (الإنسان، 24).

(5) انظر معانيها عند مكي، الكشف، 468/1.

(6) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 351/4.

(7) انظر في هذا كله: الأزهري، معاني القراءات، 184، والكرمانلي، مفاتيح الأغاني، 180.

(8) انظر ما قيل فيها: ابن أبي مريم، الموضح، 542/2، والبناء، الإتحاف، 286.

(9) الآية (المعارج، 40).

(10) انظر: الأهوازي، رواية ابن محييصن، 14ب.

(11) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 330/8.

فَيَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِمَخْلُوقَاتِهِ عَلَى إِجَابِ قُدْرَتِهِ<sup>(1)</sup>. أَمَا فِي سُورَةِ "الْبَلَد" فِي قَوْلِهِ - تعالى -: "لَا أَقْسَمُ بِهَذَا الْبَلَدِ"<sup>(2)</sup> فَقَدْ قَرَأَهَا بِإِثْبَاتِ الْأَلْفِ عَلَى أَنَّهَا "لَا" النَّافِيَةُ<sup>(3)</sup>، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقِرَاءَةَ سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ.

### ثَانِيًا: تَعَاوُرُ الْمَعَانِي دُونَ الْمَبَانِي

وَقَدْ يَحْدُثُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانٌ عَنِ هَذَا قَبْلًا، أَلَّا يَكُونُ تَمَّ تَعَاوُرٌ بَيْنَ الْحُرُوفِ فِي الْمَبَانِي، بَلْ فِي مَعَانِيهَا؛ ذَلِكَ أَنَّ حُرُوفَ الْمَعَانِي كَالْمَشْتَرِكِ اللَّفْظِيِّ الَّذِي يَقَعُ تَحْتَهُ مَعْنِيَانِ أَوْ أَكْثَرُ، فَالْبَاءُ تُفِيدُ مَعَانِي مُتْبَايِنَةً، وَمِثَالُ ذَلِكَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيْصِنٍ قَوْلَهُ -تعالى -: "لَا تُضَارُّ وَالِدَةً"، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ -تعالى -: "وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ"<sup>(4)</sup>، فَقَدْ قَرَأَهَا بِضَمِّ الرَّاءِ "لَا تُضَارُّ"<sup>(5)</sup>، وَهِيَ قِرَاءَةٌ ابْنِ كَثِيرٍ وَأَبِي عَمْرٍو مِنَ السَّبْعَةِ، وَيَعْقُوبُ مِنَ الْعَشْرَةِ، وَالْيَزِيدِيُّ مِنَ الْأَرْبَعَةِ<sup>(6)</sup>.

أَمَا عَلَى فَتْحِ الرَّاءِ فَعَلَى اعْتِبَارِ الْفِعْلِ مَجْزُومًا بِلَا النَّاهِيَةِ، وَأَمَا ضَمُّ الرَّاءِ فَعَلَى اعْتِبَارِ "لَا" نَافِيَةً، وَالْفِعْلُ مُضَارِعٌ مَرْفُوعٌ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِ نَاصِبٌ وَلَا جَازِمٌ، وَيَسْنَدُ هَذَا مَا قَبْلَهَا مِنْ قَوْلِهِ الْحَقِّ: "لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا" لِاشْتِرَاكِ الْجُمْلَتَيْنِ فِي الرَّفْعِ<sup>(7)</sup>، وَقَدْ قَالَ عَنْهَا ابْنُ مُجَاهِدٍ: "لَا أُدْرِي مَا هِيَ"، وَهَذَا الَّذِي أَنْكَرَهُ ابْنُ مُجَاهِدٍ مَعْرُوفٌ، "وَذَلِكَ عَلَى أَنْ تُجْعَلَ "لَا" نَفِيًّا، ...، وَإِنْ شِئْتَ كَانَ لَفْظُ الْخَبْرِ عَلَى مَعْنَى النَّهْيِ حَتَّى كَانَتْهُ قَالَ: "وَلَا يُضَارُّرُ، كَقَوْلِهِمْ فِي الدَّعَاءِ: يَرْحَمُهُ اللَّهُ، أَي: لِيَرْحَمَهُ اللَّهُ، وَيَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَي لِيَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ، ...، فَرُفِعَ عَلَى لَفْظِ الْخَبْرِ، وَأَنْتَ تُرِيدُ: لِيَرْحَمَهُ اللَّهُ جَزْمًا، فَتَأْتِي بِلَفْظِ الْخَبْرِ وَأَنْتَ تُرِيدُ مَعْنَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا"<sup>(8)</sup>.

(1) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 330/8.

(2) الآية (البلد، 1).

(3) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 15ب.

(4) الآية (البقرة، 233، 282).

(5) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 5أ، وابن جني المحتسب، 243/1، والبناء، الإتحاف، 204.

(6) انظر: الأزهري، معاني القراءات، 77، وابن غلبون، التذكرة، 204، والطبري، التلخيص، 218،

والأنصاري، الإقناع، 380، وأبو حيان، البحر المحيط، 225/2، وابن الجزري، النشر، 171/2،

والبناء، الإتحاف، 204.

(7) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 225/2.

(8) انظر: ابن جني، المحتسب، 244/1، وانظر توجيهه مكي، الكشف، 296/1.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ قَوْلُهُ -جَلَّ شَأْنُهُ-: "فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا"<sup>(1)</sup>، فَالْحَرْفُ "لَا" يَقَعُ تَحْتَهُ مَعَانٍ مُتْبَايِنَةٌ وَهِيَ بِمَنَآئِ عَنِ السِّيَاقِ، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ لِلنَّهْيِ، أَوْ النَّفْيِ، وَقَدْ جَاءَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيِّصٍ جَازِمًا عَامِلًا فِيمَا بَعْدَهُ، فَكَانَتْ هَيْئَةُ قِرَاءَتِهِ: "فَلَا يَخْفَ ظُلْمًا"<sup>(2)</sup>، وَقَدْ تَقَرَّدَ ابْنُ كَثِيرٍ بَيْنَ الْقُرَاءِ فِي هَذَا الْحَرْفِ؛ إِذْ قَرَأَهُ قِرَاءَةً تُوَافِقُ قِرَاءَةَ ابْنِ مُحَيِّصٍ، وَالْبَاقُونَ عَلَى عَدِّ "لَا" نَافِيَةً غَيْرَ عَامِلَةٍ<sup>(3)</sup>، وَوَجْهُ الْجَزْمِ أَنَّهُ نَهْيٌ لِلْغَائِبِ، أَمَّا وَجْهُ الرَّفْعِ فَهُوَ عَلَى الْخَبْرِ، وَالْمَعْنَى: فَهُوَ لَا يَخَافُ ظُلْمًا، وَالْفَاءُ فِي جَوَابِ الشَّرْطِ.

### ثَالِثًا: تَعَاوُرٌ لِلْمَبَانِي دُونَ الْمَعَانِي

وَقَدْ قَرَأَ ابْنُ مُحَيِّصٍ قَوْلَهُ -تَعَالَى-: "أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ"<sup>(4)</sup>، وَكَذَلِكَ: "أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ"<sup>(5)</sup>، بِتَشْدِيدِ النَّوْنِ، وَهَذِهِ قِرَاءَةٌ ابْنِ كَثِيرٍ، وَابْنِ عَامِرٍ، وَحَمَزَةٌ، وَالْكَسَائِيُّ<sup>(6)</sup>، وَأَمَّا مَنْ شَدَّدَ فَقَدْ نَصَبَ بِهَا الْاسْمَ، وَأَمَّا مَنْ خَفَّفَهَا فَقَدْ مَنَعَهَا عَمَلَهَا، وَرَفَعَ مَا بَعْدَهَا، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ<sup>(7)</sup>، وَقَدْ ذَهَبَ الْبِنَاءُ إِلَى أَنْ "أَنْ" فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ مُخَفَّفَةٌ مِنَ التَّقْيِيلَةِ، وَأَنَّ اسْمَهَا صَمِيرُ الشَّانِ، وَ"لَعْنَةُ" مُبْتَدَأٌ، وَالظَّرْفُ بَعْدَهُ خَبْرٌ، وَالْجُمْلَةُ خَبْرٌ "أَنْ"<sup>(8)</sup>.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ: "فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"<sup>(9)</sup>، وَقَدْ قَرَأَهَا: "فَلَا خَوْفٌ"<sup>(10)</sup>، وَهَذَا وَجْهُ غَرِيبٌ تَأَوَّلَهُ بَعْضُهُمْ، فَقَالَ:  
- إِنَّ "خَوْفٌ" مَرْفُوعَةٌ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَقَدْ حُذِفَ التَّنْوِينُ لِلتَّخْفِيفِ وَكَثْرَةِ الْإِسْتِعْمَالِ.

(1) الآية (طه، 112).

(2) انظر: ابن الأهوازي، رواية ابن محييصن، 10، والبناء، الإتحاف، 389.

(3) انظر: الأزهري، معاني القراءات، 301، وابن غلبون، التذكرة، 363، والطبري، التلخيص، 329، والأُنصاري، الإقناع، 428، وأبو حيان، البحر المحيط، 261/6، وابن الجزري، النشر، 242/2، والبناء، الإتحاف، 389.

(4) الآية (الأعراف، 44).

(5) الآية (يونس، 10).

(6) انظر: الأزهري، معاني القراءات، 180، وابن غلبون، التذكرة، 270، ومكي، الكشف، 463/1، والطبري، التلخيص، 266، وابن الجزري، النشر، 202/2، والبناء، الإتحاف، 283.

(7) انظر: الأزهري، معاني القراءات، 180.

(8) انظر: البناء، الإتحاف، 283، وانظر توجيه النحاس، إعراب القرآن، 127/2، وابن الأنباري، البيان، 306، والعكبري، التبيان، 571/1.

(9) الآية (البقرة، 38).

(10) انظر: الأهوازي، رواية ابن محييصن، 4، والبناء، الإتحاف، 176.

- أو على الإضافة المُقدَّرة، أي: خَوْفُ شَيْءٍ.
- وَيَجُوزُ، وَهُنَا مَوْضِعُ التَّمثِيلِ، جَعَلَ "لا" بِمَنْزِلَةِ "أليس"، كَقَوْلِهِمْ "لا مُسْتَصْرَحٌ"<sup>(1)</sup>.
- وَيَجُوزُ فِي مَذْهَبِ أَبِي حَيَّانَ أَنْ يَكُونَ قَدْ عُرِيَ مِنَ التَّنْوِينِ لِأَنَّهُ عَلَى نِيَّةِ الْأَلْفِ وَاللَّامِ، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: "فلا الخوفُ عَلَيْهِمْ"؛ كَقَوْلِ الْعَرَبِ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، بِغَيْرِ التَّنْوِينِ، وَهُمْ يُرِيدُونَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ<sup>(2)</sup>.

#### رابعًا: الحَمْلُ عَلَى الْمَعْنَى

ولابنِ مُحَيِّصِنِ اخْتِيَارَاتٌ نَحْوِيَّةٌ يُمَكِّنُ تَفْسِيرُهَا بِأَنَّهَا حَمَلٌ عَلَى الْمَعْنَى، وَالَّذِي يَتَعَيَّنُ مِنْ هَذَا الْمُصْطَلِحِ أَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى الْعِنَايَةِ بِالْعِلَّةِ، وَمِنِ الْأَمْثِلَةِ الْمُجَلِّيَةِ حُدُودَهُ أَنَّ أَبَا عَمْرٍو سَمِعَ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: "فُلَانٌ لَغُوبٌ، جَاءَتْهُ كِتَابِي فَاحْتَقَرَهَا"، فَاسْتَرَعَى انْتِبَاهَهُ تَأْنِيثُ الْفِعْلِ "جَاءَتْهُ" مَعَ فَاعِلِهِ الْمَذْكَرِ "الثَّانِي"، فَأَعَادَ عَلَى صَاغِي سَمِعَهُ كَلَامَ الْأَعْرَابِيِّ مُسْتَعْرِبًا مُسْتَشْرِفًا الْعِلَّةَ الْبَاعِثَةَ عَلَيْهِ، فَاسْتَدْرَكَ عَلَيْهِ الْأَعْرَابِيُّ مُجَلِّيًّا مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ سَمْتِ أَدَاءِ لُغَوِيٍّ لَمْ يُجَانِبْ فِيهِ الصَّوَابَ، فَقَالَ: أَلَيْسَ الْكِتَابُ بِصَحِيفَةٍ؟ أَي: حَمَلَهُ عَلَى الْمَعْنَى، فَأَنْتَ الْفِعْلَ<sup>(3)</sup>.

وَمِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى هَذَا الْمَحْمَلِ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيِّصِنِ كَلِمَةُ "سَبَأً"<sup>(4)</sup> بِالْخَفْضِ، وَالْهَمْزِ، وَالتَّنْوِينِ<sup>(5)</sup>، وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ، أَمَا أَبُو عَمْرٍو وَالدَّبْرِيُّ فَجَنَحَا إِلَى الْفَتْحِ مِنْ غَيْرِ تَنْوِينٍ<sup>(6)</sup>، وَقَدْ أَشَارَ الْفَارِسِيُّ فِي "الْحَجَّةِ" إِلَى الْوَجْهَيْنِ جَانِحًا إِلَى أَنَّ الصَّرْفَ أَعْجَبُ إِلَيْهِ وَأَقْرَبُ<sup>(7)</sup>، وَقَدْ التَّمَسَ الْأَزْهَرِيُّ وَجْهًا آخَرَ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ رُوِيَ عَنْ أَبِي عَمْرٍو أَنَّهُ سُئِلَ: عَلَى أَيِّ وَجْهِ حَمَلِ الْمَعْنَى؟ فَأَشَارَ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يُجْر؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي مَا هُوَ، فَالْأَسْمَاءُ حَقُّهَا الصَّرْفُ، وَإِذَا لَمْ يُعْلَمِ الْاسْمُ أَللَّذَكَرِ أَمْ لِلْمَوْثِقِ فَحَقُّهُ الصَّرْفُ حَتَّى يُعْلَمَ أَيْنَصْرِفُ أَمْ لَا يَنْصَرِفُ<sup>(8)</sup>.

(1) انظر ما قاله فيها: القاضي، القراءات، 28، ومحمد محيسن، المغني، 135/1.

(2) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 322/1، وانظر توجيهات ابن الجزري لقراءات هذا الحرف في غير موضع في التنزيل العزيز، النشر، 159/2.

(3) انظر: عبابنة، مكانة الخليل، 86.

(4) الآية: "وجئتك من سبأ نبأً يقين". (النمل، 22).

(5) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصن، 11، والبناء، الإتحاف، 427.

(6) انظر: الأزهري، معاني القراءات، 354، وابن غلبون، التنكرة، 396، ومكي، الكشف، 156/2، والطبري، التلخيص، 353، وابن الجزري، النشر، 253/2، والبناء، الإتحاف، 427.

(7) انظر: الفارسي، الحجة، 382/5.

(8) انظر: الأزهري، معاني القراءات، 354.



وَالْحَقُّ أَنَّ هَذَا الْمَلْحَظَ قَدْ عَرَّجَ عَلَيْهِ سيبويه من قَبْلُ، مُشِيرًا إِلَى تَرَدُّدِ الْاسْمِ فِي أَحْيَانٍ بَيْنَ الصَّرْفِ وَعَدَمِهِ، كُلُّ ذَلِكَ مَرْدُهُ إِلَى الْحَمَلِ عَلَى الْمَعْنَى الْمُرَادِ أَوْ الْمُسْتَشْرَفِ كَثَمُودَ وَسَبَأً، فَهَمَا مَرَّةً لِلْقَبِيلَتَيْنِ، وَمَرَّةً لِلْحَيَيْنِ، وَكَثُرَتْهُمَا سِوَاءً<sup>(1)</sup>.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ الْحَمَلِ عَلَى الْمَعْنَى فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيْصِنٍ أَنَّهُ قَرَأَ كَلِمَةَ "طُوى" (2) مُنَوَّنَةً ذَاهِبًا إِلَى أَنَّهَا مَصْرُوفَةٌ، وَهِيَ قِرَاءَةُ الْكُوفِيِّينَ وَابْنِ عَامِرٍ (3)، أَمَّا قِرَاءَةُ ابْنِ كَثِيرٍ، وَنَافِعِ، وَأَبِي عَمْرٍو، وَيَعْقُوبَ، فَقَدْ كَانَتْ عَلَى عَدِّهَا غَيْرَ مُجْرَاةٍ (4)، وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ الْأَمْرَ بِضِدِّ الَّذِي هُوَ فِي سَابِقَتِهَا، فَفِي "سَبَأً" تَوْنُ ابْنِ مُحَيْصِنٍ وَصَّرَفَ؛ ذَلِكَ أَنَّهَا مَحْمُولَةٌ عَلَى مَعْنَى التَّائِيثِ، وَفِي هَذِهِ "طُوى" لَمْ يَذْهَبْ إِلَى التَّنْوِينِ وَالصَّرْفِ حَمَلًا عَلَى كَوْنِهَا اسْمًا لِلْبَقْعَةِ وَالتَّعْرِيفِ، أَوْ لِلْعُجْمَةِ وَالْعَلَمِيَّةِ، وَيَكُونُ قَدْ سَمِيَ مُؤَنَّنًا بِمُنْكَرٍ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْدُولًا كَعُمَرَ، وَإِنْ كَانَ لَا يُعْرَفُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ عُدِلَ، وَالْقِرَاءَتَانِ حَسَنَتَانِ (5).

وَمِنْ أَمْثَلَةِ هَذَا الْمَبْحَثِ؛ أَعْنِي الْحَمَلَ عَلَى الْمَعْنَى، قِرَاءَتُهُ قَوْلَهُ -تعالى-: "فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ" (6)، بِنَصْبِ "آدَمَ" وَرَفْعِ "كَلِمَاتٍ" (7)، وَلِلْقِرَاءِ إِجْمَاعٌ عَلَى رَفْعِ "آدَمَ" وَنَصْبِ "كَلِمَاتٍ" مَا خِلا ابْنَ كَثِيرٍ (8)، وَالظَّاهِرُ أَنَّ مَنْ نَصَبَ "آدَمَ" حَمَلَهُ عَلَى مَعْنَى، وَأَنَّ مَنْ رَفَعَهُ حَمَلَهُ عَلَى مَعْنَى مُفَارِقٍ، فَعَلَّةُ النَّصْبِ أَنَّهُ جَعَلَ الْكَلِمَاتِ قَدْ اسْتَنْقَذَتْ "آدَمَ" بِتَوْفِيقِ اللَّهِ لَهُ، وَالِدَّاعِ بِهَا، فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالنُّوبَةِ، فَكَانَتْ الْكَلِمَاتُ الْمُنْقَذَةَ الْفَاعِلَةَ، وَهُوَ الْمُسْتَنْقَذُ بِهَا، وَكَانَ

(1) انظر: سيبويه، الكتاب، 252/3، وقد أشار إلى أن أبا عمرو كان لا يصرف "سبأ" لأنه جعله اسما للقبيلة.

(2) الآية: "إنك بالواد المقدس طوى" (طه، 12)، وانظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 9ب.

(3) انظر: الأزهرى، معاني القراءات، 290، وابن غلبون، التذكرة، 358، ومكي، الكشف، 96/2، والطبري، التلخيص، 327، والأنصاري، الإقناع، 427، وابن الجزري، النشر، 240/2، والبناء، الإتحاف، 382.

(4) انظر: الأزهرى، معاني القراءات، 290.

(5) انظر: الأزهرى، معاني القراءات، 290، والفارسي، الحجة، 214/5، ومكي، الكشف، 96/2، والطبري، التلخيص، 209، وابن الجزري، النشر، 240/2، والبناء، الإتحاف، 382.

(6) الآية (البقرة، 37).

(7) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 14.

(8) انظر: الأزهرى، معاني القراءات، 48، وابن غلبون، التذكرة، 187، ومكي، الكشف، 236/1، والأنصاري، الإقناع، 373، وابن الجزري، النشر، 159/2، والبناء، الإتحاف، 176.

الأصل أن يُقال على هذه القراءة: "فَتَلَقَّتْ آدَمَ..."، ولكن لما بَعُدَ ما بَيْنَ الْمُؤَنَّثِ وَفِعْلِهِ حَسُنَ حَذْفُ عَلامَةِ التَّانِيثِ، "وقيل إنما دُكِرَ لآتِهِ مَحْمُولٌ عَلَى الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ وَالْكَلِمَاتِ وَاحِدٌ"<sup>(1)</sup>.

وَأَمَّا مَنْ رَفَعَ "آدَمَ" فَقَدْ جَنَحَ إِلَى جَعْلِ "آدَمَ" الْمُتَلَقِّي لِلْكَلِمَاتِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَبِلَهَا، وَدَعَا بِهَا، فَتَابَ عَلَيْهِ، فَهُوَ الْفَاعِلُ لِقَبُولِهِ الْكَلِمَاتِ، وَالْمَعْنَى مَحْمُولٌ عَلَى ذَلِكَ<sup>(2)</sup>، وَالظَّاهِرُ أَنَّ تَمَّ حَمَلًا عَلَى مَعْنَى آخَرَ لِتَلَكُمَا الْقِرَاءَتَيْنِ، وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى مَنْطِقِ الْحَيَاةِ وَالْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ، فَكُلُّ شَيْءٍ تَلَقَّاكَ فَقَدْ تَلَقَّيْتَهُ، وَهَذَا وَجْهٌ جَائِزٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ<sup>(3)</sup>، ثُمَّ إِنَّ الْفِعْلَ "تَلَقَّى" مِنْ الْأَفْعَالِ الَّتِي فَاعِلُهَا مَفْعُولٌ، وَمَفْعُولُهَا فَاعِلٌ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ إِذَا أَسْنَدْنَاهَا إِلَى أَيُّهُمَا شِئْنَا فَلَنْ يَتَّغَيَّرَ الْمَعْنَى، وَمِنْ مِثْلِهَا: أَصَبْتُ خَيْرًا، وَأَصَابَنِي خَيْرٌ، وَتَلَقَّيْتُ زَيْدًا، وَتَلَقَّانِي زَيْدٌ<sup>(4)</sup>.

#### خَامِسًا: أَثَرُ تَغْيِيرِ بِنْيَةِ الْفِعْلِ فِي السِّيَاقِ الْبِنْيَوِيِّ

وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَى ذِي تَأَمُّلٍ أَنَّ تَبَايُنَ صِيغَةِ الْفِعْلِ بَيْنَ الْقِرَاءَاتِ قَدْ يُفْضِي إِلَى تَبَايُنٍ فِي الْمَعَانِي النَّحْوِيَّةِ الْعَرِيضَةِ، كَالْفَاعِلِيَّةِ وَالْمَفْعُولِيَّةِ، فَقَدْ يَكُونُ الْفِعْلُ فِي قِرَاءَةٍ قَارِيٍّ مَا مَبْنِيًّا لِلْمَعْلُومِ، وَفِي أُخْرَى مَبْنِيًّا لِلْمَجْهُولِ، وَقَدْ يَتَرَدَّدُ الْفِعْلُ مِنْ وَجْهَةٍ صَرْفِيَّةٍ - بَيْنَ الْخِطَابِ وَالْغَيْبَةِ، أَوْ الْغَيْبَةِ وَالتَّكَلُّمِ، أَوْ التَّعَدِّيِّ وَاللِّزُومِ، وَهَذَا كُلُّهُ يُؤَثِّرُ فِي السِّيَاقِ الْبِنْيَوِيِّ وَعِلَاقَتِهِ، وَيُؤَدِّنُ بِاسْتِشْرَافِ مَعَانٍ نَحْوِيَّةٍ جَدِيدَةٍ، وَتَبَايُنِ عَلامَاتِ الْإِعْرَابِ فِي مَوَاضِعَ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ يَظْهَرُ لِلْمُتَدَبِّرِ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيْصِنٍ أَنَّهُ كَانَ يُؤَثِّرُ الرَّفْعَ، فَكَثِيرًا مَا كَانَ يَعْدُلُ عَنِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ إِلَى الْمَبْنِيِّ لِلْمَعْلُومِ، أَوْ عَنِ الْمُتَعَدِّيِّ إِلَى اللَّازِمِ الْمُسْنَدِ إِلَى فَاعِلِهِ، وَلَعَلَّ مَا يَأْتِي مِنْ أَمْثَلَةٍ يُجَلِّي مَا تَقَدَّمَ:

- "وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ" ← "وَيُشْهِدُ اللَّهُ"<sup>(5)</sup>.
- "وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالتَّسْلَ" ← "وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ"<sup>(6)</sup>.
- "تَرْجِعُ الْأُمُورُ" ← "تَرْجِعُ الْأُمُورُ"<sup>(1)</sup>.

(1) انظر: مكِّي، الكشف، 237/1.

(2) انظر: مكِّي، الكشف، 237/1.

(3) انظر: الأزهرِي، معاني القراءات، 49.

(4) انظر في هذا كله: ابن خالويه، الحجة، 28، والفارسي، الحجة، 40/2-41، والبناء، الإتحاف،

(5) الآية (البقرة 204)، وانظر: الأهوازي، رواية ابن محيَّصن، 5أ.

(6) الآية (البقرة، 205)، وانظر: الأهوازي، رواية ابن محيَّصن، 5أ.

- "زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ" ← "زَيْنٌ لِلَّذِينَ... الْحَيَاةُ" (2).
- "لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمَّ الرِّضَاعَةَ" ← "أَنْ تَنَمَّ الرِّضَاعَةَ" (3).
- "زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ" ← "زَيْنٌ لِلنَّاسِ ... حُبُّ" (4).
- "هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ" ← "فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ" (5).
- "فَلَا تُشْمِتُ بِي الْأَعْدَاءُ" ← "فَلَا تُشْمِتُ بِي الْأَعْدَاءُ" (6).
- "وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ" ← "تُسَيِّرُ الْجِبَالَ" (7).
- "وَلَا تُسْمِعُ الصَّمَّ الدَّعَاءُ" ← "وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ" (8).
- "يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ" ← "تُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ" (9).

وتفسيرُ التردّدِ بَيْنَ هَذِهِ الصِّيغِ الْفِعْلِيَةِ عَتِيدٌ حَاضِرٌ؛ ذَلِكَ أَنَّهَا قِرَاءَاتٌ مُسْنَدَةٌ إِلَى الرَّسُولِ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ لِلْفَارِيِّ فِيهَا سِوَى النَّقْلِ الصَّحِيحِ، وَلَعَلَّ مَا يَسْنُدُ هَذَا فِي هَذَا السِّيَاقِ أَنَّ الْأَهْوَاذِيَّ أَشَارَ إِلَى أَنَّ ابْنَ مُحْيِصِنٍ كَانَ يَفْتَحُ يَاءَ الْفِعْلِ، وَيَكْسِرُ جِيمَهُ فِي "يُرْجَعُونَ"، أَوْ "يُرْجَعُ"، أَي أَنَّهُ قَرَأَهَا مُجْتَمِعَةً فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ مَبْنِيَّةً لِلْمَعْلُومِ إِلَّا فِي مَوْضِعٍ قَالَ عَنْهُ الْأَهْوَاذِيُّ فِي مَعْرِضِ تَعْرِيجِهِ عَلَى الْفُرُوشِ: "ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجَعُونَ"، بِفَتْحِ التَّاءِ وَكَسْرِ الْجِيمِ حَيْثُ كَانَ إِلَّا مَوْضِعًا وَاحِدًا فِي "يَاسِينَ": "وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يُرْجَعُونَ"، فَإِنَّهُ بَرَفَعَ يَاءَهَا، وَفَتَحَ جِيمَهَا، وَخَدَّهَا فَقَطَّ" (10).

وَقَدْ أَلْمَحَ الْبَنَاءُ أَيْضًا إِلَى أَنَّ ابْنَ مُحْيِصِنٍ خَالَفَ أَسْلَهَ الْعَرِيضِ فِي "يَاسِينَ"؛ إِذْ إِنَّهُ بَنَاهُ لِلْمَفْعُولِ (11)، وَالْقُرْآنُ يَسْنُدُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَالْمَعْنِيَانِ مُتَلَاقِيَانِ غَيْرُ مُتَدَافِعَيْنِ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ، أَعْنَى مَعْنَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَجْهُولِ، أَمَّا الْبِنَاءُ لِلْفَاعِلِ، وَهِيَ قِرَاءَةٌ ابْنِ مُحْيِصِنٍ لِلْفِعْلِ

- 
- (1) الآية (البقرة، 210)، وانظر: الأهوازي، رواية ابن محيصن، 5أ.
  - (2) الآية (البقرة، 212)، وانظر: الأهوازي، رواية ابن محيصن، 5أ.
  - (3) الآية (البقرة، 233)، وانظر: الأهوازي، رواية ابن محيصن، 5أ.
  - (4) الآية (آل عمران، 14)، وانظر: الأهوازي، رواية ابن محيصن، 5ب.
  - (5) الآية (الأنعام، 47)، وانظر: الأهوازي، رواية ابن محيصن، 6ب.
  - (6) الآية (الأعراف، 150)، وانظر: الأهوازي، رواية ابن محيصن، 7أ.
  - (7) الآية (الكهف، 47)، وانظر: الأهوازي، رواية ابن محيصن، 9أ.
  - (8) الآية (النمل، 80، الروم، 52)، وانظر: الأهوازي، رواية ابن محيصن، 11أ، 11ب.
  - (9) الآية (الأحزاب، 30)، وانظر: الأهوازي، رواية ابن محيصن، 11ب.
  - (10) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصن، 4أ.
  - (11) انظر: البناء، الإتحاف، 173، والقاضي، القراءات الشاذة، 76.

"يَرْجِعُ" إِلَّا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ، فَيَسْنُدُهَا قَوْلُهُ -تعالى- فِي آيَةٍ أُخْرَى: "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" (1)، وَأَمَّا كَوْنُهُ مُتَعَدِّيًّا فَدَلِيلُهُ: "ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ" (2).

أَمَّا قَوْلُهُ -تعالى-: "وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً" (3)، وَقَدْ قَرَأَهَا ابْنُ مُحَيْصِنٍ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَعْلُومِ مُخَفَّفَةً؛ أَي "تَسِير" (4)، وَقَرَأَهَا ابْنُ كَثِيرٍ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، بِالتَّاءِ، وَضَمِّهَا، وَفَتْحِ الْيَاءِ، وَرَفْعِ الْجِبَالِ، وَقَرَأَهَا الْبَاقُونَ بِالتَّوْنِ، وَضَمِّهَا، وَكَسْرِ الْيَاءِ، وَنَصْبِ الْجِبَالِ (5)، وَحُجَّةٌ مَنْ قَرَأَ بِالتَّوْنِ أَنَّهُ بَنَاهُ عَلَى الْإِخْبَارِ مِنَ اللَّهِ -جَلَّ ذِكْرُهُ- عَنِ نَفْسِهِ "تُسَيِّرُ"؛ إِذْ هُوَ فَاعِلٌ كُلِّ الْأَفَاعِيلِ وَمَدْبُرُهَا، وَانْتَصَبَتْ الْجِبَالُ بِوُقُوعِ الْفِعْلِ عَلَيْهَا، وَيُقْوَى ذَلِكَ إِزْدَافُهُ: "وَحَشَرْنَا هُمْ".

وَحُجَّةٌ مَنْ قَرَأَ بِالتَّاءِ أَنَّهُ بَنَى الْفِعْلَ لِلْمَفْعُولِ، فَرَفَعَ الْجِبَالَ لِقِيَامِهَا مَقَامَ الْفَاعِلِ، فَهِيَ مَفْعُولَةٌ لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهَا، وَيُؤَيَّدُ ذَلِكَ: "وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ"، وَقَدْ حُذِفَ الْفَاعِلُ لِلْعِلْمِ بِهِ، وَهُوَ مِنَ اللَّهِ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، أَوْ مَنْ يَأْمُرُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ (6)، وَأَمَّا ابْنُ مُحَيْصِنٍ فَقَدْ قَرَأَهَا "تَسِيرٌ"، وَيَسْنُدُ هَذِهِ الْوُجْهَةَ آيَةٌ أُخْرَى فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ، وَهِيَ: "وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا" (7).

أَمَّا قِرَاءَتُهُ قَوْلَهُ -تعالى-: "فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ" فَقَدْ كَانَتْ يَفْتَحُ التَّاءِ وَالْمِيمِ مُسْنِدًا الْفِعْلَ إِلَى الْفَاعِلِ الْمَذْكُورِ "الْأَعْدَاءَ"، جَاعِلَهُ لَازِمًا لَا مُتَعَدِّيًّا مِمَّا هُوَ مِنْ بَابِ "فَرَحَ"، وَالْمَعْنَى: لَا تَفْعَلْ بِي مَا تَشْمَتُ مِنْ أَجْلِهِ الْأَعْدَاءَ، فَرَفَعَ بِهِ الْأَعْدَاءَ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ (8).

(1) الآية (البقرة، 156).

(2) الآية (الأنعام، 62)، وانظر ما قاله في هذا الفارسي، الحجة، 417/2، وانظر اختلاف القراء في كل فعل أوله ياء أو تاء المضارعة إذا كان من رجوع الآخرة نحو "ترجعون" و"يرجع" عند ابن الجزري، النشر، 157/2، والبناء، الإتحاف، 173.

(3) الآية (الكهف، 47).

(4) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 19.

(5) انظر: الأزهري، معاني القراءات، 268، ومكي، الكشف، 64/2، وابن غلبون، التنكرة، 343، والطبري، التلخيص، 316، والأنصاري، الإقناع، 422، وابن الجزري، النشر، 233/2، والبناء، الإتحاف، 367.

(6) الآية (النبأ، 20)، وانظر: مكي، الكشف، 64/2، والبناء، الإتحاف، 367.

(7) الآية (الطور، 10)، وانظر ما قيل في هذه الآية: البناء، الإتحاف، 367، والقاضي، القراءات، 63.

(8) انظر: البناء، الإتحاف، 290، والقاضي، القراءات، 49، وانظر توجيه ابن جني، المحتسب، 371/1.

أما قراءته قوله -تعالى-: "يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ" فَقَدْ كَانَتْ بِالنُّونِ مَكْسُورَةً الْعَيْنِ وبِأَلْفٍ "يُضَاعَفُ"<sup>(1)</sup>، والمعنى على هذا الوجه الإخبارُ من الله عن نفسه بذلك، فانتصب العذابُ بوقوعِ الفعلِ عليه<sup>(2)</sup>، ومما يقتربُ من هذه القراءة قراءةُ ابنِ كثيرٍ وابنِ عامرٍ لها بالنونِ مع تشديدِ العينِ وكسرها "تُضَعِّفُ"<sup>(3)</sup>، وقد ذكر البناءُ أن قراءةَ ابنِ مُحَيِّصِنٍ تَلْتَقِي مَعَ قِرَاءَةِ ابنِ كَثِيرٍ وابنِ عامرٍ، وَالْحَقُّ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ كَذَلِكَ فِي رِوَايَةِ ابنِ مُحَيِّصِنٍ وَالْبَحْرِ؛ إِذْ إِنَّ الْأَهْوَاذِيَّ أَشَارَ إِلَى أَنَّهُ قَرَأَهَا بِالنُّونِ وَالْأَلْفِ وَالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ<sup>(4)</sup>.

أما قراءته قوله -تعالى-: "وَلَا تُسْمِعُ الصَّمَّ الدَّعَاءَ"، فَقَدْ تَجَلَّى الْفِعْلُ فِيهَا عَلَى هَيْئَةِ الْغَيْبَةِ وَالتَّعَدِّيِ<sup>(5)</sup>، وَقَدْ تَفَرَّدَ ابْنُ كَثِيرٍ بَيْنَ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ بِهَذِهِ الْمُؤَافَقَةِ لِقِرَاءَةِ ابنِ مُحَيِّصِنٍ هُنَا فِي "النَّمْلِ" وَ"الرُّومِ"<sup>(6)</sup>، وَالْمَعْنَى إِخْبَارٌ عَنِ حَالِهِمِ الَّتِي هِيَ نَفْيُ السَّمَاعِ، فَهَمَّ لَا يَنْقَادُونَ إِلَى الْحَقِّ كَمَا لَا يَسْمَعُ الْأَصَمُّ الْمُعْرِضُ الْمُدْبِرُ عَنِ سَمَاعِ مَا يُقَالُ لَهُ مِنْ كَلَامٍ مَنْ يُكَلِّمُهُ، وَقَدْ قَرَأَهَا الْبَاقُونَ بِنَاءٍ مَضْمُومَةٍ وَمِيمٍ مَكْسُورَةٍ فِي "تُسْمِعُ" عَلَى هَيْئَةِ الْخِطَابِ، وَيُقَوِّي ذَلِكَ مَا قَبْلَهُ مِنْ خِطَابِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ فِي قَوْلِهِ: "إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى"، فَجَرَى الثَّانِي عَلَى لَفْظِ الْأَوَّلِ مِنْ الْخِطَابِ، وَيَتَّبَعِي عَلَى تَبَايُنِ قِرَاءَةِ الْفِعْلِ "تُسْمِعُ/تَسْمَعُ" بَيْنَ الْخِطَابِ وَالْغَيْبَةِ تَبَايُنٌ فِي إِعْرَابِ "الصَّمِّ"؛ ذَلِكَ أَنَّهَا فِي قِرَاءَةِ ابنِ مُحَيِّصِنٍ وَابْنِ كَثِيرٍ الْمَكِّيِّينَ مَرْفُوعَةٌ بِالْفَاعِلِيَّةِ، وَفِي قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ مَنْصُوبَةٌ بِالْمَفْعُولِيَّةِ<sup>(7)</sup>.

#### سادسًا: الوقفُ

(1) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصن، 11ب، وأبو حيان، البحر المحيط، 220/7، والبناء، الإتحاف،

454، والقاضي، القراءات، 74.

(2) انظر: مكي، الكشف، 196/2.

(3) انظر: الأزهري، معاني القراءات، 385، وابن غلبون، التنكرة، 420، ومكي، الكشف، 196/2،

والطبري، التلخيص، 371، والأنصاري، الإقناع، 446، وابن الجزري، النشر، 261/2.

(4) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 220/7، والبناء، الإتحاف، 454.

(5) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصن، 11ب، والبناء، الإتحاف، 431.

(6) الآية (النمل، 80، والروم، 52)، وانظر ما قاله الأزهري، معاني القراءات، 361، ومكي، الكشف،

165/2، وابن غلبون، التنكرة، 399، والطبري، التلخيص، 355، والأنصاري، الإقناع، 438،

وابن الجزري، النشر، 254/2، والبناء، الإتحاف، 431، 445.

(7) انظر: مكي، الكشف، 165/2.

مَعْلُومٌ أَنَّ الْمَفْصَلَ الصَّوْتِيَّ يُؤَدِّنُ بِتَعْيِينِ حُدُودِ الْكَلِمَاتِ وَالْجُمَلِ، وَيَنْبِي عَلَى هَذَا إِبَانَةً عَنِ الْمَعْنَى الْمُتَعَيِّنَةِ مِنَ السِّيَاقِ الْبِنْيَوِيِّ، وَهَذَا الْمَبْحَثُ يَتَّصِلُ بِنَسْبِ حَمِيمٍ بِمَطْلَبِ الْوَقْفِ وَالْإِبْتِدَاءِ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ، وَلَيْسَ الْمَقَامُ مُتَّسِعًا هَهُنَا لِلْحَوْضِ فِي الْوَقْفِ وَضُرُوبِهِ، فَبَعْضُهُمْ جَعَلَهَا ثَمَانِيَةً، وَبَعْضُهُمْ أَرْبَعَةً، أَوْ ثَلَاثَةً، أَوْ اثْنَيْنِ، وَلَعَلَّ أَشْهَرَ ضُرُوبِهِ الثَّمَامَ، وَالْكَافِي، وَالْحَسَنَ، وَالْقَبِيحَ.

وَالثَّمَامَ هُوَ الَّذِي لَا يَتَعَلَّقُ بِشَيْءٍ مِمَّا بَعْدَهُ، فَيَحْسُنُ الْوَقْفُ عَلَيْهِ، وَالْإِبْتِدَاءُ بِمَا بَعْدَهُ، وَالْكَافِي مُنْقَطِعٌ فِي اللَّفْظِ مُتَعَلِّقٌ فِي الْمَعْنَى، فَيَحْسُنُ الْوَقْفُ عَلَيْهِ، وَالْإِبْتِدَاءُ أَيْضًا بِمَا بَعْدَهُ، وَالْحَسَنُ هُوَ الَّذِي يَحْسُنُ الْوَقْفُ عَلَيْهِ، وَلَا يَحْسُنُ الْإِبْتِدَاءُ بِمَا بَعْدَهُ لِتَعَلُّقِهِ بِهِ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى، وَالْقَبِيحُ هُوَ الَّذِي لَا يُفْهَمُ مِنْهُ الْمُرَادُ<sup>(1)</sup>.

وَالَّذِي يَحْسُنُ التَّنْبِيَهُ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنَّ الْقُدَمَاءَ النَّقَاتُوا إِلَى كَوْنِهِ عَامِلًا يُفْرَقُ بِهِ بَيْنَ الْمَعْنَى، وَلِذَلِكَ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ فَوَائِدٌ كَثِيرَةٌ، وَاسْتِنْبَاطَاتٌ غَزِيرَةٌ، وَبِهِ تَنْبِيُنُ مَعْنَى الْآيَاتِ، وَيُؤَمَّنُ الْإِحْتِرَازُ عَنِ الْوُقُوعِ فِي الْمَشْكَلاتِ<sup>(2)</sup>، وَعَنْهُ قَالَ الْقَسْطَلَانِيُّ (923هـ): "وَلَا مَرِيَّةٌ أَنْ بِمَعْرِفَتِهِمَا تَظْهَرُ مَعْنَى التَّنْزِيلِ، وَتُعْرَفُ مَقَاصِدُهُ، وَتَسْتَعِدُّ الْقُوَّةُ الْمُفَكِّرَةُ لِلْعَوْصِ فِي بَحْرِ مَعَانِيهِ، عَلَى دُرْرِ فَوَائِدِهِ، وَقَدْ قَالَ الْهُذَلِيُّ: مِمَّا رَأَيْتُهُ فِي كَامِلِهِ: الْوَقْفُ حَلِيَّةُ التَّلَاوَةِ، وَزِينَةُ الْقَارِي، وَبِلَاغُ التَّالِي، وَفَهْمٌ لِلْمَسْتَمِعِ، وَفَخْرٌ لِلْعَالِمِ، وَبِهِ يُعْرَفُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَعْنَيْنِ الْمُخْتَلَفَيْنِ، وَالنَّقِيضَيْنِ الْمُتَبَايِنَيْنِ، وَالْحُكْمَيْنِ الْمُتَغَايِرَيْنِ..."<sup>(3)</sup>.

وَالْمُتَأَمَّلُ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيْصِنٍ يَجِدُ أَنَّ مَوَاضِعَ الْوَقْفِ عِنْدَهُ يُمَكِّنُ أَنْ تَنْتَسِبَ إِلَى

ثَلَاثِ فَنَاتٍ:

- أَوْلَاهَا وَقْفٌ بَيْنَ حُدُودِ الْجُمَلِ.

(1) انظر أقسام الوقف: ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن قاسم (377هـ)، إيضاح الوقف الإبتداء في كتاب الله عز وجل، تحقيق محيي الدين رمضان، ط1، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1971م، 149/1، والداني، أبو عمرو (444هـ)، المكتفى في الوقف والإبتداء، تحقيق جابيد مخلف، ط1، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، 1983م، 106-115، والزركشي، البرهان، 350/1-352، والسيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، تحقيق عبد المنعم إبراهيم، ط2، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، 1998م، 286-292.

(2) انظر: الزركشي، البرهان، 342/1.

(3) انظر: القسطلاني، لطائف الإشارات، 249/1.

- وثانيئها وَقَفَّ عَلَى حُدُودِ كَلِمَاتٍ مَخْصُوصَةٍ.
- وثالثئها وَقَفَّ عَلَى الْأَسْمَاءِ الْمَنْقُوصَةِ.
- لِنَرْجِعِ النَّظَرَ فِيمَا يَأْتِي بَيَانًا وَتَحْلِيَةً لِذَلِكَ الْمُتَقَدِّمِ:

### بَيْنَ حُدُودِ الْجُمْلِ:

ولابن مُحِيصِنٍ اخْتِيَارَاتٌ فِي الْوَقْفِ وَالْإِبْتِدَاءِ، وَمِنْ ذَلِكَ قِرَاءَتُهُ قَوْلَهُ -تَعَالَى-: "عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ"<sup>(1)</sup>، بِيَاءِ الْمَدِّ لَا اللَّيْنِ فِي "عَالِيَهُمْ"، وَهَذِهِ قِرَاءَةٌ تَلْتَقِي مَعَ قِرَاءَةِ نَافِعٍ، وَحَمَزَةٍ مِنَ السَّبْعَةِ، وَأَبِي جَعْفَرٍ مِنَ الْعَشْرَةِ، وَالْحَسَنِ مِنَ الْأَرْبَعَةِ<sup>(2)</sup>، وَالْوَجْهُ فِيهَا أَنْ يَكُونَ مَفْصِلٌ صَوْتِيٌّ عِنْدَ قَوْلِهِ الشَّرِيفِ:

"وَإِذَا رَأَيْتَ تَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ^ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ..."  
و"عَالِيَهُمْ" فِي هَذَا التَّوْجِيهِ مُبْتَدَأٌ خَبَرَهُ "ثِيَابٌ سُنْدُسٍ".

أَمَّا مَنْ قَرَأَ بِالنَّصْبِ، وَمِنْهُمْ عَاصِمٌ وَأَبُو عَمْرٍو، فَفِي ذَلِكَ تَقْدِيرَانِ: أَوَّلُهُمَا أَلَّا يَوْقِفَ عَلَى مَا قَبْلَهُ لِتَعَلُّقِهِ بِهِ؛ إِذْ إِنَّهُ لَا يُبْتَدَأُ بـ"عَالِيَهُمْ"؛ ذَلِكَ أَنَّهَا حَالٌّ مِنَ الْهَاءِ وَالْمِيمِ فِي قَوْلِهِ "وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ"، أَيْ: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ هُوَلاءِ، أَوْ مِنْ "حَسَبْتَهُمْ"، أَيْ: حَسَبَتِ الْوَالِدَانَ لَوْلَا مَنْشُورًا فِي حَالِ غُلُوقِ الثِّيَابِ إِيَّاهُمْ<sup>(3)</sup>، وَقَدْ يَنْتَصِبُ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، وَالتَّقْدِيرُ: فَوْقَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ، وَعَلَى هَذَا يُبْتَدَأُ بِهِ أَيْضًا، وَيَوْقِفُ عَلَى مَا قَبْلَهُ لِأَنَّهُ غَيْرٌ مُتَعَلِّقٌ بِهِ<sup>(4)</sup>.

وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ الْمُبِينَةِ عَنِ أَثَرِ الْوَقْفِ "الْمَفْصِلِ الصَّوْتِيِّ" فِي انْفِسَاخِ نَسِيجِ التَّرْكِيبِ، وَاسْتِشْرَافِ مَعَانٍ نَحْوِيَّةٍ جَدِيدَةٍ، قِرَاءَةُ ابْنِ مُحِيصِنٍ لِقَوْلِهِ -تَعَالَى-: "هَذَا ذِكْرٌ مَن مَعِيَ وَذِكْرٌ

(1) الآية (الإنسان، 21).

(2) انظر: الأزهرى، معاني القراءات، 518، وابن غلبون، التنكرة، 525، ومكي، الكشف، 354/2، والطبري، التلخيص، 454، والأنصاري، الإقناع، 479، وابن الجزري، النشر، 296/2، والبناء، الإتحاف، 566.

(3) انظر: الأزهرى، معاني القراءات، 519، ومكي، الكشف، 355/2، وقد أشار ابن الأنباري إلى أنها قد تكون منصوبة على وجهين، ومرفوعة على وجهين أيضا، انظر: ابن الأنباري، البيان، 405.

(4) انظر: الداني، المكتفى، 373، والفارسي، الحجة، 354/6، والزمخشري، الكشاف، 199/4، وأبو حيان، البحر المحيط، 391/8، والبناء، الإتحاف، 566.

مَنْ قَبْلِي، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهَمْ مُعْرِضُونَ"<sup>(1)</sup>، بِرْفَعِ الْحَقِّ<sup>(2)</sup>، وَهَذِهِ قِرَاءَةُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَيْضًا<sup>(3)</sup>.

وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ أَنَّ تَمَّ وَقَفًا عَلَى قَوْلِهِ -تَعَالَى-: "لَا يَعْلَمُونَ<sup>٨</sup> الْحَقُّ فَهَمْ مُعْرِضُونَ"، ثُمَّ يُسْتَأْنَفُ بِمَا بَعْدَهُ، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ هَذَا الْمَفْصِلَ الصَّوْتِيَّ أَدَّى إِلَى انْفِصَاخِ نَسِيحِ التَّرْكِيبِ، فَأَعْقَبَ تَبَايُنًا فِي الْمَعَانِي التَّحْوِيَّةِ الَّتِي تَتَعَاوَرُ عَلَيْهَا كَلِمَةُ "الْحَقُّ"، أَمَّا النَّصْبُ فَهُوَ بَيِّنٌ لِمَا فِيهِ مِنْ عَمَلِ الْفِعْلِ "يَعْلَمُونَ" بِمَا بَعْدَهُ "الْحَقُّ"، وَهَذِهِ قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ، وَأَمَّا الرَّفْعُ فَعَلَى حَذْفِ الْمُبْتَدَأِ، وَالْمَعْنَى: هَذَا الْحَقُّ، أَوْ: هُوَ الْحَقُّ<sup>(4)</sup>، وَقِيلَ إِنَّ الْمُضْمَرَ هُوَ الْخَيْرُ<sup>(5)</sup>.

وَقَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ بِالصِّدِّ، فَيَقِفُ قِرَاءَةً مُسْتَشْرِفِينَ مَفْصِلًا صَوْتِيًّا يُعَيِّنُونَ فِيهِ حُدُودَ الْجُمْلِ، وَيَصِلُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ لِيَغْدُوَ الْكَلَامُ الشَّرِيفُ شَرْجًا وَاحِدًا مُتَعَالِقًا، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ - تَبَارَكَ -: "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ"<sup>(6)</sup>، فَقَدْ قَرَأَهَا ابْنُ مُحَيْصِنٍ بِنِصْبِ "سَوَاءً"، وَكَذَلِكَ ثَلَاثَةٌ مِنْ أَصْحَابِ الْقِرَاءَاتِ الْمَشْهُورَةِ، وَهَمْ حَفْصٌ، وَحَمْزَةٌ، وَالْكَسَائِيُّ<sup>(7)</sup>.

أَمَّا مَنْ رَفَعَ فَقَدْ أَتَى بِمَفْصِلِ صَوْتِيٍّ عَقَبَ "الصَّالِحَاتِ"، فَوَقَفَ عِنْدَهَا:

"كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ<sup>٨</sup> سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ".

لَأَنَّ مَا بَعْدَ ذَلِكَ مُنْقَطِعٌ مِنْهُ، وَالتَّقْدِيرُ: مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَوَاءً<sup>(8)</sup>.

(1) الآية (الأنبياء، 24).

(2) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 10، والبناء، الإتحاف، 391.

(3) انظر: ابن جني، المحتسب، 105/2.

(4) انظر: ابن جني، المحتسب، 105/2.

(5) انظر: أبو حيان، البحر، 284/6، وانظر ما قيل فيها: الزمخشري، الكشاف، 569/2، والبناء،

الإتحاف، 391، والقاضي، القراءات الشاذة، 68.

(6) الآية (الجاثية، 21).

(7) انظر: الأزهري، معاني القراءات، 446، وابن غلبون، التذكرة، 468، ومكي، الكشف، 268/2،

والأنصاري، الإقناع، 460، وابن الجزري، النشر، 278/2، وانظر وجوه النصب عند الداني،

المكتفى، 326، وأبي حيان، البحر المحيط، 47/8-48، والبناء، الإتحاف، 502.

(8) انظر: الداني، المكتفى، 326، وقد قال إن الضمير الذي هو في محياهم ومماتهم عائد على

المؤمنين والكافرين، فعلى هذا لا يوقف على "الصالحات"؛ لأن ما بعد ذلك متعلق بقوله: "كالذين

آمنوا"؛ لأنه جملة في موضع نصب على الحال.



### بَيْنَ حُدُودِ الْكَلِمَاتِ:

وَقَدْ يُفْضَى الْوَقْفُ، مِنْ وَجْهَةٍ أُخْرَى، إِلَى اتِّفَاقِ الْمَبَانِي وَافْتِرَاقِ الْمَعَانِي؛ ذَلِكَ أَنْ الْكَلِمَةَ الَّتِي وَقَفَ عَلَيْهَا غَدَتْ مُشْتَمِلَةً عَلَى مَعْنِيَيْنِ، صَالِحَةً لِأَنْ تُسَبَّحَ عَلَيْهَا وَسَمَ الْمُشْتَرَكِ النَّحْوِيِّ، وَمِنْ ذَلِكَ كَلِمَةُ "رَاعِنَا" الَّتِي وَرَدَتْ اثْنَتَيْنِ: وَاحِدَةً فِي "الْبَقْرَةَ" فِي قَوْلِهِ الشَّرِيفِ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا"<sup>(1)</sup>، وَأُخْرَى فِي النَّسَاءِ فِي قَوْلِهِ الْحَقِّ: "وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ"<sup>(2)</sup>.

وَقَدْ قَرَأَ ابْنُ مُحَيْصِنٍ الْأُولَى بِالتَّنْوِينِ<sup>(3)</sup>، وَهَذِهِ قِرَاءَةُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَيْضًا<sup>(4)</sup>، أَمَّا مَوْضِعُ النَّسَاءِ فَقَرَأَهُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ دُونَ تَنْوِينِ، وَلَعَلَّ تَوْجِيهَ التَّنْوِينِ فِي "الْبَقْرَةَ" -وَلَمْ يَقْرَأْ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الْقِرَاءَاتِ السَّبْعِ- أَنَّهُ مَنْصُوبٌ بِالْقَوْلِ، وَالْمَعْنَى: لَا تَقُولُوا رُعُونَةً وَهَجْرًا، وَقِيلَ مَنْصُوبَةً عَلَى كَوْنِهَا صِفَةً لِمَصْدَرٍ مَحذُوفٍ، وَالْمَعْنَى: لَا تَقُولُوا ذَا رُعُونَةٍ، وَيَنْبَغِي عَلَى الْإِيتْيَانِ بِالتَّنْوِينِ أَنْ يَكُونَ الْأَصْلُ الْأَشْتِقَاقِيُّ "رَعْنًا"، وَفِي التَّجَافِي عَنْهُ يَكُونُ "رَعَانًا"، وَهُوَ فِي سِيَاقِهِ الشَّرِيفِ فِعْلٌ أَمْرٌ قُصِّرَتْ فِيهِ الْكِسْرَةُ الطَّوِيلَةُ "يَاءُ الْمَدِّ"، فَغَدَتْ قَصِيرَةً<sup>(5)</sup>.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: "ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا"<sup>(6)</sup>، وَكَانَتْ قِرَاءَةُ ابْنِ مُحَيْصِنٍ لِكَلِمَةِ "تَتْرًا" غَيْرَ مُنَوَّنَةٍ، وَقَدْ وَافَقَتْ قِرَاءَتَهُ قِرَاءَةُ السَّبْعَةِ مَا خَلَا قِرَاءَةَ أَبِي عَمْرٍو وَابْنِ كَثِيرٍ<sup>(7)</sup>،

(1) الآية (البقرة، 104).

(2) الآية (النساء، 46).

(3) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 14.

(4) انظر: الأهوازي، مفردة الحسن البصري، 37.

(5) انظر ما قيل فيها: النحاس، إعراب القرآن، 254/1، وابن الأنباري، البيان، 111/1، والبناء،

الإتحاف، 189، وعبد الفتاح القاضي، القراءات الشاذة، 21، واللافت للنظر أن البناء قال إن ابن

محيصة قرأ "راعنا" في الموضعين بالتونين، والحق أن ذلك ليس كذلك، فقد قال الأهوازي في

معرض تعريجه على الكلمة في سورة البقرة: "بالتونين ههنا فقط". انظر: الأهوازي، رواية ابن

محيصة، 14.

(6) الآية (المؤمنون، 44).

(7) انظر: الأزهري، معاني القراءات، 323، وابن غلبون، التذكرة، 377، ومكي، الكشف، 128/2،

والطبري، التلخيص، 339، والأنصاري، الإقناع، 432، وابن الجزري، النشر، 246/2، والبناء،

الإتحاف، 404.

فَقَدْ قَرَأَهَا بِالتَّنْوِينِ وَصَلًّا، وَبِالْأَلْفِ وَقَفًّا، وَلَعَلَّ هَذَا يُفْضِي إِلَى اسْتِبَاهِهَا بِغَيْرِ الْمُنَوْنَةِ، وَرَفَعًا لِهَذَا الْإِشْكَالِ الَّذِي يَتَجَلَّى فِي الْمُسْتَوَى النَّطْقِيِّ الشَّفَهِيِّ وَقَفَّ عَلَيْهَا حَمَزَةٌ وَالْكَسَائِيُّ بِيَاءٍ<sup>(1)</sup>.

أَمَّا قِرَاءَةُ ابْنِ مُحَيْصِنٍ غَيْرِ مُنَوْنَةٍ فَعَلَى عَدِّ الْأَلْفِ لِلتَّنْوِينِ؛ ذَلِكَ أَنَّ "فَعْلَى" لَا تُنَوَّنُ، وَهَذَا مِنْ نَحْوِ قَوْلِنَا: شَكُوْتُ شَكْوَى، وَأَمَّا مَنْ نَوَّنَ فَقَدْ نَظَرَ إِلَى الْأَلْفِ عَلَى أَنَّهَا لِلإِلْحَاقِ لَا لِلتَّنْوِينِ الْمُفْضِي إِلَى الْمَنْعِ مِنَ الصَّرْفِ؛ وَذَلِكَ نَحْوِ "أَرْطَى"، وَيَجُوزُ جَعْلُهَا مَصْدَرًا مِنَ الْمُوَاتَرَةِ الَّتِي هِيَ الْمُتَابَعَةُ بِغَيْرِ مُهَلَّةٍ، فَأَلْفُهُ فِي الْوَقْفِ بَدَلٌ مِنَ التَّنْوِينِ، وَالْمَعْنَى: وَتَرَا، فَأُبْدِلَتِ النَّاءُ مِنَ الْوَاوِ، كَمَا أُبْدِلَتِ فِي "ثُرَاث"<sup>(2)</sup>.

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ الْوَقْفُ عَلَى "أَبْتٍ"، فَقَدْ كَانَ ابْنُ مُحَيْصِنٍ يَقِفُّ عَلَيْهَا بِالْهَاءِ حَيْثُ وَقَعَتْ<sup>(3)</sup> مُوَافَقًا بِذَلِكَ ابْنَ كَثِيرٍ وَابْنَ عَامِرٍ<sup>(4)</sup>، وَحُجَّةٌ مَنْ وَقَفَّ عَلَيْهَا بِالْهَاءِ أَنَّهُ جَعَلَهَا بِمَنْزِلَةِ تَاءِ التَّنْوِينِ الَّتِي هِيَ مِنْ نَحْوِ "رَحْمَةٌ" وَ"تَعْمَةٌ"، وَالْوَقْفُ عَلَيْهَا يُفْضِي بِأَنَّ تُحْدَفَ النَّاءُ، وَقِيلَ: الْأَبُّ وَالْأَبَةُ لُغَتَانِ<sup>(5)</sup>.

وَكَذَلِكَ كَلِمَةُ "يَتَسَّنَّهُ"، فَقَدْ كَانَ يَقْرؤها بِغَيْرِ هَاءٍ فِي الْوَصْلِ، أَمَّا فِي الْوَقْفِ فَقَدْ كَانَ يَأْتِي بِالْهَاءِ السَّاكِنَةِ<sup>(6)</sup>، وَهَذِهِ قِرَاءَةُ حَمَزَةَ وَالْكَسَائِيِّ مِنَ السَّبْعَةِ، وَيَعْقُوبُ مِنَ الْعَشْرَةِ، وَقَرَأَهَا الْبَاقُونَ بِالْهَاءِ فِي الْوَصْلِ وَالْوَقْفِ<sup>(7)</sup>، وَيَتَجَلَّى مِنْ قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيْصِنٍ أَنَّ الْهَاءَ لَيْسَتْ مِنْ أَصُولِ الْكَلِمَةِ، وَإِنَّمَا جِيءَ بِهَا فِي الْوَقْفِ لِإِبْيَانِ حَرَكَةِ مَا قَبْلَهَا، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ هَاءَ السُّكُوتِ، وَلَمَّا

(1) انظر: الأزهرى، معاني القراءات، 323.

(2) انظر: الأزهرى، معاني القراءات، 323، والفارسي، الحجة، 295/5، وأبو حيان، البحر المحيط، 376/6، والبناء، الإتحاف، 404، وقد ذهب أبو حيان إلى أن ابن محيصة نون، ولكن الأهوازي

في "رواية ابن محيصة" قرر أنه لم ينون.

(3) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 8، والآيات هي: (يوسف، 4)، و(مريم، 42، 43، 44، 45)، و(القصص، 26)، و(الصافات، 102).

(4) انظر: ابن غلبون، التنكرة، 307، ومكي، الكشف، 3/2، والطبري، التلخيص، 293، والأنصاري، الإقناع، 412، وابن الجزري، النشر، 220/2، والبناء، الإتحاف، 328.

(5) انظر في هذا كله: الفارسي، الحجة، 392/4، ومكي، الكشف، 4/2، وأبو حيان، البحر المحيط، 280/5.

(6) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 3، والآية (البقرة، 259).

(7) انظر: الأزهرى، معاني القراءات، 85، وابن غلبون، التنكرة، 208، ومكي، الكشف، 307/1، والطبري، التلخيص، 220، وابن الجزري، النشر، 174/2، والبناء، الإتحاف، 208.

كَانَتْ إِثْمًا يُؤْتَى بِهَا فِي حَالِ الْوَقْفِ اسْتِغْنِي عَنْهَا فِي الْوَصْلِ، كَأَلْفِ الْوَصْلِ الَّتِي يُؤْتَى بِهَا لِلابْتِدَاءِ، فَإِذَا لَمْ يُبْتَدَأْ بِهَا، وَعَدَا الْكَلَامُ مَتَّصِلًا اسْتِغْنِي عَنْهَا<sup>(1)</sup>.

وَحُجَّةٌ مَنِ اثْبَتَ الْهَاءَ فِي الْحَالِيِّنِ أَنْ تَكُونَ الْهَاءُ مِنْ أَصُولِ الْكَلِمَةِ، وَسَكُونُهَا إِثْمًا بَاعْتُهُ الْجَزْمُ، فَلَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتِهَا فِي الْحَالِيِّنِ، وَعَلَى ذَلِكَ تَكُونُ الْكَلِمَةُ مُشْتَقَّةً مِنْ مَادَّةِ "س ن هـ"<sup>(2)</sup>، وَقَدْ رَجَّحَ هَذَا الْوَجْهَ الْفَرَّاءُ<sup>(3)</sup>، وَقَدْ ذَهَبَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى تَخْطِئَةِ مَنْ عَدَّهَا مِنْ "الْأَسْنِ"<sup>(4)</sup>.

### الْأَسْمَاءُ الْمَنْقُوصَةُ:

وَالْقَاعِدَةُ الْفُصْحَى فِي الْوَقْفِ عَلَى الْمَنْقُوصِ أَنْ الْيَاءُ تَسْقُطُ مِنْهُ إِذَا مَا كَانَ مُنَوَّنًا، وَأَنَّهَا تَبْقَى إِنْ كَانَ غَيْرَ مُنَوَّنٍ، وَتَحْتَ ذَلِكَ صُورٌ؛ كَأَنْ يَكُونَ مُعْرَفًا؛ كَقَوْلِنَا: "جَاءَ الْقَاضِي"، وَ"جَاءَ قَاضِي الْمَدِينَةِ"، أَوْ غَيْرَ مُنْصَرِفٍ؛ نَحْو: "جَوَارِي"، أَوْ مُنَادَى؛ نَحْو: "يَا قَاضِي"<sup>(5)</sup>، فَقَدْ أَظْهَرُوا فِي الْوَقْفِ حَيْثُ صَارَتْ فِي مَوْضِعِ غَيْرِ تَنْوِينٍ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُضْطَرُّوا هَهُنَا إِلَى مِثْلِ مَا اضْطَرُّوا إِلَيْهِ فِي الْوَصْلِ مِنَ الْاسْتِثْقَالِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مَوْضِعِ تَنْوِينٍ فَإِنَّ الْبَيَانَ أَجُودُ فِي الْوَقْفِ؛ وَذَلِكَ قَوْلُكَ: هَذَا الْقَاضِي، وَهَذَا الْعَمِي؛ لِأَنَّهَا ثَابِتَةٌ فِي الْوَصْلِ، وَمِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَحْذِفُ هَذَا فِي الْوَقْفِ"<sup>(6)</sup>.

وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيْصِنٍ أَنَّهُ كَانَ مِمَّنْ يُبْقُونَ عَلَى يَاءِ الْاسْمِ الْمَنْقُوصِ فِي الْوَقْفِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ وَقَفَ عَلَى "بَاقٍ" فِي قَوْلِ الْحَقِّ -تَقَدَّسَ اسْمُهُ-: "وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ" بِالْيَاءِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى إِثْبَاتِهَا بِالْوَصْلِ<sup>(7)</sup>، وَمِثْلُهَا كَلِمَةُ "هَادٍ" وَ"وَالٍ" وَ"وَاقٍ"، فَقَدْ كَانَ يَقْفُ عَلَيْهَا

(1) انظر: مكِّي، الكشف، 308/2.

(2) انظر: مكِّي، الكشف، 308/2، والكرماني، مفاتيح الأغاني، 120.

(3) انظر: الفراء، معاني القرآن، 172/1، والمعنى عنده: لم تغيِّره السنون.

(4) انظر: أبو عبيدة، مجاز القرآن، 80/1.

(5) انظر: السيوطي، الهمع، 387/3، ومذهب يونس اختيار حذفها؛ نحو: "يا قاضٍ". انظر: سيبويه،

الكتاب، 184/4.

(6) انظر: سيبويه، الكتاب، 183/4.

(7) الآية (النحل، 96)، وانظر الأهوازي، رواية ابن محيِّصن، 8ب.

بِالْيَاءِ<sup>(1)</sup>، وَقَدْ أُثْبِتَ الْيَاءُ فِي الْحَالَيْنِ: الْوَصْلِ وَالْوَقْفِ، فِي كَلِمَةِ "الْبَاد"<sup>(2)</sup>، أَمَا فِي "الْجَوَابِ"<sup>(3)</sup>، وَ"الْجَوَارِ"<sup>(4)</sup>، وَ"الدَّاعِ"<sup>(5)</sup>، وَ"فَانِ"<sup>(6)</sup>، فَقَدْ وَقَفَ عَلَيْهِنَّ بِالْيَاءِ.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْقُدَمَاءَ قَدْ عَرَّجُوا عَلَى هَذِهِ الظَّاهِرَةِ فِي مَبْحَثِ الْوَقْفِ، مُشِيرِينَ إِلَى أَثَرِ التَّبَايُنِ اللَّهْجِيِّ فِي تَنَوُّعِ هَيْئَاتِهِ، "وَمُقَابِلُ الْأَفْصَحِ فِي الْمُنُونِ لُغَةٌ قَوْمٌ يُثْبِتُونَ الْيَاءَ فِيهِ نَحْوُ: هَذَا قَاضِي، وَغَازِي، وَبِهَا قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَوَرِثَ فِي أَحْرَفٍ، وَمُقَابِلُهُ فِي الْمَعْرِفِ بِاللَّامِ لُغَةٌ قَوْمٌ يَحْذِفُونَ الْيَاءَ مِنْهُ، وَعَلَى هَذِهِ اللَّغَةِ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: "الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ"<sup>(7)</sup>.

وَلَكِنَّ ابْنَ مُحَيْصِنٍ قَدْ حَذَفَ الْيَاءَ مِنْ "الْمُهْتَدِ" فِي الْحَالَيْنِ<sup>(8)</sup>، وَلَعَلَّ هَذَا يَدُلُّ دِلَالَةً قَطْعِيَّةً النَّبُوتِ أَنَّ الْقُرْآنَ سَنَةٌ مَتَّبَعَةٌ، وَإِنْ كَانَ يَغْلُبُ عَلَى قِرَاءَتِهِ أَنَّهُ مِمَّنْ يُؤَثِّرُ إِبْقَاءَ الْيَاءِ فِي حَالِ الْوَقْفِ، وَلَعَلَّ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى تَأْمَلٍ وَاسْتِدْرَاكِ أَنَّ "الْيَاءَ" فِي قِرَاءَتِهِ "الْمُهْتَدِ" لَا تَسْقُطُ فِي الْوَصْلِ، وَلَعَلَّ وَصَلَ الْكَلَامَ يُفْضِي إِلَى تَقْصِيرِهَا لِتَغْدُو حَرَكَةً قَصِيرَةً كَالْكَسْرَةِ، وَلِذَلِكَ كُلُّهُ، لَيْسَ يَصِحُّ فِي الْفَهْمِ وَلَا يَسْتَقِيمُ الْقَوْلُ إِنَّهُ حَذَفَ الْيَاءَ فِي الْحَالَيْنِ، صَحِيحٌ أَنَّهُ حَذَفَهَا فِي الْوَقْفِ هَهُنَا، وَهَذَا لَا شَيْءَ عَلَيْهِ وَلَا شُبْهَةَ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُحَذَفْ فِي الْوَصْلِ، وَمِنْ مِثْلِ الْأُولَى قِرَاءَتُهُ "الْمُتَعَالِ"<sup>(9)</sup>، فَقَدْ أَشَارَ الْأَهْوَازِيُّ إِلَى أَنَّهُ حَذَفَ الْيَاءَ "قَصَرَهَا" فِي الْوَصْلِ<sup>(10)</sup>.

### صَفْوَةُ الْمُسْتَخْلَصِ:

وبعد، فهذا نظرٌ بحثيٌ فُصِدَ مِنْهُ التَّعْرِيجُ عَلَى ظَوَاهِرِ نَحْوِيَّةٍ مَخْصُوصَةٍ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيْصِنِ الْمَكِّيِّ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْبَاحِثَ انْتَهَى إِلَى جَمَلَةٍ مِنْ مَلَاحِجِ قِرَاءَةِ ابْنِ مُحَيْصِنِ، وَهِيَ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

(1) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 8ب، والكلمات من سورة الرعد (7، 11، 37).

(2) الآية (الحج، 25)، وانظر رواية ابن محيصة، 10أ.

(3) الآية (سبأ، 13)، وانظر رواية ابن محيصة، 12أ.

(4) الآية (الشورى، 32)، وانظر رواية ابن محيصة، 12ب.

(5) الآية (القمر، 8)، وانظر رواية ابن محيصة، 13ب.

(6) الآية (الرحمن، 26)، وانظر رواية ابن محيصة، 14أ.

(7) انظر: السيوطي، الهمع، 388/3.

(8) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 9أ، والآية (الإسراء، 97، والكهف، 17).

(9) الآية (الرعد، 9)، وهي "عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال".

(10) انظر: الأهوازي، رواية ابن محيصة، 8ب.

بدا لي أن تلكم الظواهر - وقد تقدم هذا قبلاً - متعدّدة مُفرّقة في المخطوط وبعض كتب القراءات، والسبيل إلى تحقيق هذا المبتغى جمعها تحت عُنوانات دالة.

وقد بدا لي مما وقف عنده بالتجلية والشرح في هذه المباحثة سبب ظواهر عريضة يستطيع المُتدبّر أن يرسم بها معالم رئيسة في قراءة ابن مُحِيسِن:

**أولها: ظاهرة الاجتزاء الظاهر والمقدّر.**

أما الأول فله هيئات يتجلى عليها:

- ومن ذلك اجتزاء حروف المعاني.
- واجتزاء حركة الإعراب.
- واجتزاء من بنية الكلمة نفسها.

**وثانيها: التعلّق:**

- كاشتباها تعلّق الاسم الموصول بمرجعين مُتقدّمين.
- والصفة بموصوفين.
- والحال بصاحبين.
- واشتباها تعيين المُستثنى منه، والتوكيد.

**وثالثها: تعاوُر حروف المعاني.**

وقد تبين أن له ثلاثة أشكال، وهي:

- تعاوُر المعاني والمباني.
- وتعاوُر المعاني دون المباني.
- وتعاوُر المباني دون المعاني.

**ورابعها: الحمل على المعنى.**

**وخامسها: أثر تغيّر صيغة الفعل في السياق البنيوي.**

فَتَبَايُنُ صِيغَةِ الْفِعْلِ يُفْضِي إِلَى تَبَايُنِ الْمَعْنَى النَّحْوِيَّةِ، كَالْفَاعِلِيَّةِ وَالْمَفْعُولِيَّةِ، أَوْ تَرَدُّدِ الْفِعْلِ بَيْنَ الْخِطَابِ وَالْغَيْبِيَّةِ، أَوْ الْغَيْبِيَّةِ وَالنِّكْمِ، أَوْ التَّعْدِي وَاللِّزُومِ، وَهَذَا كُلُّهُ يُؤَثِّرُ فِي السِّيَاقِ الْبِنْيَوِيِّ.

### وسادسها: الوقف.

وقد كان على صريين: بين حدود الجمل، وبين حدود الكلمات. وقد تردّد الباحث في مناقشته ما تقدّم بين العرض؛ عرض الظواهر، والتحليل، والمقابلة بين القراءات.

وقد بدا أنّ قراءة ابن محيصن تلتقي في كثير من وجوها بالقراءات السبع عامّة، فقد تكون قراءته في مواضع موافقة لقارئ واحد من السبعة، وأحياناً لاثنتين، أو لثلاثة، وقد تكون موافقة لواحد أو اثنتين من العشرة، وقد تكون موافقة لواحد، أو اثنتين من الأربعة، وقد يتفرّد ابن محيصن في قراءته، كل ذلك تقدّم فضل بيانٍ يجليه في المباحثات المتقدمة.

وقد بدا لي أيضاً أنّ قراءة ابن محيصن توافق قراءة ابن كثير خاصّة، ولعلّ الباعث على ذلك أنهما مكّيان كما تقدّم، ولعلّ هذا هو الذي أذن بعد الأندرابي ابن محيصن من القراء العشرة المعروفين، مخالفاً بذلك القسمة المعهودة التي ينصوي تحتها أعلام القراء العشرة.

وقد بدا أنّ قراءة ابن محيصن شاذّة، ومرّد ذلك إلى أنها خالفت أصلاً من أصول المحتكمات التي يُفاء إليها عند التقرير بصحة قراءة أو لا، وهو الرّسم القرآني، وقد تقدّم ذلك.

وبعد، فأمل أن يكون هذا البحث مُفتتحةً لأبحاثٍ أُخرى يُستشرف فيها، على نحو تكامليّ، الظواهر الصرفيّة والمعجميّة في قراءة ابن محيصن، والله الموقّق والهادي سواء السبيل.

### ثبت المصادر والمراجع:

#### أ. المخطوطة:

- الأهوازي، الحسن بن علي(446هـ)، رواية الحسن البصري وأبي عبد الله محمد ابن محيصر السهمي، مكتبة دار إحياء التراث الإسلامي، القدس الشريف، (رقم المخطوط 70).

#### ب. المطبوعة:

- ابن الأبرازي، أحمد بن جعفر الغافقي(569هـ)، رواية أبي عمرو بن العلاء البصري، ط1، تحقيق سر الختم الحسن عمر، دار عمار، عمان، 2001م.
- أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، 1991م.
- أحمد ياقوت، ظاهرة الإعراب في النحو العربي، وتطبيقاتها في القرآن الكريم، دار المعرفة، الجامعة الإسكندرية، 1990م.
- الأخفش، أبو الحسن سعيد بن مسعدة(215هـ)، معاني القرآن، تحقيق هدى قراعة، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990م.
- الأزهري، أبو منصور محمد(370هـ)، معاني القراءات، تحقيق أحمد المزيدي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.
- الأسترابادي، رضي الدين محمد بن الحسن(686هـ)، شرح كافية ابن الحاجب، تحقيق إميل يعقوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.

- أمل العمري، تحليل الظواهر الصوتية في قراءة ابن محيصة المكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد، 2001م.
- ابن الأنباري، أبو البركات عبدالرحمن بن محمد (577هـ)، البيان في غريب إعراب القرآن، ضبطه بركات هبود، ط1، دار الأرقم، بيروت، 2000م.
- ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم (328هـ)، إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، تحقيق محيي الدين رمضان، ط1، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1971م.
- الأندراي، أحمد بن أبي عمر (5--هـ)، قراءات القراء المعروفين بروايات الرواة المشهورين، تحقيق أحمد الجنابي، ط2، مؤسسة الرسالة، 1985م.
- الأنصاري، أبو يحيى زكريا بن محمد (926هـ)، المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء، ط2، دار المصحف، دمشق، 1985م.
- الأهوازي، الحسن بن علي (446هـ)، مفردة الحسن البصري: تحقيق ودراسة، تقي الدين مصطفى التميمي، (رسالة ماجستير)، جامعة الخليل، فلسطين، 2002م.
- البناء، أحمد بن محمد الدمياطي (1117هـ)، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، وضع حواشيه أنس مهرة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- ابن الجزري، محمد بن محمد (833هـ)، غاية النهاية في طبقات القراء، ط1، تحقيق برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م.
- ابن الجزري، محمد بن محمد (833هـ)، منجد المقرئين ومرشد الطالبين، ط1، مكتبة القدسي، القاهرة، 1996م.
- ابن الجزري، محمد بن محمد (833هـ)، النشر في القراءات العشر، ط1، تقديم علي الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (392هـ)، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق محمد عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- أبو حيان الأندلسي، أثير الدين محمد بن يوسف (745هـ)، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م.
- ابن خالويه، الحسين بن أحمد (370هـ)، الحجة في القراءات السبع، تحقيق أحمد المزدي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.
- ابن خلف الأنصاري، أبو جعفر أحمد (540هـ)، الإقناع في القراءات السبع، تحقيق أحمد المزدي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.



- الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد (444هـ)، التيسير في القراءات السبع، تصحيح أوتوبرتزل، إستانبول، 1930م.
- الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد (444هـ)، المكتفى في الوقف والابتداء، ط1، تحقيق جابر زيدان مخلف، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، 1983م.
- الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، ط1، تحقيق بشار عواد وآخرين، مؤسسة الرسالة، 1984م.
- الرعيني، أبو عبد الله محمد بن شريح (476هـ)، الكافي في القراءات السبع، تحقيق أحمد محمود الشافعي، ط1، دار الكتب العلمية، 2000م.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، 1987م.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (538هـ)، الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط1، دار الفكر، القاهرة، 1977م.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (180هـ)، كتاب سيبويه، تحقيق عبدالسلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م.
- السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر (911هـ)، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، إشراف عبدالمنعم إبراهيم، ط2، مكتبة نزار الباز، الرياض، 1998م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (911هـ)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- صاحب أبو جناح، الظواهر اللغوية في قراءة الحسن البصري، دار الفكر، ط1، عمان، 1999م.
- الصبان، محمد بن علي (1206هـ)، حاشية الصبان على شرح الأشموني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
- الطبري، أبو معشر عبد الكريم (478هـ)، التلخيص في القراءات الثماني، تحقيق محمد حسن موسى، ط1، (د.ن)، جدة، 1992م.
- عبد الفتاح القاضي، القراءات الشاذة، القراءات الشاذة، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 1981م.
- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (616هـ)، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي البجاوي، ط2، دار الجيل، بيروت، 1987م.

- أبو الفلاح ابن العماد الحنبلي (1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط2، دار المسيرة، بيروت، 1979م.
- غانم قدوري، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ط1، دار عمار، 2003م.
- ابن غلبون، طاهر بن عبد المنعم (399هـ)، التذكرة في القراءات، تحقيق سعيد زعيمة، دار ابن خلدون، الإسكندرية، 2001م.
- الفارسي، الحسن بن عبد الغفار (377هـ)، الحجة للقراء السبعة، تحقيق بدر الدين قهوجي وآخرين، ط1، دار المأمون للتراث، دمشق، 1987م.
- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (207هـ)، معاني القرآن، تحقيق أحمد نجاتي، ومحمد النجار، الدار المصرية، القاهرة، 1955م.
- القسطلاني، شهاب الدين أحمد بن محمد (923هـ)، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق عامر السيد عثمان، وعبد الصبور شاهين، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1972م.
- الكرمانى، أبو العلاء (563هـ)، مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ط1، تحقيق عبد الكريم مدلج، دار ابن حزم، بيروت، 2001م.
- ابن مجاهد، أحمد بن موسى (324هـ)، السبعة في القراءات، ط2، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- الإمام محمد الحسن بن علي (-5)، القراءات الثماني للقرآن الكريم، تحقيق إبراهيم عوض وأحمد صقر، المجموعة الصحفية للدراسات والنشر، ط1، 1995م.
- محمد خاروف، الميسر في القراءات الأربعة عشرة، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 1995م.
- محمد القضاة وآخرون، مقدمات في علم القراءات، ط1، دار عمار، عمان، 2001م.
- محمد محيسن، المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة، ط2، دار الجيل، بيروت، 1988م.
- محمود الصغير، القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، 1999م.
- ابن أبي مريم (565هـ)، الموضح في وجوه القراءات وعللها، ط1، تحقيق عمر الكبيسي، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن، جدة، 1993م.
- المرزّي، جمال الدين يوسف (742هـ)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ط1، تحقيق بشار معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998م.

- مكي بن أبي طالب(437هـ)، الإبانة عن معاني القراءات، ط1، تحقيق محيي الدين رمضان، دار المامون، دمشق، 1979م.
- مكي بن أبي طالب(437هـ)، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، تحقيق محيي الدين رمضان، ط5، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م.
- منيرة العلولا، الإعراب وأثره في ضبط المعنى، دراسة نحوية قرآنية، ط1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993م.
- النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد (338هـ)، إعراب القرآن، تحقيق زهير زاهد، ط3، عالم الكتب، ومكتبة النهضة العربية، بيروت، 1988م.
- النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد(338هـ)، القطع والائتلاف، تحقيق أحمد العمر، ط1، مطبعة العاني، بغداد، 1978م.

### لغة الجسد في النص القرآني الشريف أمثلة جزئية وموجهات كلية

يظهر من هذا العنوان أنه قائم على ثلاثة أقطابٍ مؤسسية، أولها لغة الجسد، وثانيها النص القرآني، وثالثها نماذج جزئية تعقبها موجهات كلية، أما لغة الجسد فهي باب القول ومطلب البحث، وأما النص القرآني فمضمار البحث وميدانُه، وأما النماذج الجزئية فهي أمثلة البحث وأدواته المجلية، وأما الموجهات الكلية فهي صفوفه المستخلص لما ورد في البحث من فكرٍ ومباحث فرعية، وقد هدَفَ الباحثُ إلى تمثيل "لغة الجسد" في النص القرآني الشريف، فوقفَ عندَ مباحث فرعية فيه أهمها تلمسُ الدلالة بين جسد اللغَة ولغَة الجسد، وتلمسُ دلالات حركة الرأس وهيئاته، ودلالات حركة العين وهيئاتها، ودلالات حركة اليد، والوجه وإيحاءاته، وحركة الأصابع، والمشية وأنواعها وإيحاءاتها، والتميمات المساندة في لغة الجسد.

### في مقاصد العُنوان:

يُظهِرُ مِنْ هَذَا الْعُنْوَانِ الْعَرِيضِ أَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْطَابٍ مُؤَسَّسَةٍ:

- أَوْلَاهَا لُغَةُ الْجَسَدِ.
- وَثَانِيهَا النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ الشَّرِيفُ.
- وَثَالِثُهَا نَمَازِجُ جُرَيْيَّةٍ تَعْقُبُهَا مُوجَّهَاتٌ كَلْبِيَّةٌ.

أَمَّا لُغَةُ الْجَسَدِ فَهِيَ بَابُ الْقَوْلِ وَمَطْلَبُ هَذِهِ الْمُبَاحَثَةِ، وَأَمَّا النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ فَمِضْمَارُ الْمُبَاحَثَةِ وَمِيدَانُهَا، وَأَمَّا النَّمَاذِجُ الْجُرَيْيَّةُ فَهِيَ أَمْتَلَةُ الْمُبَاحَثَةِ وَأَدْوَاتُهَا الْمَجَلِّيَّةُ، وَأَمَّا الْمَوْجَّهَاتُ الْكَلْبِيَّةُ فَهِيَ صَفْوَةُ الْمُسْتَخْلَصِ لِمَا وَرَدَ فِي الْمُبَاحَثَةِ مِنْ فِكْرٍ وَمَبَاحَثٍ فَرَعِيَّةٍ.

### تَلَمَّسُ الدِّالَّةَ بَيْنَ لُغَةِ الْجَسَدِ وَجَسَدِ اللَّغَةِ:

#### أَوَّلًا: جَسَدُ اللَّغَةِ

مِنَ الْمَقَرَّرِ الْمُسْتَحْكَمِ أَنَّ لِلُّغَةَ جَسَدًا بِنْيَوِيًّا يَشْفُ عَنْ مَعْنَى، وَأَنَّ هَذَا الْجَسَدَ مُؤْتَلَفٌ مِنْ مُسْتَوِيَّاتٍ لُغَوِيَّةٍ، وَأَنَّ كُلَّ مُسْتَوَى مِنْ تِلْكَ الْمُسْتَوِيَّاتِ يُفْضِي إِلَى مَعْنَى قَائِمٍ بِرَأْسِهِ، فَتَمَّ مُسْتَوَى صَوْتِيَّ يَنْبِئُ عَنْ دِلَالَةِ صَوْتِيَّةٍ، وَتَمَّ مُسْتَوَى صَرْفِيَّ تَنْشَكُلُ فِيهِ دِلَالَةٌ صَرْفِيَّةٌ، وَتَمَّ مُسْتَوَى مُعْجَمِيَّ تَنْشَكُلُ فِيهِ دِلَالَةٌ مُعْجَمِيَّةٌ، وَتَمَّ مُسْتَوَى تَرْكِيْبِيَّ يُمَكِّنُ اسْتِشْرَافَ دِلَالَةِ تَرْكِيْبِيَّةٍ فِيهِ، وَبِاسْتِجْمَاعِ تِلْكَ الْمُسْتَوِيَّاتِ جَنَّبًا إِلَى جَنْبٍ يَغْدُو النَّاتِجُ جَسَدَ اللَّغَةِ الْبِنْيَوِيِّ، وَبِاسْتِجْمَاعِ تِلْكَ الدِّالَاتِ يَغْدُو النَّاتِجُ الْمَعْنَى الْبِنْيَوِيِّ.

وَلَكِنْ، مَنْ ذَا الَّذِي يُقْنَعُ اللَّغَوِيَّ أَنَّ الْمَعْنَى إِنَّمَا هُوَ مُتَعَيَّنٌ مِنَ الدِّالَاتِ الْمُتَعَيَّنَةِ فِي تِلْكَ الْمُسْتَوِيَّاتِ فَقَطْ، أَوْ مِنَ الْمُتَحَصَّلِ مِنْ جَسَدِ اللَّغَةِ الْمَوْسُومِ آيَفًا؟ إِنَّ مَا يَقْدَمُهُ جَسَدُ اللَّغَةِ الْبِنْيَوِيِّ إِنَّمَا هُوَ الْمَعْنَى الْبِنْيَوِيُّ الْمَقَالِيُّ فَقَطْ، وَالْجَسَدُ لَا بَدَّ لَهُ مِنْ مُحِيطٍ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ، وَيُؤَثِّرُ

فيه، ومن هنا يأتي فضل سياق الحال، والأنظار الخارجية، والقرائن، لتفعل فعلها في تشكيل المعنى، وبذا يكون المعنى مؤتلفاً من الزافدين: المعنى المقالي، والمعنى المقامي<sup>(1)</sup>.

لعل هذه المباحثة في الشق الأول من الثنائيات الدلالية، وهي "جسد اللغة"، تُفسي بالباحث إلى الولوج في الشق الثاني منها، وهي "لغة الجسد".

### ثانياً: لغة الجسد

أما لغة الجسد، ولنتواضع عليها في هذه المباحثة بأنها الرافد الصامت المُفسي إلى معنى بل معانٍ، فهي لغة عالمية، ولنا أن نشبه المعنى بأن له روافد تُغذيها، وأن هذه الروافد كالمجاري، فمنها المجرى الصائت، وهو الكلام الذي تتشكل به الرسالة فينعقد به التواصل، ومنها المجرى الصامت الذي عليه عقد الباب والموضوع، وقد تنقل الرسالة بالمجى الصائت، وقد يكون ذلك بتصافر المجريين، وقد يُعدى المعنى برافد المجرى الصامت.

وقد ألقى باحث أن تأثير الرسالة الكلي يتقسم إلى ثلاثة أقسام:

- أولها 7% من المجرى الصائت.
- و 38% مما يعترى المجرى الصائت؛ كالتنغيم، والتغمة، ودرجة الصوت.
- و 55% من المجرى الصامت<sup>(2)</sup>.

وقد توصل آخر إلى مُستصفي من الرأي يقرب من هذا المُتقدم، فقد ألمح إلى أن الجزء الكلامي من المحادثة الوجيهة تأتلف في جزئها الأصغر من 35% من الرافد الصائت لتأدية المعنى، وفي جزئها الأكبر من 65% من الرافد الصامت القائم على أطراح الكلام، واسترْفاد ما يقوم مقامه من حركات الجوارح، والشمائل، والإشارات<sup>(3)</sup>.

وللإمام الغزالي نظرات مُعجبة في تلمس أثر لغة الجسد في الإبانة، وتقدّمها في مواضع على "جسد اللغة"، وقد أشار إلى أن المعنى لا يُؤخذ من جسد اللغة فقط، فهناك لغة الجسد، وهناك الأنظار الخارجية والسياقية، فالمعنى عند الإمام كلُّ متكامل له روافد مُتعددة

(1) انظر: تمام حسان، اللغة العربية: معناها ومبناها، 337 وما بعدها.

(2)

Pease, Body language, P. 6.

(3) Pease, Body Language, P.5.

تُفْضِي إِلَيْهِ، وَيُظْهِرُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ الْمَشْهُورَةِ وَهُوَ يَلْحَبُ السَّبِيلَ أَمَامَ دَارِسِي الْمَعْنَى: "فَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ الْمَعْنَى أَوْلًا مِنَ الْأَلْفَاظِ ضَاعَ وَهَلَكَ، وَكَانَ كَمَنْ اسْتَدْبَرَ الْمَغْرِبَ وَهُوَ يَطْلُبُهُ"<sup>(1)</sup>.

وَقَدْ رَأَى أَنَّ الدَّلَالََةَ قَدْ تَتَعَيَّنُ أحيانًا بِالْفِعْلِ، وَالرَّمْزِ، وَالْإِشَارَةِ<sup>(2)</sup>، وَلِذَلِكَ أَفَاضَ فِي حَدِيثِهِ عَنِ الْقَرَّائِنِ، وَمِنْهَا حَرَكَاتُ الْجَوَارِحِ الْمُعْبَّرَةُ بِلُغَةِ الْجَسَدِ، وَقَدْ عَرَّجَ الْغَزَالِيُّ، غَيْرَ مَرَّةٍ، عَلَيْهَا فِي مُسْتَصْفَاهُ، فَجَعَلَهَا دَوَالًّا مُسْتَقَلَّةً تَفْعَلُ فِي تَشْكِيلِ الْمَعْنَى، بَلْ وَصَلَ الْأَمْرُ بِهِ إِلَى عَتَبَةِ إِنْكَارِ كَوْنِهَا تَابِعَةً لِلْأَلْفَاظِ كَمَا فِي مَذَاهِبِ بَعْضِ الْأَصُولِيِّينَ<sup>(3)</sup>، "فَمَنْ سَلَّمَ أَنَّ حَرَكَةَ الْمُتَكَلِّمِ، وَأَخْلَاقَهُ، وَعَادَتَهُ، وَتَغْيِيرَ لَوْنِهِ، وَتَقْطِيبَ وَجْهِهِ وَجَبِينِهِ، وَحَرَكَةَ رَأْسِهِ، وَتَقْلِيبَ عَيْنَيْهِ، تَابِعٌ لِلْفِظَةِ؟ بَلْ هَذِهِ أَدَلَّةٌ مُسْتَقَلَّةٌ يَفِيدُ اقْتِرَانُ جَمَلَةٍ مِنْهَا عِلْمًا ضَرُورِيَّةً"<sup>(4)</sup>.

وَمِنْ هَذِهِ الْأَدَلَّةِ الْمُسْتَقَلَّةِ الَّتِي عَرَضَ لَهَا الْإِمَامُ أَنَا نَعْرِفُ عَشْقَ الْعَاشِقِ لَا يَقُولُهُ، بَلْ بِأَفْعَالٍ هِيَ مِنْ أَفْعَالِ الْمُحِبِّينَ، وَمَا كَانَ أَكْثَرَهَا وَأَجْلَاهَا لِمَنْ تَبَصَّرَ، وَتَنْتَهَى كَثْرَةُ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ إِلَى حَدِّ يَحْصُلُ لَنَا عِلْمٌ قَطْعِيٌّ بِحَبِّهِ، وَكَذَلِكَ بِبُغْضِهِ، إِذَا رُؤِيتُ مِنْهُ أَفْعَالٌ يُنْتَجِهَا الْبِغْضُ، وَكَذَلِكَ نَعْرِفُ غَضَبَهُ وَخَجَلَهُ لَا بِمَجْرَدِ حُمْرَةِ وَجْهِهِ، لَكِنَّ الْحُمْرَةَ إِحْدَى الدَّلَالَاتِ<sup>(5)</sup>، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْقَرَّائِنِ -بِعِبَارَةِ الْغَزَالِيِّ- الَّتِي "لَا يُمْكِنُ حَصْرُهَا فِي جِنْسٍ، وَلَا ضَبْطُهَا فِي وَصْفٍ"<sup>(6)</sup>.

وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ اللَّغَةَ الصَّامِتَةَ الْعَالَمِيَّةَ تُشْبَهُ فِي بَعْضِ وُجُوهِهَا اللَّغَةَ الصَّائِتَةَ، وَلَيْسَ الدَّارِسُ بِمُبَالِغٍ لَوْ قَالَ إِنَّ بَعْضَ الظَّوَاهِرِ الَّتِي تَتَجَلَّى فِي جَسَدِ اللَّغَةِ تَتَجَلَّى فِي لُغَةِ الْجَسَدِ، وَلَأَكْتَفِ بِبَعْضِ الْأَمْثَلَةِ عَلَى ذَلِكَ، وَأَوَّلُهَا "نَظْرِيَّةُ الدَّالِّ وَالْمَدْلُولِ"، فَلِلْكَلِمَةِ الْمُعْجَمِيَّةِ جَانِبَانِ: مَادِّيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ، أَمَّا الْمَادِّيُّ فَهُوَ الدَّالُّ، وَهُوَ الصُّورَةُ الصَّوْتِيَّةُ، وَأَمَّا الْمَعْنَوِيُّ فَهُوَ الْمَدْلُولُ، وَهُوَ الصُّورَةُ الذَّهْنِيَّةُ الَّتِي تَتَقَدِّحُ فِي النَّفْسِ عِنْدَ وُرُودِ الدَّالِّ عَلَيْهَا، وَالْحَقُّ أَنَّ الْحَرَكَةَ الْجَسَدِيَّةَ كَذَاكَ أَمْرُهَا؛ إِذْ إِنَّ لَهَا دَالًّا وَمَدْلُولًا.

(1) انظر: الغزالي، المستصفى، 55/1.

(2) انظر: الغزالي، المستصفى، 698/1.

(3) انظر: الغزالي، المستصفى، 66/2.

(4) انظر: الغزالي، المستصفى، 67/2.

(5) انظر: الغزالي، المستصفى، 40/1.

(6) انظر: الغزالي، المستصفى، 65/2.

أما الدالُّ فهو الصورة التشكيلية التي تتجلى عليها الحركة؛ حركة الكفِّ، أو اليد، أو العين، أو الحاجب، أو الوقفة... وأما المدلولُ فهو الصورة الذهنية المعنوية التي تسترشد دلالتها من الدالِّ الحركيِّ، فكلتاها - أعني الكلمة في اللغة الصائتة، والحركة في اللغة الصامتة (الجسدية) - تأتلف من دالٍّ ومدلولٍ، والملمَّحُ الفراقُ بينهما غيرُ مُتعيَّنٍ في المدلولِ، بل في ماهية الدالِّ؛ إذ إنه في الصائتة صوتيُّ ذو طبيعة رمزية، وفي الصامتة حركيُّ ذو طبيعة رمزية أيضًا<sup>(1)</sup>.

ومن مواضع التشابه بين اللغتين ظاهرة المُشترك اللفظيِّ، فقد يحدث أن يقع تحت الكلمة معنيان أو أزيد، لتعدو مما ينتسب إلى المُشترك اللفظيِّ كالعين، فإن الحركة الجسدية قد يقع تحتها معنيان أو أزيد، فتنتسب إلى ظاهرة "المُشترك الحركيِّ":

- فهزة الرأس يقع تحتها معانٍ متعددة، ومن ذلك "الطرب"، أو "القبول"، أو "الرفض".
- والدالُّ "فرك الكفين" قد يوميئ بمدلولين: أولهما أن صاحب هذه الحركة قد اعتراه بردٌ فأتاها، وثانيهما أنه فرح مُبتهج.
- وتحريك أصابع اليد إلى الأعلى والأسفل حركة موضعية مع بقاء الإبهام مرفوعةً ذو دلالاتٍ متعددة، ومن ذلك أنها تقوم مقام النداء، أو تعال، وقد تعني: ليس لدي، أو غير موجود، أو تعني الرفض كقولنا "لا".

وللسياق فضلٌ في تعيين المعنى في اللغة الصائتة، وكذلك الحال في اللغة الصامتة، أعني لغة الجسد، فنمَّ حركات جسدية محتملة لمعانٍ لا قبل لنا باستشراق مدلولها على وجه الأحكام والتعيين إلا بالسياق الذي يرد فيه هذا الدالُّ الحركيُّ؛ كالسياق الثقافيِّ، والحاليِّ، والقرائن الاجتماعية التي تحتفُّ بها؛ وذلك نحو حكِّ الرأس، فهي حركة جسدية مُشتركة تستدعي معاني مخصصة في الذهن، ومن ذلك أنها قد تدلُّ على أن آتيها في رأسه قشرة، أو قمل، أو أذى، وقد تدلُّ على قلق المرء واضطرابه، فيفضي هذا الاضطراب النفسيِّ الجواني إلى إيماءٍ جسميِّ برانيِّ، وقد تدلُّ من وجهة دلالية أُخرى - على نقاد الصبر، أو النسيان، أو الكذب...

(1) انظر: مهدي عرار، لغة الجسم وأثرها في الإبانة: نماذج من التراث اللغوي والبلاغي، مجلة دراسات،



إِخَالٌ أَنَّهُ يَصِحُّ فِي الْفَهْمِ وَيُسْتَقِيمُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ الْمَرَّةَ إِذَا مَا أَرَادَ أَنْ يُعَيِّنَ مَعْنَى حَرَكَةٍ مَا فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا فِي سِيَاقِهَا مُتَصَافِرَةً مَعَ حَرَكَاتٍ أُخْرَى، وَلَعَلْنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ نَتَحَدَّثُ عَنِ سِيَاقِ الْحَالِ الَّذِي يَفْعَلُ فِي تَشْكِيلِ الْمَعْنَى وَتَعْيِينِهِ<sup>(1)</sup>.

وَكَمَا أَنَّ الْمَعْنَى الْوَاحِدَ قَدْ يَعْتَوِرُهُ كَلِمَتَانِ، بَلْ كَلِمَاتٌ، لِيَنْشَأَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ التَّرَادُفُ، فَإِنَّ طَائِفَةً مِنَ الْحَرَكَاتِ قَدْ تَلْتَقِي عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، لِيَنْشَأَ بَعْدَ هَذَا "التَّرَادُفُ الْحَرَكَيُّ"، وَمِنْ ذَلِكَ مَعْنَى الرَّفْضِ، فَلَهُ دَالَانٌ أَوْ أَزِيدٌ، كَالرَّفْضِ بِهَوَّةٍ فِي الرَّأْسِ، وَالرَّفْضِ بِالْإِشَارَةِ بِالْيَدِ، وَالرَّفْضُ بِرَفْعِ الْحَاجِبِينَ إِلَى الْأَعْلَى مَعَ تَوْسِعِ الْعَيْنَيْنِ، فَحَرَكَةُ كُلِّ جَارِحَةٍ كَفَيْلٍ أَمِينٍ بِتَأْدِيَةِ الْمَعْنَى الَّذِي قَدْ تَأْتِي بِهِ اللَّغَةُ الصَّامِتَةُ. لَعَلَّهُ يَظْهَرُ بِجَلَاءٍ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ بَعْضَ النَّظَرِيَّاتِ الدَّلَالِيَّةِ وَالْمُعْجَمِيَّةِ يُمَكِّنُ جِدًّا أَنْ تُطَبَّقَ عَلَى لُغَةِ الْجَسَدِ، كَالتَّرَادُفِ، وَالْمُشْتَرَكِ، وَالسِّيَاقِ<sup>(2)</sup>.

### لُغَةُ الْجَسَدِ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ:

يُفِي الْقَارِئُ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ آيَاتٍ كَرِيمَاتٍ تَشْتَمِلُ عَلَى أَوْصَافٍ مِنَ الْحَرَكَاتِ الْجَسَدِيَّةِ الْمُؤَدِّيَّةِ إِلَى مَعَانٍ، وَقَدْ تَكُونُ تِلْكَ الْحَرَكَةُ سَبِيلًا مِنْ سُبُلٍ وَصَفِ الْمَعْنَى وَتَشْكِيلِهِ، وَتَكُونُ سَبِيلًا كِنَايَةً، كَتَقْلِيْبِ الْكَفَّيْنِ فِي مَقَامِ النَّدَمِ فِي التَّنْزِيلِ، أَوْ تَقْدِيمِ رِجْلٍ وَتَأْخِيرِ أُخْرَى فِي مَقَامِ الْحَيْرَةِ وَالتَّرَدُّدِ فِي كَلَامِنَا الْيَوْمِيِّ، وَقَدْ أُجْمِعَ عَلَى أَنَّ "الْكِنَايَةَ أَبْلَغُ مِنَ الْإِفْصَاحِ، وَالتَّعْرِيفِ أَوْقَعُ مِنَ التَّصْرِيحِ، وَأَنَّ لِبَلَاغَةِ مَزِيَّةً وَفَضْلًا"<sup>(3)</sup>، وَلَوْ قِيلَ: أَرَأَيْتَ تَقْدِيمَ رِجْلًا وَتَأْخِيرَ أُخْرَى فَإِنَّ الْقَائِلَ -كَمَا يَرَى الْجُرْجَانِي- يُوْحِي لَهُ بِالصُّورَةِ الَّتِي يَقْطَعُ مَعَهَا بِالتَّحْيِيرِ وَالتَّرَدُّدِ، "وَكَانَ هَذَا أَوْقَعُ مِنْ صَرِيحِهِ الَّذِي هُوَ قَوْلُكَ: بَلَّغْنِي أَنَّكَ تَتَرَدَّدُ فِي أَمْرِكَ، وَأَنَّكَ كَمَنْ يَقُولُ: أَخْرُجْ أَوْ لَا أَخْرُجْ..."<sup>(4)</sup>.

وَقَدْ يَكُونُ ذِكْرُ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ عَلَى سَبِيلِ وَصْفِ حَقِيقَةٍ عَاشَهَا قُطْبٌ مِنْ أَقْطَابِ الْحَدِيثِ أَوْ الْحَدِيثِ الْكَلَامِيِّ؛ ذَلِكَ أَنَّهَا وَقَعَتْ فِعْلًا؛ ثُمَّ وَصَفَهَا اللَّهُ لَنَا عَلَى أَنَّهَا كَوَاشِفُ لِحَالَاتِ نَفْسِيَّةٍ، وَمِنْهَا دَلَالَاتُ حَرَكَةِ الرَّأْسِ وَهَيْئَتُهُ؛ كَالرَّأْسِ الْخَفِيفِ الْمُتَطَامِنِ، وَتَلْوِيَةِ الرَّأْسِ وَإِنْغَاضِهِ، وَمِنْهَا الْعَيْنُ وَهَيْئَاتُهَا الْمُتَبَايِنَةُ بِتَبَايُنِ الْحَالِ النَّفْسِيَّةِ وَالسِّيَاقِ، فَتَمَّ الْعَيْنُ الْمُزْدَرِيَّةُ الْمُسْتَهْزِئَةُ،

(1)

Pease, Body Language, P. 17.

(2) انظر: مهدي عرار، لغة الجسم وأثرها في الإبانة، 107-108.

(3) انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، 70.

(4) انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، 70.

وَالْأُخْرَى الْكَارِهَةُ السَّخِطَةُ، وَالثَّالِثَةُ الدَّائِرَةُ الْوَجِلَةُ، وَالرَّابِعَةُ الْهَامِزَةُ الْغَامِزَةُ، وَالْخَامِسَةُ الْمَائِلَةُ الزَّائِعَةُ، وَالسَّادِسَةُ الضِّيْقَةُ الْكَلْبِيَّةُ، وَهُنَاكَ الْيَدُ وَدِلَالَاتُهَا، وَالْوَجْهُ، وَالْخَدُّ، وَالْعُنُقُ.

وَفِي هَذِهِ الْمُبَاحَثَةِ الْفَرْعِيَّةِ تَعْرِيجٌ عَلَى الْحَرَكَاتِ الْجَسَدِيَّةِ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ لِبَيَانِ مَوَاضِعِهَا، وَهَيْئَاتِهَا، وَاسْتِشْرَافِ أَثَرِهَا فِي رَسْمِ الْمَعْنَى، وَتَشْخِصِهِ، وَتَحْلِيلِ الْخِطَابِ الْقُرْآنِيِّ الشَّرِيفِ.

لِنَنْظُرَ فِي بَعْضِ هَذَا آخِذِينَ بِعَيْنِ الْعِنَايَةِ فَضْلَيْنِ لُورُودِ الْحَرَكَاتِ الْجَسَدِيَّةِ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ؛ أَوَّلُهُمَا فَضْلُهَا فِي آدَاءِ الْمَعْنَى وَتَشْخِصِهِ، وَثَانِيَهُمَا ارْتِفَاعُ الْكَلَامِ إِلَى طَبَقَةِ الْفَصَاحَةِ كَمَا تَقَدَّمَ أَيْضًا عِنْدَ الْجُرْجَانِيِّ، وَسَيَتَجَلَّى بَعْدًا عِنْدَ الزَّمَخْشَرِيِّ، وَأَنَّ ذَلِكَ "يَجِدُ السَّمْعُ عِنْدَهُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الرُّوعَةِ وَالِاسْتِحْسَانِ مَا لَا يَجِدُهُ عِنْدَ لَفْظِ الْمَكْنِيِّ عَنْهُ"<sup>(1)</sup>. لِنَنْظُرَ فِي هَيْئَاتِ بَعْضِ الْحَرَكَاتِ الْجَسَدِيَّةِ وَدِلَالَاتِهَا فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ مُسْتَفْتِحِينَ ذَلِكَ بِحَرَكَةِ الرَّأْسِ وَدِلَالَاتِهَا:

#### مِنْ دِلَالَاتِ حَرَكَةِ الرَّأْسِ وَهَيْئَاتِهَا:

لِلرَّأْسِ حَرَكَاتٌ وَهَيْئَاتٌ حَمَالَةٌ لِدِلَالَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ بِتَبَايُنِ الْحَالِ النَّفْسِيَّةِ وَالسِّيَاقِ، كَحَرَكَةِ تَنْبِيءٍ عَنِ الرُّفُضِ، وَأُخْرَى عَنِ الْقَبُولِ، وَثَالِثَةٌ عَنِ الْاسْتِهْزَاءِ، وَرَابِعَةٌ عَنِ الْإِنْكَارِ، وَخَامِسَةٌ عَنِ التَّحِيَّةِ، وَقَدْ اسْتَجْمَعَ بَعْضُ مَنْ يَنْصَدِرُونَ لِهَذَا الْمَطْلَبِ؛ مَطْلَبِ الْوُقُوفِ عَلَى لُغَةِ الْجَسَدِ، ثَلَاثَ هَيْئَاتٍ كَلِيَّةٍ لِلرَّأْسِ:

- أَوَّلُهَا الرَّأْسُ الْخَفِيضُ الَّذِي قَدْ يَكُونُ لَهُ مَحْمُولَاتٌ دِلَالِيَّةٌ لَا قِبَلَ لَنَا بِتَعْيِينِهَا إِلَّا بِالسِّيَاقِ وَالْحَرَكَاتِ الْمُصَاحِبَةِ؛ كَالْحَجَلِ، أَوْ الْخَوْفِ، أَوْ الْخُضُوعِ، أَوْ الْاسْتِسْلَامِ، أَوْ الضَّعْفِ، أَوْ الْجُبْنِ.
- وَثَانِيَهَا الرَّأْسُ الْمَرْفُوعُ الَّذِي قَدْ يُلْمَحُ إِلَى الْكِبَرِ وَالتَّعَالِي، أَوْ الْعِدَاءِ، أَوْ الْإِبَاءِ، أَوْ الْإِزْدِرَاءِ.
- وَثَالِثُهَا الرَّأْسُ الْمُنْحَنِي الْمَثْنِي إِلَى جَانِبٍ، فَقَدْ يَوْمِي إِلَى الْفِتْنَةِ، أَوْ الْغَوَايَةِ، أَوْ الْمُلَاطَفَةِ، أَوْ الْحَنَانِ<sup>(2)</sup>.

وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ وَرَدَتْ لِلرَّأْسِ هَيْئَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ، وَمِنْ ذَلِكَ:

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 89/3، وأبو حيان، البحر المحيط، 454/6.

(2) انظر: باكو، لغة الحركات، 60-61.

### الرَّأْسُ الْخَفِيضُ الْمُتَطَامِنُ:

"ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ" (1).

وَسِيَاقُ الْآيَةِ الشَّرِيفِ يُقَرِّرُ أَنَّ مُسَاءَلَةَ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ الْمُفْحِمَةَ أَفْضَتْ إِلَى وُلُوجِهِمْ فِي بَابِ الْحَيْرَةِ، وَرَجَعَ النَّظَرُ، وَإِطْرَاقِ فِي التَّفْكِيرِ، وَلِلْمَرَّةِ أَنْ يَتَّصِرَ حَالٌ مَنْ لَا حُجَّةَ لَهُ حِينَ يُسَاءَلُ، فَيُفْحَمُ، فَيُعْرِقُ فِي التَّفْكِيرِ، وَالتَّنْقِيرِ، وَالتَّأَمُّلِ، إِخَالٌ أَنْ حَرَكَةَ رَأْسِهِ سَتَكُونُ عَلَى الْهَيْئَةِ الْمَرْسُومَةِ آفَعًا، وَالْمُنْبَيَّةِ عَنِ ارْتِكَاسِهِ، وَأَوَّلُ خَاطِرٍ وَرَدَ عَلَى نَفْسِهِمْ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَنْطِقُونَ، فَتَحَيَّرُوا وَعَلِمُوا أَنَّهَا لَا تَنْطِقُ" (2).

وَقَدْ نَقَّتِ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ إِلَى هَذَا التَّصْوِيرِ الْمُعْجِبِ الْمُبِينِ عَنِ حَالِهِمْ، فَالْمُرَادُ بِهِ "وَصَفْتُ مَا لَحَقَهُمْ مِنَ الْخُضُوعِ، وَالْإِسْتِكَانَةِ، وَالْإِطْرَاقِ عِنْدَ لُزُومِ الْحُجَّةِ، فَكَأَنَّهُمْ شَبَّهُوا بِالْمُتْرَدِّيِّ عَلَى رَأْسِهِ تَدْوِيحًا بِنُصُوعِ الْبَيَانِ، وَإِبْلَاسًا عِنْدَ وُضُوحِ الْبُرْهَانِ" (3).

وَمِنْ مِثْلِ حَرَكَةِ الرَّأْسِ الْمُنْبَيَّةِ عَنِ الْعَجْزِ وَالذَّلِّ قَوْلُهُ الْحَقُّ -تَقَدَّسَ اسْمُهُ-: "وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا...". (4). وَلِلْمَرَّةِ أَنْ يُسْرِحَ خَوَاطِرَهُ مُمْتَثِلًا هَذِهِ الصُّورَةَ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأَمَّا الْمُجْرِمُونَ الَّذِي أَوْتُوا كُنُوبَهُمْ بِشِمَائِلِهِمْ فَقَدْ نَدِمُوا وَوَلَاتَ حِينَ مَنَدَمٍ، وَصَارُوا أَدِلَّةً قَلْبًا وَقَالِبًا، فَالرُّؤُوسُ مَكُوسَةٌ مُتَطَامِنَةٌ مُطَاطَأَةٌ مِنَ الدَّمِ، وَالْخَزْيِ، وَالْحُزْنِ، وَالذَّلِّ، وَالْعَمِّ (5).

### تَلْوِيَةُ الرَّأْسِ:

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ" (6).

وَفِي تَلْوِيَةِ الرَّأْسِ يَتَجَلَّى مَعْنَى الْإِسْتِهْزَاءِ وَالْإِبْهَاءِ، وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ حَرَكَةٌ جَسَدِيَّةٌ شَائِعٌ اسْتِعْمَالُهَا، بَيِّنٌ مَعْنَاهَا فِي يَوْمِنَا هَذَا، وَسِيَاقُ الْآيَةِ يُبَيِّنُ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي جَاءَ فِي جَنْبِ

(1) الآية (الأنبياء، 65).

(2) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 77/7، وانظر ما قاله القرطبي في الجامع، 200/11.

(3) انظر: الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، 156.

(4) الآية (السجدة، 12).

(5) انظر: القرطبي، الجامع، 64/14.

(6) الآية (المنافقون، 5).

الْمُنَافِقِينَ، فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِصِفَتِهِمْ مَشَى إِلَيْهِمْ عَشَائِرُهُمْ قَائِلِينَ: افْتَضِحْتُمْ بِالنِّفَاقِ، فَاطْلُبُوا أَنْ يُسْتَعْفَرَ لَكُمْ، فَكَانَ جَوَابُهُمْ بِهَذِهِ الْحَرَكَةِ الْجَسَدِيَّةِ اسْتِهْزَاءً وَابَاءً<sup>(1)</sup>.

وَقَدْ التَّمَسَ الطَّبْرَسِيُّ مِنْ هَذِهِ الْحَرَكَةِ مَعْنِيَيْنِ مُتَقَارِبَيْنِ:

- أَوْلُهُمَا أَنَّهُمْ أَكْثَرُوا تَحْرِيكَهَا بِالْهُزْءِ.
- وَثَانِيهِمَا أَنَّهُمْ أَمَلَوْهَا إِعْرَاضًا عَنِ الْحَقِّ، وَكَرَاهَةً لِذِكْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكُفْرًا وَاسْتِكْبَارًا<sup>(2)</sup>، وَفِي إِمَالَتِهَا بِالْهُزْءِ إِعْرَاضٌ عَنِ الْحَقِّ، فَالْمَعْنِيَانِ الْوَاقِعَانِ تَحْتِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ الْجَسَدِيَّةِ صَالِحَانِ لَا يَتَدَافَعَانِ.

### إِنْغَاضُ الرَّأْسِ:

"فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا، قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ"<sup>(3)</sup>.

يَظْهَرُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَشْهُدٌ حِوَارٍ يَتَّجَادِبُهُ قُطْبَانِ: مُؤْمِنُونَ مُثْبِتُونَ، وَجَاحِدُونَ مُنْكَرُونَ يَتَوَسَّلُونَ لِبَيِّتِ انْكَارِهِم بِالرَّافِدِينَ: الصَّامِتِ، وَهُوَ إِنْغَاضُ الرَّأْسِ، وَالصَّائِتِ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ: "فَسَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ"؟ أَمَا عَنْ دِلَالَةِ إِنْغَاضِ الرَّأْسِ فَهِيَ قَائِمَةٌ عَلَى تَحْرِيكِهِ تَحْرِيكُ الْمُسْتَهْزِئِ الْمُسْتَخَفِّ الْمُسْتَبْطِيِّ لِمَا أَنْذَرُوا بِهِ<sup>(4)</sup>، وَقَدْ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَأَنْعَضَ رَأْسَهُ: أَيَّ حَرَكَةٍ كَالْمُتَعَجِّبِ مِنَ الشَّيْءِ<sup>(5)</sup>.

### مِنْ دِلَالَاتِ حَرَكَةِ الْعَيْنِ وَهَيْئَتِهَا:

جَاءَ فِي "العقد الفريد" أَنَّ "العَيْنَ بَابُ الْقَلْبِ، فَمَا كَانَ فِي الْقَلْبِ ظَهَرَ فِي الْعَيْنِ"<sup>(6)</sup>، وَقَدْ رَوَى الْأَصْمَعِيُّ عَنْ غَيْرِهِ أَنَّهُ قَالَ: "إِنِّي لِأَعْرِفُ فِي الْعَيْنِ إِذَا عَرَفْتُ، وَأَعْرِفُ فِيهَا إِذَا

(1) انظر: القرطبي، الجامع، 83/18.

(2) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 14/10.

(3) الآية (الإسراء، 51).

(4) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 205/6.

(5) انظر: القرطبي، الجامع، 178/10.

(6) انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، 115/2.

أَنْكَرْتُ، وَأَعْرِفُ فِيهَا إِذَا لَمْ تَعْرِفْ وَلَمْ تُنْكَرْ، أَمَا إِذَا عَرَفْتُ فَتَخَوَّصُ<sup>(1)</sup>، وَأَمَا إِذَا أَنْكَرْتُ فَتَجْحِظُ، وَأَمَا إِذَا لَمْ تَعْرِفْ وَلَمْ تُنْكَرْ فَتَسْجُو<sup>(2)</sup>.

وَقَدْ عَقَدَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ بَابًا فِي "العقد" سَمَّاهُ "الاستدلال بِاللَّحْظِ عَلَى الضَّمِيرِ"<sup>(3)</sup>، وَقَدْ أوردَ فِيهِ نَمَازِجَ فاقِعَةً الدَّلَالَةَ مِنَ التَّرَاثِ العَرَبِيِّ الأَدَبِيِّ عَلَى أَثَرِ العَيْنِ فِي التَّوَاصُلِ والإِبَانَةِ.

وَقَدْ وَرَدَ لِلعَيْنِ ذِكْرٌ كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الشَّعْرَاءِ، وَخَاصَّةً فِي مَقَامَاتِ العَشْقِ والعُشَاقِ، وَحَضْرَاتِ الاستِخْفَاءِ والرَّمْزِ، وَلَا بَأْسَ بِإِيرَادِ نَمُودَجِينَ مُمَهَّدِينَ لاسْتِشْرَافِ هَذَا المَبْحَثِ فِي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ:

أشارت بِطَرْفِ العَيْنِ حَشِيَّةَ أَهْلِهَا إِشَارَةَ مَحْزُونٍ وَلَمْ تَتَكَلَّمْ

فَأَيَّقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرْحَبًا وَأَهْلًا وَسَهْلًا بِالحَبِيبِ المُتَمِّمِ<sup>(4)</sup>

وَمِنْ مِثْلِ مَا نَقَدَّمْ تَغْيِيبُ الكَلَامِ فِي سِيَاقِ العَشْقِ، وَاسْتِرفَادُ سَفِيرِهِ العَيْنِ:

وَإِذَا التَّقْيِينَا وَالعُيُونُ رَوَامِقُ صَمَّتِ اللِّسَانُ وَطَرَفُهَا يَتَكَلَّمُ

تَشْكُو فَأَفْهَمُ مَا تَقُولُ بِطَرْفِهَا وَيَرُدُّ طَرْفِي مِثْلَ ذَاكَ فَتَفْهَمُ<sup>(5)</sup>

وَقَدْ وَرَدَ لِلعَيْنِ فِي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ صُورٌ حَرَكَيةٌ تَنْبَأِينَ بِتَبَايُنِ السِّيَاقِ وَالحَالِ، فَانْبَنَى عَلَى ذَلِكَ تَبَايُنٌ فِي الدَّلَالَةِ الَّتِي تُرْشِحُ لَهَا كُلُّ حَرَكَةٍ لِلعَيْنِ، وَهَذَا مِنْ وَجْهَةٍ أُخْرَى - مِمَّا يَنْدَرِجُ تَحْتَ بَابِ "والعَيْنُ تَنْطِقُ وَالْأَفْوَاهُ صَامِتَةٌ"، فَهُنَاكَ:

- العَيْنُ المُزْدَرِيَّةُ الهَازِئَةُ.

- وَالعَيْنُ الكَارِهَةُ السَّاخِطَةُ.

- وَالعَيْنُ الدَّائِرَةُ الوَجِلَةُ.

- وَالعَيْنُ المَائِلَةُ الزَّائِعَةُ.

(1) "تخوَّص" فعل مضارع، والخوص غُور العين، والحوص، بالصاد، ضيقها.

(2) انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، 2/115.

(3) انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، 2/115.

(4) انظر: ابن رشيقي، العمدة، 1/309، والأبيات لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه، 204.

(5) انظر: ابن داود، الزهرة، 1/150.

- وَالْعَيْنُ الصَّيِّغَةُ الْكَلِيلَةُ.  
- وَالْعَيْنُ الْهَامِزَةُ الْغَامِزَةُ.

لِنَبَّصِرُ فيما يَأْتِي بَسْطًا لِلْقَوْلِ، وَرَفْعًا لِلْإِجْمَالِ الْمُتَقَدِّمِ:

### الْعَيْنُ الْمُزْدَرِيَّةُ الْهَائِزَةُ:

وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِ الْحَقِّ -تَقَدَّسَ اسْمُهُ- عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا"<sup>(1)</sup>، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا عَيْنُ الْكَافِرِ الْجَاهِدِ الَّتِي يَسْتَصْغِرُ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ الْفُقَرَاءَ، وَمَا كَانَ جَوَابَ نُوْحٍ إِلَّا أَنْ قَالَ إِنَّهُ لَا يَقُولُ لِهَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ يَسْتَخْفَوْنَهُمْ، وَيَسْتَقْلَوْنَهُمْ، وَتَحْتَقِرُهُمْ أَعْيُنُهُمْ، لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا"<sup>(2)</sup>.

### الْعَيْنُ الْكَارِهَةُ السَّاخِطَةُ:

وَقَدْ تَجَلَّتْ هَذِهِ الدَّلَالَةُ فِي قَوْلِهِ -تَبَارَكَ-: "وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُرْزِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ"<sup>(3)</sup>. وَقَدْ كَثُرَ كَلَامُ الْمُفَسِّرِينَ عَنِ دِلَالَةِ الْعَيْنِ فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَيْئَتَهَا هُنَا تُؤَدِّنُ بِتَعْيِينِ مَعْنَى الْعِدَاءِ، وَالْمَعْنَى الْكَلْبِيَّةُ: يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَالِدَّعَاءُ إِلَى التَّوْحِيدِ، نَظَرَ عِدَاوَةٍ، وَبُغْضٍ، وَإِنْكَارٍ لِمَا يَسْمَعُونَهُ، فَكَأَنَّهُمْ يَكَادُونَ يَصْرَعُونَكَ بِحِدَّةٍ نَظَرِهِمْ تِلْكَ، وَقَدْ عَرَّجَ الطَّبْرَسِيُّ عَلَى أَثَرِ رَسْمِ هَذِهِ الْحَرْكَةِ الْجَسَدِيَّةِ فِي تَوْصِيفِ الْمَعْنَى، فَهَذَا "مُسْتَعْمَلٌ فِي الْكَلَامِ، يَقُولُونَ: نَظَرَ إِلَيَّ فُلَانٌ نَظْرَةً يَكَادُ يَصْرَعُنِي، وَنَظْرًا يَكَادُ يَأْكُلُنِي فِيهِ، وَتَأْوِيلُهُ كُلُّهُ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَيَّ نَظْرًا لَوْ أَمَكَّنَهُ مَعِي أَنْ يَأْكُلُنِي أَوْ يَصْرَعُنِي لَفَعَلٌ"<sup>(4)</sup>.

### الْعَيْنُ الدَّائِرَةُ الْوَجِلَةُ:

(1) الآية (هود، 31).

(2) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 199/5، وانظر ما قاله القرطبي فيها، الجامع، 19/9، وأبو حيان، البحر المحيط، 219/5.

(3) الآية (القلم، 51).

(4) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 78/10. وقد قال القرطبي إن المعنى قد يكون "يعتانونك"، وينظرون إليك شزرا بتحديق شديد. انظر: القرطبي، الجامع، 166/18، والشريف الرضي، تلخيص البيان، 300، وأبو حيان، البحر المحيط، 311/8.

وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِ الْحَقِّ -تَقَدَّسَ اسْمُهُ- فِي وَصْفِ الْمُنَافِقِينَ: "أَشْحَةً عَلَيْكُمْ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ" (1)، وَسَيَاقُ الْآيَةِ الشَّرِيفِ يَدُورُ فِي مِضْمَارِ خَوْفِهِمْ مِنَ الْقِتَالِ وَأَنْصِرَافِهِمْ عَنْهُ، فَهُمْ الْأَشْحَةُ الْأَصْنَاءُ وَقَتَّ النَّبَاسِ وَالشَّدَادِ، وَالسَّالِقُونَ بِالْأَسِنَّةِ حَدَادٍ، وَقَدْ تَجَلَّى أَنْتَرُ خَوْفِهِمْ وَتَجَافِيهِمْ عَنْهَا فِي الْعُيُونِ الدَّائِرَةِ الْمُضْطَرِبَةِ، فَإِذَا مَا ذُكِرَ الْقِتَالُ صَارُوا يُنْظَرُونَ كَمَا يُنْظَرُ الْمَعْشِيُّ عَلَيْهِ مِنْ مُعَالَجَةِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ حَذْرًا، وَخَوْرًا، وَلِوَادًا (2)، وَقَدْ أَجَادَ الْقُرْطُبِيُّ فِي اسْتِشْرَافِ مَعْنَى حَرَكَةِ هَذِهِ الْجَارِحَةِ فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ، فَدَوْرَانُ الْأَعْيُنِ بَاعْتُهُ ذَهَابُ الْعَقْلِ حَتَّى لَا يَصِحَّ مِنْهُمْ النَّظَرُ إِلَى أَيِّ جِهَةٍ، وَقِيلَ "لِشِدَّةِ خَوْفِهِمْ حَذْرًا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْقَتْلُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ" (3).

### العَيْنُ الْهَامِزَةُ الْغَامِزَةُ:

وَقَدْ تَجَلَّتْ هَذِهِ الْحَرَكَةُ الْعَيْنِيَّةُ فِي قَوْلِهِ -تَبَارَكَ-: "وَيَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ" (4)، وَلِلْمُفَسِّرِينَ فِي "خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ" أَقْوَالٌ وَمَذَاهِبٌ لَيْسَ الْمَقَامُ مَقَامَهَا، وَإِنَّمَا يَعْنِينَا مَا يَنْتَسِبُ إِلَى لُغَةِ الْجَسَدِ بِنَسَبِ حَمِيمٍ، فَقَدْ قِيلَ إِنَّ خِيَانَتَهَا هِيَ مُسَارَقَةُ النَّظَرِ إِلَى مَا لَا يَجِلُّ النَّظَرُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ هُوَ الرَّمْزُ بِالْعَيْنِ (5)، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ هِيَ الْهَمَزَةُ بِالْعَيْنِ، وَالرَّمْزُ بِهَا، وَالْإِغْمَاضَةُ فِيمَا لَا يُحِبُّ اللَّهُ (6).

وَقَدْ وَرَدَ عَلَى دِلَالَةِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ الْجَسَدِيَّةِ الشَّرِيفِ الرِّضِيِّ، فَعَدَّ قَوْلَ الْحَقِّ "خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ" اسْتِعَارَةً يُرَادُ بِهَا الرِّيْبُ فِي كَسْرِ الْجَفْنِ، وَمَرَامِزِ الْعُيُونِ، وَقَدْ سَمَّى الْحَقُّ ذَلِكَ خِيَانَةً لِأَنَّهُ أَمَارَةٌ لِلرِّيْبَةِ، وَمُجَانِبٌ لِلْعَقَّةِ (7)، وَقَدْ قَالَ أَبُو حَيَّانٍ فِي مَعْرِضِ تَعْرِيجِهِ عَلَى خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ: لَمَّا كَانَتْ الْأَفْعَالُ الَّتِي يُفْصَدُ بِهَا التَّكْتُمُ بَدَنِيَّةً فَأَخْفَاهَا "خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ" مِنْ كَسْرِ جَفْنٍ، وَغَمَزٍ، وَنَظَرٍ يُفْهَمُ مَعْنَى، أَوْ قَلْبِيَّةً صَمِيرِيَّةً، ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّ عِلْمَهُ مُتَعَلِّقٌ بِهِمَا التَّعَلُّقُ التَّامُّ (8).

(1) الآية (الأحزاب، 19).

(2) انظر: الزمخشري، الكشاف، 255/3، وأبو حيان، البحر المحيط، 214/7.

(3) انظر: القرطبي، الجامع، 101/14، وانظر ما قاله الطبرسي، مجمع البيان، 108/8.

(4) الآية (غافر، 19).

(5) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 335/8.

(6) انظر: القرطبي، الجامع، 198/15.

(7) انظر: الشريف الرضي، تلخيص البيان، 242.

(8) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 438/7.

### العَيْنُ المَائِلَةُ الرَّائِعَةُ:

وَقَدْ تَجَلَّى هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ -تَبَارَكَ-: "إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ"<sup>(1)</sup>، وَلِلْمَرَةِ أَنْ يَتَخَيَّلَ فِي الْمَوْقِفِ ذَلِكَ أَعْدَاءَ يَتَرَبَّصُونَ بِالنَّبِيِّ وَصَحْبِهِ الدَّوَائِرَ، وَمُنَافِقِينَ مُرْجِفِينَ فِي الْمَدِينَةِ، وَخَطَرًا مُخْذِقًا مُحِيطًا كَأِحَاطَةِ الْخَنْدَقِ بِهَا، وَقَدْ ظَهَرَ ذَلِكَ عَلَى جَوَارِحِهِمْ، فَعَدَّتْ دَالَّةً نَاطِقَةً بِلِسَانِ الْمَقَالِ وَالْحَالِ، فَرَيَعُهَا مِثْلَهَا عَنْ مُسْتَوَى نَظَرِهَا فِعْلَ الْوَالِهِ الْجَزَعِ<sup>(2)</sup>، فَقَدْ مَالَتْ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ فَلَمْ تَنْظُرْ إِلَّا إِلَى عَدُوِّهَا مُقْبِلًا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، "وَعَدَلَتْ عَنْ مَقَرِّهَا مِنَ الدَّهْشَةِ وَالْحَيْرَةِ كَمَا يَكُونُ الْجِبَانُ فَلَا يَعْلَمُ مَا يُبْصِرُ"<sup>(3)</sup>.

وَقَدْ أُلْمِحَ إِلَى هَذِهِ الْحَرَكَةِ الْعَيْنِيَّةِ الشَّرِيفِ، فَقَالَ مُسْتَشْرِفًا مَعْنَى هَذَا الْوَصْفِ الْجَسَدِيِّ: "قَالَ الْمُرَادُ بِهِ تَشَتَّتْ أَلْحَاطُهَا، وَعَدُولُهَا عَنْ جِهَةِ اسْتِقَامَتِهَا نَظَرًا إِلَى مَطَالِعِ الْخَوْفِ، وَجَزَعًا مِنْ مَوَاقِعِ السَّيْفِ، وَمِنْ عَادَةِ الْخَائِفِ الْمَتَوَقِّعِ أَنْ يَكْثُرَ التِّقَاتُهُ، وَتَتَقَسَّمُ أَلْحَاطُهُ"<sup>(4)</sup>.

### العَيْنُ الضَّيْقَةُ الْكَلِيلَةُ:

وَقَدْ تَجَلَّى هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِ الْحَقِّ: "وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ"<sup>(5)</sup>، وَقَدْ وَقَفَ بَعْضُ الْقُرَّاءِ عِنْدَ "خَاشِعِينَ" مُسْتَشْرِفِينَ مَفْصِلًا صَوْتِيًّا لِلإِبَانَةِ عَنِ الْمَعْنَى، ذَاهِبِينَ إِلَى أَنَّ شِبْهَ الْجُمْلَةِ "مِنَ الذَّلِّ" مُتَعَلِّقٌ بِ"يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ"<sup>(6)</sup>، وَقَدْ أُلْمَسَ الْمُفَسِّرُونَ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ "طَرْفٍ خَفِيٍّ" دِلَالَاتٍ مُتَعَدِّدَةً، فَقَدْ يَكُونُ أَنَّهُمْ لَا يَرْمُقُونَ أَبْصَارَهُمْ لِلنَّظَرِ رَمَقًا تَامًّا، لِأَنََّّهُمْ نَاكِسُو الرُّؤُوسِ، وَالْعَرَبُ تَصِفُ الدَّلِيلَ بِعَضِّ النَّظَرِ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَكَأَنَّ حَرَكَةَ عَيْنِهِمْ تُفْضِي إِلَى الْقَوْلِ بِأَنََّّهُمْ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ، وَقَدْ يَكُونُ أَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا بِجَمِيعِ أَبْصَارِهِمْ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ أَصْنَافِ الْعَذَابِ<sup>(7)</sup>، وَلَعَلَّ الْأَشْبَهَةَ

(1) الآية (الأحزاب، 10).

(2) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 211/7.

(3) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 95/8، والقرطبي، الجامع، 95/14.

(4) انظر: الشريف الرضي، تلخيص البيان، 218.

(5) الآية (الشورى، 45).

(6) انظر: القرطبي، الجامع، 31/16، وأبو حيان، البحر المحيط، 501/7.

(7) انظر: القرطبي، الجامع، 31/16، والطبرسي، مجمع البيان، 43/9.



وَالْأَلْيَقَ بِمَقْصُودِ الْكَلَامِ أَنَّ الْمُتَعَيَّنَ مِنْ وَصْفِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ الْجَسَدِيَّةِ أَنْ نَظَرَهُمْ إِلَيْهَا هُوَ نَظَرٌ الْخَائِفِ الدَّلِيلِ، وَالْمُرْتَابِ الظَّنِّينِ الَّذِي لَا يَنْظُرُ إِلَّا مُسْتَرْفًا، وَلَا يَعْضُ إِلَّا مُشْفِقًا<sup>(1)</sup>.

وَالْحَقُّ أَنَّ الزَّمَخْشَرِيَّ قَدْ اسْتَشَفَّ هَذَا الْمَعْنَى قَبْلًا، فَأَلَمَحَ إِلَى أَنَّ نَظَرَهُمْ يَبْتَدِي مِنْ تَحْرِيكِ لِأَجْفَانِهِمْ ضَعِيفٍ خَفِيِّ بِمُسَارَقَةٍ، كَمَا تَرَى الْمَضْبُورَ يَنْظُرُ إِلَى السَّيْفِ، وَهَكَذَا نَظَرُ النَّاطِرِ إِلَى الْكَارِهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَفْتَحَ أَجْفَانَهُ عَلَيْهَا، وَيَمْلَأُ عَيْنَهُ مِنْهَا كَمَا يَفْعَلُ فِي نَظَرِهِ إِلَى الْمُتَحَابِّ<sup>(2)</sup>.

وَيَعُدُّ، فَبَابُ الْحَدِيثِ عَنِ الْعُيُونِ يَطُولُ، وَفَضْلُهَا فِي الدَّلَالَةِ وَالتَّوَاصُلِ ظَاهِرٌ لَا يَخْفَى عَلَى الْمَرْءِ فِي مُخَاطَبَاتِهِ التَّوَمِيَّةِ، وَحَسْبِي بَعْدَ ذَلِكَ كَلِمَةُ الْقَوْلِ الشَّاعِرِ مُسْتَشْرِفًا فَضَلَ الْعَيْنِ فِي التَّوَاصُلِ، مُلْتَمِسًا وَشَائِحَ بَيْنِ الْعَيْنِ وَالْقَلْبِ، مُقَرَّرًا صَمْتِ الْأَفْوَاهِ، وَنُطْقِ الْعُيُونِ فِي مَوَاضِعَ:  
 إِنَّ الْعُيُونَ عَلَى الْقُلُوبِ شَوَاهِدٌ      فَبَغِيضُهَا لَكَ بَيْنَ وَحَبِيبُهَا  
 وَإِذَا تَلَاخَظَتِ الْعُيُونُ تَفَاوَضَتْ      وَتَحَدَّثَتْ عَمَّا تُجِنُّ قُلُوبُهَا  
 يَنْطِقْنَ وَالْأَفْوَاهُ صَامِتَةٌ فَمَا      يَخْفَى عَلَيْكَ بَرِيئُهَا وَمُرِيْبُهَا<sup>(3)</sup>

### مِنْ دِلَالَاتِ حَرَكَةِ الْيَدِ:

- يَتَجَلَّى مَعْنَى النَّدَمِ مِنْ حَرَكَاتِ جَسَدِيَّةٍ فِي ثَلَاثِ هَيْئَاتٍ مِضْمَارُهَا الْيَدُ، وَهِيَ:
- "فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا"<sup>(4)</sup>.
  - "يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا"<sup>(5)</sup>.
  - "وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا"<sup>(6)</sup>.

(1) انظر: الشريف الرضي، تلخيص البيان، 250.

(2) انظر: الزمخشري، الكشاف، 474/3، وأبو حيان، البحر، 501/7.

(3) انظر: الأبي، الأنس والعرس، 178، وقد نسبه إلى ابن درهم، وابن عبد ربه، العقد الفريد، 116/2،

ونسبه إلى محمود الوراق.

(4) الآية (الكهف، 42).

(5) الآية (الفرقان، 27).

(6) الآية (الأعراف، 149).

ها نحنُ أولاءِ نعودُ إلى ظاهرة الترادفِ في الحركةِ الجسديّة؛ ذلك أنّ هذه الحركاتِ الثلاثةَ تلتقي على معنى واحدٍ جماعةُ الندامةِ والأسفِ.

- أما الأولى فهي حكايةُ حالِ رجلٍ أصبحَ يُقلِّبُ كَفَّيْهِ ندامَةً على ما أنفقَ في جَنَّتِهِ لَمَّا أُحيطَ بِثَمَرِهِ، فَقَدَ أَلْفَاها خاويَةً على عُرُوشِها.
- أما الثانيةُ فهي حكايةُ حالِ ظالمٍ يَعَضُّ على يَدَيْهِ ندامَةً، فالأخلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ.
- أما الثالثةُ فهي حكايةُ حالِ قَوْمٍ اتَّخَذُوا مِنْ حَلِيَّتِهِمْ عَجَلًا جَسَدًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَلَمَّا فَاوُوا إِلَى رُشْدِهِمْ، وَسَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ، اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ.

واللافتُ للخاطرِ أنّ هذه الآياتِ الثلاثةَ تتقاربُ في سياقها الكليِّ وحركاتها، فأولها، كما يَظْهَرُ، ظَلَمٌ لِلنَّفْسِ، كما كانَ مِنْ أَمْرٍ مَنْ أَشْرَكَ بِرَبِّهِ فِي الْأُولَى، والذي اتَّخَذَ خَلِيلَ سَوْءٍ فِي الثَّانِيَةِ، والذين عَبَدُوا الْعِجَلَ فِي الثَّالِثَةِ، وثانيها نَدَمٌ وَلاَتٌ حِينَ الْمُنْدَمِ، وَيَعْتُوبُ هَذَا كُلُّهُ حَالٌ نَفْسِيَّةٌ تَظْهَرُ عَلَى الْجَوَارِحِ كَمَا ظَهَرَتْ عَلَى الْيَدِ، فالأولُ أَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ظَهْرًا لِبَطْنٍ، وَهَيْئَةً تَقْلِبِ الْكَفَّيْنِ أَنْ يُبَدِّي بَاطِنَ كَفِّهِ، ثُمَّ يُعَوِّجُ كَفَّهُ حَتَّى يَبْدُو ظَهْرُهَا، وَهِيَ فِعْلَةٌ النَّادِمِ الْمُتَحَسِّرِ عَلَى شَيْءٍ قَدْ فَاتَهُ، الْمُتَأَسِّفِ عَلَى فُتْدَانِهِ، وَقِيلَ: أَصْبَحَ يَصْفِقُ بِيَدَيْهِ<sup>(1)</sup>.

أما في الثانيةِ، وَهِيَ عَضُّ الظَّالِمِ عَلَى يَدَيْهِ، فَهِيَ كَذَلِكَ فِعْلَةٌ النَّادِمِ الْمُتَفَجِّعِ، وَقَدْ عَدَّهَا أَبُو حَيَّانٍ مَجَازًا يُعَبِّرُ بِهَا عَنِ التَّحِيرِ، وَالْعَمِّ، وَالنَّدَمِ، وَالنَّقْجِ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْمَثَلِ: "يَأْكُلُ يَدَيْهِ نَدَمًا، وَيَسِيلُ دَمْعُهُ دَمًا"<sup>(2)</sup>.

أما في الثالثةِ، وَهِيَ السَّقُوطُ فِي الْيَدِ، فَهَذَا أُسْلُوبٌ كِنَائِيٌّ لَيْسَ فِيهِ مِزَاجٌ الْحَقِيقَةُ شَيْءٌ، فَيُقَالُ لِكُلِّ مَنْ نَدِمَ وَعَجَزَ عَنْ شَيْءٍ: سَقَطَ فِي يَدِهِ، وَأَسْقَطَ فِي يَدِهِ<sup>(3)</sup>. وَلَمَّا عَرَّجَ الزَّمْخَشَرِيُّ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ أَشَارَ إِلَى أَنَّ الْمَعْنَى: "أَشْتَدَّ نَدَمُهُمْ وَحَسَرَتُهُمْ"؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ مَنْ أَشْتَدَّ نَدَمُهُ

(1) انظر ما قيل فيها: الصولي، أدب الكتاب، 16، وأبو حيان، البحر المحيط، 123/6، والقرطبي، الجامع، 266/10.

(2) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 454/6، والقرطبي، الجامع، 19/13، والطبرسي، مجمع البيان، 232/7.

(3) انظر: الفراء، معاني القرآن، 393/1، وأبو عبيدة، مجاز القرآن، 228/1، والأخفش، معاني القرآن، 337، وابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، 172، واليزيدي، غريب القرآن، 138.

وَحَسْرَتُهُ أَنْ يَعَضَّ يَدَهُ غَمًّا، فَتَصِيرَ يَدُهُ مَسْقُوطًا فِيهَا، لِأَنَّ فَاهُ قَدْ وَقَعَ فِيهَا<sup>(1)</sup>، وَقِيلَ إِنَّهَا مَأْخُودَةٌ مِنْ هَيْئَةِ جَسَدِيَّةٍ نَاطِقَةٍ تَعْتَرِي النَّادِمَ، وَلِذَلِكَ يُطَاطِئُ رَأْسَهُ، وَيَضَعُ ذَقْنَهُ عَلَى يَدِهِ، مُعْتَمِدًا عَلَيْهَا، وَيَظَلُّ عَلَى صُورَةٍ لَوْ نُزِعَتْ يَدُهُ لَسَقَطَ عَلَى وَجْهِهِ، كَأَنَّ الْيَدَ مَسْقُوطَةً فِيهَا<sup>(2)</sup>، وَصَفْوَةُ الْقَوْلِ فِي هَذَا الْأُسْلُوبِ الْكِنَائِيِّ الرَّفِيعِ أَنَّهَا "لَا شَيْءَ عَلَى الْحَقِيقَةِ هُنَاكَ سَقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ"<sup>(3)</sup>.

وَقَدْ وَقَفَ الرَّمَخْشَرِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ مُلِمًّا إِلَى ذُبُوعِهَا بَيْنَ النَّاسِ، وَتَوَاضَعِهِمْ عَلَى مَعْنَاهَا، فَقَدْ أَشَارَ إِلَى أَنَّ "عَضَّ الْأَنَامِلِ، وَالْيَدَيْنِ، وَالسَّقُوطَ فِي الْيَدِ، وَأَكَلَ الْبَنَانِ، وَحَرَقَ الْأَسْنَانَ، وَالْأَرْمَ"<sup>(4)</sup>، وَفُرُوعَهَا، كِنَايَاتٌ عَنِ الْغَيْظِ وَالْحَسْرَةِ، لِأَنَّهَا مِنْ رَوَافِدِهَا، فَيَذَكُرُ الرَّادِفَةَ، وَيَذَلُّ بِهَا عَلَى الْمَرْدُوفِ، فَيَرْتَفِعُ الْكَلَامُ بِهِ فِي طَبَقَةِ الْفَصَاحَةِ، وَيَجِدُ السَّمَاعُ عِنْدَهُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الرَّوْعَةِ وَالِاسْتِحْسَانِ مَا لَا يَجِدُهُ عِنْدَ لُفْظِ الْمَكْنِيِّ عَنْهُ<sup>(5)</sup>.

### حَرَكََةُ الْيَدِ بَيْنَ إِيْمَاءِ السُّكُوتِ وَإِبْدَاءِ الْغَيْظِ:

ظَهَرَ هَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْحَرَكََةِ الْجَسَدِيَّةِ فِي قَوْلِ الْحَقِّ -تَقَدَّسَ اسْمُهُ-: "جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ، وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ"<sup>(6)</sup>، وَقَدْ تَبَايَنَتْ أَقْوَالُ الْمُفَسِّرِينَ فِي اسْتِشْفَافِ هَيْئَةِ "رَدَّ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ" تَبَايُنًا ائْتِنَى عَلَيْهِ اخْتِلَافٌ فِي دِلَالَةِ هَذِهِ الْحَرَكََةِ الْجَسَدِيَّةِ، فَقَدْ قِيلَ:

- إِنَّهَا تَوْمِيٌّ إِلَى الْغَيْظِ وَالْكَئِدِ، فَقَدْ جَعَلُوا أَيْدِيَهُمْ أَنْفُسَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ لِيَعَضُّوهُمَا غَيْظًا، وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ -تَعَالَى-: "عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ"<sup>(7)</sup>.
- إِنَّهَا تَوْمِيٌّ إِلَى الْحَيْرَةِ وَالْعَجَبِ؛ ذَلِكَ أَنََّّهُمْ سَمِعُوا كِتَابَ اللَّهِ، فَعَجِبُوا وَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى أَفْوَاهِهِمْ مُطْرِقِينَ مُتَأَمِّلِينَ.

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 118/2.

(2) انظر هذه التفسيرات: أبو حيان، البحر المحیط، 392/4، وقد عرج على معنى آخر، وهو أنها مأخوذة من "السقيط"، وهو ما يغشى الأرض بالغدوات شبه الثلج، والسقيط يذوب بأدنى حرارة ولا يبقى، ومن وقع في يده السقيط لم يحصل على شيء منه البتة، فصار هذا القول مثلا لكل من خسر، وكانت عاقبته الندامة.

(3) انظر: الشريف الرضي، تلخيص البيان، 60.

(4) أَرَمَ عَلَى الشَّيْءِ: عَضَّ عَلَيْهِ، وَأَرَمَهُ أَكَلَهُ.

(5) انظر: الزمخشري، الكشاف، 89/3، وأبو حيان، البحر المحیط، 454/6.

(6) الآية (إبراهيم، 9).

(7) الآية (آل عمران، 119).

- إِيَّاهُ إِشَارَةً مَعْنَاهَا "اسْكُتْ"، فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ إِنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ أَشَارُوا بِأَصَابِعِهِمْ إِلَى أَفْوَاهِهِمْ أَنْ اسْكُتْ تَكْذِيبًا لَهُ، وَرَدًّا لِقَوْلِهِ، وَاسْتِثْنَاءًا لِمَا جَاءَ بِهِ.
- إِنَّهَا تَوْمِيٌّ بِالْهُزْءِ وَالضَّحِكِ، فَمِنْ عَادَةٍ مَنْ يَغْلِبُهُ الضَّحْكُ أَحْيَانًا أَنْ يَرْفَعَ يَدَهُ إِلَى فِيهِ<sup>(1)</sup>.

### مِنْ دِلَالَاتِ حَرَكَةِ الْأَصَابِعِ

يُظْهِرُ مِنْ حَرَكَةِ الْأَصَابِعِ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ أَنَّهَا مَوْمِنَةٌ إِلَى ثَلَاثِ دِلَالَاتٍ:

- أَوْلَاهَا الْخَوْفُ.
  - وَثَانِيهَا الْغَيْظُ.
  - وَثَالِثُهَا التَّصَامُومُ.
- وَهَذِهِ الدِّلَالَاتُ تَجَلَّتْ فِي الْآيَاتِ الشَّرِيفَاتِ التَّالِيَاتِ:
- "يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ"<sup>(2)</sup>.
  - "وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرَوْا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا"<sup>(3)</sup>.
  - "وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ، قُلْ مَاتُوا بِغَيْظِكُمْ"<sup>(4)</sup>.

إِخَالُ أَنْ الْحَرَكَةَ الْمُتَجَلِّيَّةَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى الْخَوْفِ، وَلَعَلَّ الَّذِي يَسْتَنْدُ ذَلِكَ هُوَ اسْتِشْرَافُ السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ الشَّرِيفِ، فَهُوَ أَخَذَ فِي مَقَامِ الْحَدِيثِ عَنِ الْبَرْقِ الَّذِي يَكَادُ يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ، وَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ حَالَهُمْ مَعَ الْبَرْقِ، فَكَيْفَ حَالَهُمْ مَعَ مِثْلِ ذَلِكَ الرَّعْدِ؟<sup>(5)</sup>.

وَقَدْ جَنَحَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ فِي دِلَالَةِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ الْجَسَدِيَّةِ الْقَائِمَةِ مَقَامَ دِلَالَةِ الْخَوْفِ اللَّفْظِيَّةِ اتِّسَاعًا مَجَازِيًّا، فَالْمُرَادُ "الْأَنَامِلُ" لَا الْأَصَابِعُ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ لِنُكْتَةِ بَلَاغِيَّةٍ فِي ذِكْرِ الْأَصَابِعِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْمُبَالَغَةِ مَا لَيْسَ فِي ذِكْرِ الْأَنَامِلِ، فَالْمَجْعُولُ مِنَ الْأَصَابِعِ فِي

(1) انظر هذه المعاني وغيرها: القرطبي، الجامع، 226/9، والطبرسي، مجمع البيان، 48-49/6، وأبو حيان، البحر المحیط، 397/5.

(2) الآية (البقرة، 19).

(3) الآية (نوح، 7).

(4) الآية (آل عمران، 119).

(5) انظر: الزمخشري، الكشاف، 216/1.

الأذان رؤوسها؛ ذلك أن فيه إشعاراً بأنهم يُبالغون في إدخال أصابعهم في آذانهم فوق العادة المعتادة في ذلك فراراً من شدة الصوت<sup>(1)</sup>.

ولعل الذي ينبغي حتم هذه المباحثة الجُرئية به أمران:

- أولهما دلالي.

- وثانيهما جمالي بياني.

أما الدلالي فقولهُ الشريف: "يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ" في هذا السياق على وجه التَّعْيِينِ يَدُلُّ في مُعْجَمِ لُغَةِ الْجَسَدِ عَلَى الْخَوْفِ، بَلْ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْخَوْفِ وَالتَّوَقِّي مِنْهُ. وَأَمَّا الْجَمَالِيُّ الْبَيَانِيُّ فَهُوَ قَائِمٌ عَلَى كَوْنِ قَوْلِهِ -تعالى-: "يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ" ذَا أَلْقٍ جَمَالِيٍّ مُشِعِّ يَفُوقُ التَّعْبِيرَ الْمُبَاشَرَ "يَخَافُونَ"، فَكَانَ هَذَا الْوَصْفُ الْحَرْكِيُّ وَصْفًا لِحَالِ نَفْسِيَّةٍ تَعْتَرِيهِمْ فِي سِيَاقِهِمْ ذَلِكَ، وَرَسْمًا حَرْكِيًّا صَوْرِيًّا مَادَّتُهُ الْأَلْفَاظُ اللَّغَوِيَّةُ الْمُنْبِئَةُ عَنِ الْمَعْنَى.

أما الآيةُ التَّانِيَةُ الْمُتَقَدِّمُ بَيَانُهَا فَقَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَى ذِكْرِ الْأَصَابِعِ كَمَا الْأُولَى، وَلَكِنَّ الدَّلَالََةَ الْمُنْبِئَةَ عَنْهَا مُغَايِرَةٌ، وَلَعَلَّ هَذَا يُفْضِي بِنَا إِلَى رَجِيحٍ مِنَ الْقَوْلِ فِي تَعْرِيفِ الْمُشْتَرَكِ اللَّفْظِيِّ، فَالْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ، وَهِيَ دَالٌّ، قَدْ يَقَعُ تَحْتَهَا مَعْنِيَانِ أَوْ أَكْثَرُ، وَلَا يَتَّعَيْنُ أَحَدُهُمَا فِي الْغَالِبِ إِلَّا بِالْمُضِيِّ مَعَ السِّيَاقِ وَاسْتِشْرَافِ حُدُودِهِ وَصَمَائِمِهِ، وَكَذَلِكَ الْحَرْكَةُ الْجَسَدِيَّةُ؛ فَهِيَ دَالٌّ يَصْدُقُ عَلَيْهِ تَعْرِيفُ الْمُشْتَرَكِ اللَّفْظِيِّ الْحَمَالِ لِمَعْنِيَيْنِ أَوْ مَعَانٍ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا أَنَا خَائِضٌ فِيهِ، فَفِي الْأُولَى كَانَتْ دَلَالَةُ الْحَرْكَةِ الْخَوْفِ الشَّدِيدِ، وَفِي هَذِهِ التَّانِيَةِ كَانَتْ دَلَالَةُ الْحَرْكَةِ نَفْسِيَّةً التَّصَامُمِ وَالْمُبَالَغَةَ فِي الْإِنْكَارِ لِنَلَا يَسْمَعُوا دَعْوَةَ الْحَقِّ، وَزَادُوا عَلَى ذَلِكَ، مُمَاحَكَةً وَمُعَايَاةً وَإِنْكَارًا، حَرْكَةً أُخْرَى تَحْمِلُ كُلَّ تِلْكَ الدَّلَالَاتِ، وَهِيَ اسْتِغْشَاءُ الثِّيَابِ، وَتَعْطِيَةُ الْوُجُوهِ لِنَلَا يَرَوْهُ، فَهُمْ يَرْفُضُونَ السَّمَاعَ وَالرُّؤْيَا: سَمَاعَ الدَّعْوَةِ، وَرُّؤْيَا الدَّاعِي، "فَاسْتِغْشَاءُ الثِّيَابِ إِذَا زِيَادَةٌ فِي سَدِّ الْأَذَانِ حَتَّى لَا يَسْمَعُوا، أَوْ لِتَنْكِيهِمْ أَنْفُسَهُمْ حَتَّى يَسْكُتَ، أَوْ لِيُعْرِفُوهُ إِعْرَاضَهُمْ عَنْهُ، وَقِيلَ هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْعَدَاوَةِ"<sup>(2)</sup>، كُلُّ ذَلِكَ كَانَ بُغْضًا، وَإِنْكَارًا، وَتَوَلِّيًّا عَنِ سَمَاعِ النَّصِيحِ، أَوْ رُّؤْيَا النَّاصِحِ الْأَمِينِ<sup>(3)</sup>.

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 217/1.

(2) انظر: القرطبي، الجامع، 194/18، وانظر ما قاله الزمخشري، الكشاف، 162/4، والطبرسي، مجمع

البيان، 104/10، وأبو حيان، البحر المحيط، 332/8.

(3) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 332/8.

أَمَّا الْآيَةُ الشَّرِيفَةُ الثَّالِثَةُ فَهِيَ الَّتِي تُنْبِئُ عَنِ حَالِ أَفْرَادِ الْبِطَانَةِ الَّذِينَ لَا يَأْلُونَ الْمُسْلِمِينَ خَبَالًا، وَاللَّطِيفُ الْمُعْجِبُ فِي هَذَا الْخِطَابِ الْقُرْآنِيِّ الرَّائِقِ الرَّاقِي أَنَّهُ قَامَ فِي هَذَا السِّيَاقِ عَلَى الْمُقَابَلَةِ التَّصْوِيرِيَّةِ، فَتَمَّ فِئَةٌ مُؤْمِنَةٌ، وَتُقَابَلُهُمْ بِطَانَةٌ مِنَ الْيَهُودِ أَوْ الْمُنَافِقِينَ كَافِرَةً، وَتَمَّ حُبُّ يَفْعُ مِنْ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ يُقَابَلُهُ كُرْهُ يَفْعُ مِنَ الْبِطَانَةِ، وَتَمَّ إِيمَانٌ يُقَابَلُهُ كُفْرٌ، وَتَمَّ اصْطِنَاعُ التَّوَادِّ فِي الظَّاهِرِ، وَاصْطِمَارُ الْغَيْظِ وَالْعِدَاوَةِ فِي الْبَاطِنِ، وَهُمْ يَقُولُونَ آمَنُوا بِالَّذِي أَنْزَلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ، وَكُفَرُوا آخِرَهُ.

وَقَدْ وَرَدَ فِيهَا حَرَكَةٌ جَسَدِيَّةٌ أُخْرَى مِضْمَارُهَا الْأَنَامِلُ، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى التَّغَيُّظِ، وَالتَّحْرِقِ، وَالْحَنَقِ، قَائِمَةٌ عَلَى تَصْوِيرِ الْمُقَابَلَةِ فِي الْمَشَاعِرِ بَيْنَ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ: ظَاهِرِ التَّفَاقُحِ وَاصْطِنَاعِ الْمَوَدَّةِ مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ -تَعَالَى-: "وَإِذَا لَقَّوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا"<sup>(1)</sup>، وَبَاطِنِ الْكُفْرِ، وَالغَيْظِ، وَالْإِنْكَارِ الْمُتَمَثِّلِ فِي الْحَرَكَةِ الْجَسَدِيَّةِ الْمَرْسُومَةِ بِالْكَلِمَاتِ، وَالْمُقَابَلَةِ لِلصُّورَةِ الْأُخْرَى، وَالْجَزَاءِ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَكَانَ جَوَابَ إِثْبَانِهِمْ عَضَّ الْأَنَامِلِ مِنَ الْغَيْظِ قَوْلَهُ الْحَقُّ: "قُلْ مَاتُوا بِغَيْظِكُمْ"<sup>(2)</sup>.

وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْحَرَكَةُ فِي سِيَاقِهَا الْقُرْآنِيِّ الشَّرِيفِ فِعْلًا حَقِيقِيًّا أَتَى بِهِ هُوَلاءُ، وَقَدْ تَكُونُ كِنَايَةً، وَالْأَمْرَانِ مُحْتَمَلَانِ، وَقَدْ ذَهَبَ أَبُو حَيَّانٍ إِلَى أَنَّ ظَاهِرَ هَذِهِ الْحَرَكَةِ الْجَسَدِيَّةِ فِعْلٌ ذَلِكَ، فَوَقَعَ مِنْهُمْ عَضُّ الْأَنَامِلِ لِشِدَّةِ الْغَيْظِ مَعَ عَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى إِنْفَاقِ مَا يُرِيدُونَ، وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي طَالِبٍ:

وَقَدْ صَالَحُوا قَوْمًا عَلَيْنَا أَشِحَّةً يَعْضُونَ عَضًّا خَلْفَنَا بِالْأَبَاهِمِ<sup>(3)</sup>.

وَبَعْدُ، فَأَخْتَمُ مَبَاحَثَةَ حَرَكَةِ الْأَصَابِعِ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ الْمُسْتَطَرَفِ الَّذِي يَظْهَرُ فِيهِ أَنَّ عَاشِقَيْنِ قَدْ تَخَاطَبَا مِنْ غَيْرِ كَلَامٍ بِالْفِيءِ عَلَى الْعَيْنِ، ثُمَّ لَمَّا أَشْفَقَا مِنْ عِيُونِ الْغَدَالِ جَعَلَا مِنَ الْأَنَامِلِ سُلْمًا لِلدَّلَالَةِ وَالتَّوَاصُلِ:

يَا لِلرِّجَالِ لِعَاشِقَيْنِ تَوَافَقَا وَتَخَاطَبَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَكَلَّمَا  
حَتَّى إِذَا خَافَا الْعِيُونَ وَأَشْفَقَا جَعَلَا الْإِشَارَةَ بِالْأَنَامِلِ سُلْمًا<sup>(4)</sup>

(1) الآية (آل عمران، 119).

(2) الآية (آل عمران، 119).

(3) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 44/2، وانظر كذلك: الزمخشري، الكشاف، 459/1، والطبرسي،

مجمع البيان، 288/2، والقرطبي، الجامع، 117/4.

(4) انظر: الحصري، زهر الآداب، 1018/2.

### مِن دِلالاتِ الْوَجْهِ وَإِيحاءاتِهِ:

يُقَسِّمُ أَهْلُ هَذَا الدَّرْسِ الحَرَكَاتِ الجَسَدِيَّةَ قِسْمَيْنِ:

- فِطْرِيَّةً باعْتُها فِطْرَةُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ الخَلْقَ عَلَيْها، وَلَعَلَّ أَجْلَى مِثالٍ عَلَى ذَلِكَ الأَطْفالُ والصَّمُّ والنُّبْكُ والْعُمِّيُّ الَّذِينَ تَصَدَّرُ عَنْهُمْ إِيماءاتٌ وإِشاراتٌ جَسَدِيَّةٌ دُونَ أَنْ يَكُونوا قَدْ رَأَوْها فَحاكَوْها، كالأبْتِسامَةِ فِي مَعْنى الفَرَحِ، والكِشْرَةِ فِي مَعْنى الحُزْنِ، وتَقطِيبِ الْوَجْهِ فِي مَعْنى العَظْبِ، وهِزَّةَ الرَأْسِ فِي مَعْنى القَبولِ.
- وَمُكْتَسَبَةً تَتَخَلَّقُ عِنْدَ المَرءِ بِالاكتِسابِ والتَّعَلُّمِ<sup>(1)</sup>، وهَذِهِ الحَرَكَاتُ المُكْتَسَبَةُ تُقَسِّمُ إِلى قِسْمَيْنِ: أَوَّلُهُما أَنْ تَكُونَ حَرَكَاتٍ مُكْتَسَبَةً بِالمُحاكاةِ والتَّقْلِيدِ، وَثانِيَهُما أَنْ تَكُونَ مُكْتَسَبَةً بِالدُّرْبَةِ والمِرَاسِ، كالتَّحايَا العَسْكَرِيَّةِ، وَالغَمَزِ بِطَرْفِ العَيْنِ، وإِشاراتِ الصَّمِّ والنُّبْكِ المُتَعَلِّمَةِ<sup>(2)</sup>.

والَّذي يَخْصُ هَذِهِ المُباحِثَةَ فِي هَذَا المَقامِ الصَّرْبُ الأَوَّلُ مِنَ الحَرَكَاتِ؛ أَعْنى الحَرَكَاتِ الفِطْرِيَّةِ، فَقد تَرَدَّدَتْ بَيْنَ سِتَّةِ مَعانٍ سُمِّيتْ بِالانْفِعالاتِ السَّتَةِ العالَمِيَّةِ، وهِيَ مِمَّا يُتَوَصَّلُ إِليه بِالوَجْهِ وتَعْبِيراتِهِ وإِيماءاتِهِ المُنبِئَةِ عَنْ مَعانٍ، وَالْحَمالَةَ لِذِلالاتِ تَقْتَبَسُ مِنْ هَذَا المَجْرى الصَّامِتِ لا الصَّائِتِ، وَأَوَّلُ هَذِهِ المَعانِي العالَمِيَّةِ البَهْجَةُ، وَثانِيها الحُزْنُ، وَثالثُها الاشمِئزازُ، ورابِعُها الخَوْفُ، وخامِسُها العَظْبُ، وسادِسُها الدَّهْشَةُ.

والْحَقُّ أَنَّ بِمُكْنَةِ المَرءِ -بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ لَوْنِهِ وَجَنسِهِ وَمَشْرِيبِهِ وَلِسانِهِ- أَنْ يَقْتَنِصَ هَذِهِ المَعانِي بِالْفِيءِ إِلى الإِيماءاتِ والحَرَكَاتِ الفِطْرِيَّةِ الَّتِي تَظْهَرُ فِي سِياقِها، وَقَدْ نَهَدَ عالِمُ نَفْسِ أَمْرِيكِيِّ إِلى الخَوْضِ فِي تَأْصِيلِ هَذِهِ الانْفِعالاتِ السَّتَةِ طَلَباً لِلتَّحَقُّقِ مِنْ عُمومِيَّتِها وتَعارُفِ أَهْلِ الخَلِيقَةِ البَشَرِيَّةِ عَلَيْها، فَوَرَّعَ صُوراً كانَ قَدْ نَقَطَها مُعْبِرَةً عَنْ تِلْكَ المَعانِي المُتَقَدِّمِ بَيانُها عَلَى جَماعاتٍ مِنْ أَجناسٍ، وبلدانٍ، وَأَعْمارٍ مُتباينَةٍ، وَكانَتْ صَفوَةٌ القَوْلِ الَّتِي أَفْضَتْ إِليها نَتائِجُ مُباحِثاتِهِ دالَّةٌ عَلَى أَنَّ العَيْتَةَ تَتَواضَعُ عَلَى مَعانِيها تَواضَعاً فِطْرِيَّاً، فَتَمَّ:

- 93% مِنْهُم أَجْمَعوا أَمْرَهُم عَلَى مَعْنى البَهْجَةِ.
- و88% أَجْمَعوا عَلَى مَعْنى الدَّهْشَةِ.
- و83% أَجْمَعوا عَلَى مَعْنى الاشمِئزازِ.
- و81% أَجْمَعوا عَلَى مَعْنى الحُزْنِ.
- و76% أَجْمَعوا عَلَى الخَوْفِ.

(1) Pease, Body Language, P.8.

(2) انظر: باكو، لغة الحركات، 19.

- و73% أجمعوا على معنى الغضب<sup>(1)</sup>.

- وَقَدْ وَرَدَتْ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ، وَكَانَ الْوَجْهُ بِجُمْلَتِهِ الْبَاعِثَ الْأَوَّلَ، وَالِدَالَ الْمُعْبَّرَ الْمُخَصَّصَ لِتَلْكَمِ الْمَعَانِي الْمُتَبَايِنَةِ بِنَبَائِنِ السِّيَاقَاتِ، فَظَهَرَتْ:
- دِلَالَةُ الْبَهْجَةِ وَالْحُبُورِ فِي قَوْلِ الْحَقِّ: "وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ"<sup>(2)</sup>.
  - وَدِلَالَةُ الْخَوْفِ فِي قَوْلِ الْحَقِّ: "وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ، تَنْظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ"<sup>(3)</sup>، وَكَذَلِكَ: "وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ"<sup>(4)</sup>.
  - وَدِلَالَةُ الْغَضَبِ فِي قَوْلِ الْحَقِّ: "ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ"<sup>(5)</sup>، وَكَذَلِكَ: "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ"<sup>(6)</sup>.
  - وَدِلَالَةُ الْأَشْمِئِزَازِ الْمَقْرُونَةِ بِالْغَضَبِ فِي قَوْلِ الْحَقِّ: "وَإِذَا تُلْتَمَسُ آيَاتُنَا بِبَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ"<sup>(7)</sup>.
  - وَدِلَالَةُ التَّعَجُّبِ فِي قَوْلِ الْحَقِّ: "فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرََّةٍ، فَصَكَّتْ وَجْهَهَا، وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ"<sup>(8)</sup>.

وَمِمَّا يُنْضَافُ إِلَى تِلْكَمِ الدَّلَالَاتِ:

- دِلَالَةُ الرِّاحَةِ وَالتَّنْعُمِ: "تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ"<sup>(9)</sup>، وَكَذَلِكَ: "وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ"<sup>(10)</sup>.
- دِلَالَةُ الْعِبَادَةِ وَحُسْنِ السَّمْتِ: "سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ"<sup>(1)</sup>.

(1) انظر: باكو، لغة الحركات، 62، وقد أشار Pease إلى ثلاثة علماء درسوا تعابير الوجه لأناس من

خمس ثقافات متباينة، وقد كانت نتائج دراساتهم تدل على أن الثقافات الخمس التي أقيمت عليها

الدراسة تلتقي على الإيماءات الوجهية نفسها، وهذا أفضى إلى التقرير بأن تلكم الإيماءات مما

ينتسب إلى الفطرة التي أودعها الله فينا. انظر: Pease, Body Language, P. 8

(2) الآية (عبس، 38-39).

(3) الآية (القيامة، 24-25).

(4) الآية (عبس، 40-41).

(5) الآية (المدثر، 22).

(6) الآية (النحل، 58).

(7) الآية (الحج، 72).

(8) الآية (الذاريات، 29).

(9) الآية (المطففين، 24).

(10) الآية (الغاشية، 8).



- دِلَالَةُ الْإِنْتِقَادِ وَالْإِسْتِسْلَامِ: "وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ"<sup>(2)</sup>.
- دِلَالَةُ الضَّلَالِ وَالتَّخَبُّطِ: "أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"<sup>(3)</sup>.

وَالَّذِي يَظْهَرُ بِجَلَاءٍ فِي جُلِّ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّهَا تَقُومُ عَلَى رَسْمٍ مَشَاهِدٍ مُتَقَابِلَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ كَانَ عِمَادُ هَذَا الرَّسْمِ تَصْوِيرَ الْهَيْئَاتِ الْخَارِجِيَّةِ الْمُتَنَبِّئَةِ عَنِ الْأَحْوَالِ النَّفْسِيَّةِ فِي مَقَامِ الْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ، وَفِي مَقَامِ الْفُوزِ أَوْ الْخُسْرَانِ الْمُبِينِ، وَقَدْ تَجَلَّى ذَلِكَ بِالْوَصْفِ الْجَسَدِيِّ عَامَّةً، وَالْوَجْهِيِّ خَاصَّةً، لِمَا لِلْوَجْهِ مِنْ بَيَانٍ، وَتَبْيِينٍ، وَإِبَانَةٍ تَتَقَدَّمُ اللَّفْظُ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ:

- فَتَمَّ وُجُوهُ تَبَيُّضٌ.
- وَأُخْرَى تَقَفُ وَجَاهَهَا مُسْوَدَّةً.
- وَتَمَّ وُجُوهُ مُسْفِرَةٌ، مُضِيئَةٌ مُتَهَلِّلَةٌ كَالصَّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ.
- وَتَمَّ وُجُوهُ يَغْلُوهَا السَّوَادُ وَالْعُبَارُ اسْتِيحَاشًا وَخَوْفًا مِمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ.
- وَتَمَّ وُجُوهُ نَاصِرَةٌ مِنْ نُصْرَةِ النَّعِيمِ قَدْ وَجَدَتْ مَا وَعَدَ رَبُّهَا حَقًّا.
- وَتَمَّ وُجُوهُ أُخْرَى بِاسِرَّةٍ خَائِفَةٌ شَدِيدَةُ الْعُبُوسِ تَتَرَقَّبُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا دَاهِيَةٌ تَقْصُمُ فِقَارَ الظَّهِيرِ<sup>(4)</sup>، وَهَكَذَا تَمْضِي هَذِهِ الْمُقَابِلَاتُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْفُسْطَاطَيْنِ فِي مَشْهَدٍ غَيْبِيِّ صَوْرَهُ الْحَقُّ تَصْوِيرًا يَسْتَشْرِفُ فِيهِ الْمَرْءُ الظَّاهِرَ وَالْبَاطِنَ، أَمَّا الظَّاهِرُ فَهُوَ وَصْفُ الْأَحْوَالِ الْجَسَدِيَّةِ، وَأَمَّا الْبَاطِنُ فَهُوَ وَصْفُ الْأَحْوَالِ النَّفْسِيَّةِ، فَعَدَا مَشْهَدًا حَيًّا وَإِقْعَا لِمَنْ تَدَبَّرَ أَوْ تَبَصَّرَ.

أَمَّا دِلَالَةُ الْعَضْبِ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ فَقَدْ نَتَقَتِ إِلَيْهَا ثَلَاثَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ كَالزَّمْخَشَرِيِّ، وَالْقُرْطُبِيِّ، وَأَبِي حَيَّانٍ، فَأَشَارُوا إِلَى أَنَّهُ قَطَّبَ وَكَلَحَ لَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْحِيلُ، وَقِيلَ قَطَّبَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ رَحَفَ مُدْبِرًا، وَتَشَاوَسَ مُسْتَكْبِرًا<sup>(5)</sup>، وَقَدْ أَشَارَ

(1) الآية (الفتح، 29).

(2) الآية (طه، 111).

(3) الآية (الملك، 22).

(4) انظر ما قاله: الزمخشري، الكشاف، 192/4، والقرطبي، الجامع، 147/19.

(5) انظر ما قيل عن هذه الآية: الزمخشري، الكشاف، 183/4، والقرطبي، الجامع، 50/19، وأبو حيان،

البحر المحيط، 366/8.

الْقُرْطُبِيُّ إِلَى أَنَّهُ قَطَّبَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ فِي وُجُوهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْعَبْسُ مَصْدَرُ "عَبَسَ"، وَمَعْنَاهُ التَّقْطِيبُ، وَ"بَسَرَ" مَعْنَاهُ أَنْ وَجَّهَهُ تَغَيَّرَ وَأَسْوَدَ<sup>(1)</sup>، وَقِيلَ إِنَّ الْبَاسِرَ هُوَ الشَّدِيدُ الْعُبُوسِ<sup>(2)</sup>.

أَمَّا دِلَالَةُ الْأَشْمِزَارِ، وَلَعَلَّهَا تَكُونُ مُرَكَّبَةً مَقْرُونَةً بِالْعَضَبِ وَالتَّجْهِمِ، فَقَدْ ظَهَرَتْ جَلِيَّةً فِي وَصْفِ الْحَقِّ "تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ"، وَقَدْ ذَهَبَ أَبُو حَيَّانَ إِلَى أَنَّ الْمُنْكَرَ فِي سِيَاقِهِ ذَلِكَ الْمَسَاءَةُ، وَالتَّجْهِمُ، وَالْبُسُورُ، وَالْبَطْشُ الدَّالُّ عَلَى سُوءِ الْمُعْتَقِدِ، وَخُبْتُ السَّرِيرَةَ؛ "لِأَنَّ الْوَجْهَ يَظْهَرُ فِيهِ التَّرْحُ وَالْفَرْحُ اللَّذَانِ مَحَلُّهُمَا الْقَلْبُ"<sup>(3)</sup>.

أَمَّا دِلَالَةُ التَّعَجُّبِ الْمُعَيَّرِ عَنْهَا بِحَرَكَةِ جَسَدِيَّةٍ شَائِعَةٍ فَكَانَتْ صَكَّ الْوَجْهِ، وَقَدْ وَقَفَ ابْنُ جَنِّي عِنْدَ هَذِهِ الْحَرَكَةِ الْجَسَدِيَّةِ فِي مَقَامٍ آخَرَ، مُلْتَمِسًا فَضْلَهَا فِي الْكَشْفِ عَنِ الْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَعْتَرِي مَنْ يَأْتِيهَا، وَإِحْيَاءِهَا الْمُتَجَلِّيَّةِ فِي ظِلَالِ التَّعَجُّبِ وَالبَهْتِ، فَوَرَدَ عَلَى حَادِثَةِ "صَكَّ الْوَجْهِ" الَّتِي هِيَ حِكَايَةُ شِكَايَةِ امْرَأَةٍ عَلَى لِسَانِ شَاعِرٍ:

تَقُولُ -وَصَكَّتْ وَجْهَهَا بِيَمِينِهَا- أَبْغَلِي هَذَا بِالرَّحَى الْمُتَقَاعِسُ!؟

وَقَدْ عَلَّقَ عَلَيْهَا مُسْتَشْفًا فَضَّلَ رَوَايَةَ هَذِهِ الْحَرَكَةِ الْجَسَمِيَّةِ فِي تَعْزِيزِ الْمَعْنَى، فَقَدْ جُعِلَتْ هَذِهِ الْحَرَكَةُ الْجَسَدِيَّةُ كَالْمُنْبَهَةِ عَلَى فَرْطِ التَّعَجُّبِ وَالْإِنْكَارِ وَالتَّعَاطُظِ، وَلَنَا أَنْ نَتَصَوَّرَ أَنَّ تَمَّ مُخْبِرًا، وَأَنَّ تَمَّ مُعَايِنًا لِهَذَا الْحَدِيثِ الْكَلَامِيِّ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يُنْعَعُ اللَّغْوِيِّ، أَوْ ابْنُ جَنِّي مِنْ قَبْلُ، أَنَّ دِلَالَةَ الْحَدِيثِ الْقَارِءَةِ فِي نَفْسِ الْمُعَايِنِ هِيَ كَالَّتِي عِنْدَ الْمُخْبِرِ؟ إِذْ إِنَّ الْمُعَايِنَ قَدْ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ سَمِعَ الصَّائِتَ وَعَايَنَ الصَّامِتَ، أَمَّا الْمُخْبِرُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ حَظٌّ إِلَّا بِالْوَصْفِ وَالتَّمَثِيلِ مِنَ الصَّامِتِ، "فَلَوْ قَالَ حَاكِيًا عَنْهَا: أَبْغَلِي هَذَا بِالرَّحَى الْمُتَقَاعِسُ- مِنْ غَيْرِ أَنْ يَذْكَرَ صَكَّ الْوَجْهِ- لِأَعْلَمْنَا أَنَّهَا كَانَتْ مُتَعَجِّبَةً مُنْكَرَةً، لَكِنَّهُ لَمَّا حَكَى الْحَالَ، فَقَالَ: "وَصَكَّتْ وَجْهَهَا" عُلِمَ بِذَلِكَ قُوَّةُ إِنْكَارِهَا، وَتَعَاطُظُ الصُّورَةِ لَهَا، هَذَا مَعَ أَنَّكَ سَامِعٌ لِحَاكِيَةِ الْحَالَ، غَيْرُ مُشَاهِدٍ لَهَا، وَلَوْ شَاهَدْتَهَا لَكُنْتَ بِهَا أَعْرَفَ، وَلِعِظَمِ الْحَالَ فِي نَفْسِ تِلْكَ الْمَرَأَةِ أَبِينِ،...، وَلَوْ لَمْ يَنْقَلِ إِلَيْنَا هَذَا الشَّاعِرُ حَالَ هَذِهِ الْمَرَأَةِ بِقَوْلِهِ: "وَصَكَّتْ وَجْهَهَا"، لَمْ نَعْرِفْ بِهِ حَقِيقَةَ تَعَاطُظِ الْأَمْرِ لَهَا"<sup>(4)</sup>، وَمِنْ هُنَا قَالَتِ الْعَرَبُ قَبْلًا، وَقَالَهَا ابْنُ جَنِّي بَعْدًا: "لَيْسَ الْمُخْبِرُ كَالْمُعَايِنِ؛ ذَلِكَ أَنَّ تَمَّ أَحْوَالًا شَاهِدَةً بِالْقُصُودِ، حَالِفَةً عَلَى مَا فِي النَّفُوسِ"<sup>(5)</sup>.

(1) انظر: القرطبي، الجامع، 50/19.

(2) انظر: الزمخشري، الكشاف، 192/4.

(3) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 358/6.

(4) انظر: ابن جني، الخصائص، 247/1.

(5) انظر: ابن جني، الخصائص، 246/2.

وَمِمَّا يُمَكِّنُ أَنْ يُنْضَافَ إِلَى دِلَالَاتِ الْوَجْهِ وَإِجْهَاتِهِ حَرَكَتَانِ وَرَدَتَا فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ،  
وَهُمَا تَصْغِيرُ الْخَدِّ، وَتَنْيُ الْعِطْفِ، وَالْحَقُّ أَنَّهُمَا تَنْتَسِبَانِ مِنْ طَرَفِ حَفِيٍّ إِلَى مَبْحَثِ "الْوَجْهِ"،  
وَقَدْ تُنْبِتَانِ فِي مَوْضِعِ آخَرَ مُسْتَقَلٍّ، وَقَدْ ارْتَضَيْتُ إِثْبَاتَهُمَا هُنَا لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ لُحْمَةٍ وَوَسَائِحِ  
بَيْنَ هَاتَيْنِ الْحَرَكَتَيْنِ وَالْوَجْهِ، بَلْ إِنَّ الْوَجْهَ يَتَّسِعُ لِإِدْرَاجِهِمَا فِيهِ، وَهُمَا عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

### تَصْغِيرُ الْخَدِّ:

يُظْهِرُ مَعْنَى الْكِبَرِ وَالْخَيْلَاءِ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي هَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، فَقَدْ يَشِي بِهَذَا الْمَعْنَى  
لَفْظٌ يَصْدُرُ مِنْ مُتَلَفِّظٍ مَا، وَقَدْ تَدُلُّ عَلَيْهِ هَيْئَةٌ جَسَدِيَّةٌ تَظْهَرُ عَلَى الْجَوَارِحِ، فَتَعْدُو نَاطِقَةً كَمَا  
اللَّفْظُ، فَيَقَالُ إِنَّهُ مُتَكَبَّرٌ مَزْهُوٌّ بِنَفْسِهِ، وَهَيْئَةُ "تَصْغِيرِ الْخَدِّ" وَاحِدَةٌ مِنَ الَّتِي تَظْهَرُ عَلَى الْجَوَارِحِ،  
وَأَصْلُ ذَلِكَ مَاخُودٌ مِنَ الصَّعْرِ الَّذِي هُوَ دَاءٌ يُصِيبُ الْبَعِيرَ فَيَلْوِي مِنْهُ عُنُقَهُ<sup>(1)</sup>، وَقَدْ وَقَفَ  
الْمُفَسِّرُونَ عِنْدَ هَذِهِ الدَّلَالَةِ الْآتِيَةِ مِنْ هَذِهِ الْحَرَكَةِ الْجَسَدِيَّةِ فِي قَوْلِ الْحَقِّ -تَقَدَّسَ اسْمُهُ-: "وَلَا  
تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ"<sup>(2)</sup>:

- فَالزَّمْخَشَرِيُّ يَرَى أَنَّ الْمُتَعَبِّينَ هُوَ: أَقْبَلُ عَلَى النَّاسِ بِوَجْهِكَ تَوَاضِعًا، وَلَا تُؤْلِهِمْ شَقَّ  
وَجْهِكَ وَصَفَحَتَهُ كَمَا يَفْعَلُ الْمُتَكَبِّرُونَ<sup>(3)</sup>.
- وَالْقُرْطُبِيُّ يَقُولُ: لَا تُمَلِّ خَدَّكَ لِلنَّاسِ كِبْرًا عَلَيْهِمْ، وَإِعْجَابًا، وَاحْتِقَارًا لَهُمْ. وَقِيلَ هُوَ  
أَنْ تَلْوِي شِدْقَكَ إِذَا ذُكِرَ الرَّجُلُ عِنْدَكَ كَأَنَّكَ تَحْتَقِرُهُ، فَأَقْبَلْ عَلَيْهِمْ مُتَوَاضِعًا  
مُسْتَأْنِسًا<sup>(4)</sup>.
- وَالشَّرِيفُ الرِّضِيُّ يَقُولُ: "فَكَأَنَّهُ أَمْرُهُ أَلَّا يَسْمَحَ بِأَنْفِهِ، وَيُعْرِضَ بِوَجْهِهِ مِنَ الْكِبَرِ  
تَشْبِيهًا بِالْبَعِيرِ إِذَا أَصَابَهُ ذَلِكَ الدَّاءُ، وَمِنْ صِفَاتِ الْكِبَرِ رَفْعُ الطَّرْفِ حَتَّى كَأَنَّهُ  
مَعْقُودٌ بِالسَّمَاءِ"<sup>(5)</sup>.
- وَأَبُو حَيَّانٍ يَقُولُ إِنَّ الْمَعْنَى: لَا تُؤْلِهِمْ بِشَقِّ وَجْهِكَ كَفِعْلِ الْمُتَكَبِّرِ، وَأَقْبَلْ عَلَى  
النَّاسِ بِوَجْهِكَ مِنْ غَيْرِ كِبَرٍ وَلَا إِعْجَابٍ<sup>(6)</sup>.

(1) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 67/8، والزمخشري، الكشاف، 234/3، والقرطبي، الجامع، 47/14،

وابن منظور، اللسان، مادة "صعر".

(2) الآية (لقمان، 18).

(3) انظر: الزمخشري، الكشاف، 234/3.

(4) انظر: القرطبي، الجامع، 74/14.

(5) انظر: الشريف الرضي، تلخيص المجازات، 213.

(6) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 183/7.

### تَنْيِ الْعِطْفِ:

وَهَذِهِ مِنَ الْحَرَكَاتِ الْجَسَدِيَّةِ الَّتِي يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى مَعْنَى الْكِبْرِ وَالْإِعْرَاضِ، وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِ الْحَقِّ: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ، ثَانِيًا عِطْفَهُ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ"<sup>(1)</sup>.

وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ بِ"ثَانِيًا" عَلَى أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِ"يُجَادِلُ"، وَالْمَعْنَى الْكَلْبِيُّ عِنْدَهُمْ قَائِمٌ عَلَى اسْتِشْرَافِ الدَّلَالَةِ مِنْ هَذِهِ الْحَرَكَةِ الْجَسَدِيَّةِ، فَقَدْ قِيلَ إِنَّ الْمُتَعَيِّنَ هُوَ: يُجَادِلُ مُتَكَبِّرًا لَاوِيًّا عُنُقَهُ بِفُجْحٍ، شَامِخًا بِأَنْفِهِ"<sup>(2)</sup>.

وَقَدْ جَمَعَ الزَّمْخَشَرِيُّ بَيْنَ "تَضَعِيرِ الْخَدِّ" وَ"تَنْيِ الْعِطْفِ" تَحْتَ بَابِ دِلَالِيٍّ وَاحِدٍ؛ ذَلِكَ أَنَّ "تَنْيِ الْعِطْفِ" عِبَارَةٌ عَنِ الْكِبْرِ وَالْحَيْلَاءِ، كَتَضَعِيرِ الْخَدِّ، وَلَيْ الْجِيدِ"<sup>(3)</sup>، وَقَدْ تَأَوَّلَهَا الْقُرْطُبِيُّ عَلَى مَعْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا لِي الْعُنُقِ مَرَحًا وَتَعَطُّمًا، وَثَانِيَهُمَا لِيَّهُ إِعْرَاضًا، وَالْعِطْفُ مَا انْتَنَى مِنْ الْعُنُقِ، فَكَأَنَّ آتِيَ هَذِهِ الْحَرَكَةِ "مُعْرِضٌ عَنِ الْحَقِّ فِي جِدَالِهِ، وَمُوَلِّ عَنِ النَّظْرِ فِي كَلَامِهِ"<sup>(4)</sup>.

### مِنْ دِلَالَاتِ الْمِشْيَةِ وَإِيحَاءِهَا:

لِلْمِشْيَةِ هَيَأَتٌ دَالَّةٌ عَلَى مَعَانٍ مَخْصُوصَةٍ، وَقَدْ نَقَتَ الْمُصَنِّفُونَ فِي هَذَا الْمَبْحَثِ، أَعْنِي لُغَةَ الْجَسَدِ، إِلَى بَعْضِ تَلْكَمِ الْهَيْئَاتِ وَدِلَالَاتِهَا، وَشَرَعُوا يَلْتَمِسُونَ الْبَوَاعِثَ الَّتِي تُقْضِي إِلَى تَغْيِيرِ هَيْئَاتِ تِلْكَ الْمِشْيَةِ، وَيَسْتَرْفِدُونَ مِنَ الْوَسَائِلِ التَّوْضِيحِيَّةِ كَالرَّسُومِ وَالصُّوَرِ الْمَعُونَةِ فِي التَّقْسِيمِ وَالشَّرْحِ وَالتَّجْلِيَةِ، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِمَّا "مِشْيَتُهُ الْخَاصَّةُ بِهِ، وَإِيْقَاعُهُ، وَتَرْجِيحُ ذِرَاعِيهِ، وَتَوْجِيهُ قَدَمَيْهِ، إِنَّ مِشْيَتَنَا تَوَلَّفُ جُزْءًا مِنْ هُوَيْتِنَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ تَخْتَلَفُ مِنْ يَوْمٍ إِلَى آخَرَ تَبَعًا لِلْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي نَجِدُ أَنْفُسَنَا فِيهَا،...، وَلَكِنَّ مَزَاجَنَا لَيْسَ الْعَنْصَرَ الْوَحِيدَ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يُعَدَّلَ مِشْيَتَنَا، حَتَّى إِنَّ لِلْأَرْصَادِ الْجَوِيَّةِ تَأْثِيرًا فِيهَا"<sup>(5)</sup>.

(1) الآية (الحج، 19).

(2) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 329/6.

(3) انظر: الزمخشري، الكشاف، 6/3.

(4) انظر: القرطبي، الجامع، 12/12، وقد أشار الشريف إلى هذين المعنيين أيضا. انظر: تلخيص البيان، 170.

(5) انظر: باكو، لغة الحركات، 54.

وَقَدْ وَقَفَ بَاحِثٌ عِنْدَ بَعْضِ تَلَكُمِ الْهَيْئَاتِ مُقَسِّمًا، وَمَفْسِّرًا، وَمَصَوِّرًا، وَمُعَيِّنًا الْمَعْنَى الَّذِي يَنْطَوِي تَحْتَ كُلِّ هَيْئَةٍ، وَمِنْ ذَلِكَ:

- الْمِشْيَةُ الرَّشِيقَةُ: وَيَكُونُ الدَّقْنُ فِيهَا مَرْفُوعًا، وَالخُطَوَاتُ وَاسِعَةً، وَالخَطْوُ مَوْعًا، وَالْأَنْفُ شَامَخًا.
- وَالْمِشْيَةُ الْمَهَادَةُ "البولدوزر": وَيَكُونُ الْكَعْبُ فِيهَا مَغْرُورًا فِي الْأَرْضِ، وَالخَطْوَةُ سَرِيعَةً ثَابِتَةً، وَالنَّظْرُ مُسْتَقِيمًا مَوْجَّهًا إِلَى الْأَمَامِ، مَصْرُوفًا تَلْقَاءَ هَدَفٍ مُرَادٍ لَا مَحِيدَ عَنْهُ.
- وَالْمِشْيَةُ الْمُخْلَعَةُ، وَفِيهَا يَبْدُو آتِيهَا كَأَنَّهُ "مُرْكَبٌ عَلَى نَوَابِضِ كُلِّ مَا فِيهَا يَتَحَرَّكُ"<sup>(1)</sup>.
- وَالْمِشْيَةُ الْبَلِيدَةُ، وَتَظْهَرُ الْخَطْوَةُ فِيهَا مُرْتَكِسَةً، "وَالسَّاقُ مَجْرُورَةٌ مُرْتَخِيَةً، وَالْقَدَمَانِ مُثْقَلَتَيْنِ.
- وَالْمِشْيَةُ الشَّبْحُ الَّتِي يَظْهَرُ فِيهَا طَرَفَا الْقَدَمَيْنِ مُلَامَسَيْنِ لِلْأَرْضِ، مُنْزَلَقَيْنِ خَفِيَةً دُونَ أَنْ يُحْدِثَا جَلْبَةً أَوْ أَثْرًا إِلَّا كَمَا يُحْدِثُهُ النَّيَّارُ الْهَوَائِيُّ، وَهَنَّاكَ مِشْيَةُ "شارلو"، وَلَعَلَّ الْمَقَامَ لَا يَتَّسَعُ لِلخَوْضِ فِي كُلِّ ذَلِكَ<sup>(2)</sup>.

وَقَدْ أوردت ذلك في هذا السياق لأمرين: أولها تلمس بعض ذلك في التنزيل العزيز، وثانيهما الإلماحة إلى أن بعض معالم هذا الدرس مبنوث في كتب الأوائل عامَّة، ومُعْجَمَاتِ المعاني خاصَّة، ومن ذلك حديث الثعالبي في "فقه اللغة" عن فصل في تفصيل ضروب مشي الإنسان<sup>(3)</sup>، ومن ذلك التفاتته المُعْجِبَةُ إلى أثر السنِّ في هيئة المشية ودلالاتها، وأثر الحال النفسية، والحال الصحية، وغير ذلك، لِنَرْجِعِ النَّظْرَ فِي عُجَالَةٍ إِلَى ضُرُوبِ الْمَشْيِ الْمُثْبِتَةِ نَمَّ:

- الدَّرْجَانُ: مِشْيَةُ الصَّبِيِّ الصَّغِيرِ.
- وَالْحَبْوُ مِشْيَةُ الرِّضِيعِ عَلَى اسْتِهِ.
- وَالْحَجَلَانُ أَنْ يَرْفَعَ الْغُلَامُ رِجْلًا وَيَمْشِي عَلَى أُخْرَى.
- وَالخَطْرَانُ مِشْيَةُ الشَّابِّ بَاهْتِرَازٍ وَنَشَاطٍ.
- وَالدَّالِيفُ مِشْيَةُ الشَّيْخِ رَوِيدًا، وَمَقَارِبَتُهُ الخَطْوُ.
- وَالرَّسْفَانُ مِشْيَةُ الْمُقَيَّدِ.
- وَالِاخْتِيَالُ وَالتَّبَخُّرُ وَالتَّهْبِيسُ مِشْيَةُ الرَّجُلِ الْمُتَكَبِّرِ وَالْمَرْأَةِ الْمُعْجَبَةِ بِجَمَالِهَا وَكَمَالِهَا.
- وَالرَّفْلُ مِشْيَةُ مَنْ يَجْرُ ذِيولَهُ، وَيَرِكُضُهَا بِرِجْلِهِ.
- وَالتَّدْعُلُ مِشْيَةُ فِي اسْتِخْفَاءٍ.

(1) انظر: باكو، لغة الحركات، 55.

(2) لمزيد بسط القول انظر: باكو، لغة الحركات، 55-56.

(3) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 198-199.

- التَّرهُوُكُ: مشيةُ الذي يمشي كأنه يَمْوُجُ في مشيه.
- والحَنْدَقَةُ والنَّعْتَلَةُ: أن يَمْشِيَ مُفَاجَأً، وَيَقْلِبُ رِجْلَيْهِ، كأنه يَغْرِفُ بِهِمَا، وَهِيَ مِنَ التَّبَخْتُرِ<sup>(1)</sup>. ثُمَّ يَعْقُدُ فَصْلًا خَاصًّا فِي مَشْيِ النِّسَاءِ وَهَيْئَاتِهِ وَدِلَالَاتِهِ، كَالْتَهَالِكِ، وَالتَّأْوِدِ، وَالبَدْحِ، وَالتَّبَدِّحِ، وَالكَتْفِ، وَالتَّهْرَجِ، وَالقَرَصَعَةِ<sup>(2)</sup>.

أَمَّا فِي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ فَقَدْ وَرَدَتِ المَشْيَةُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ شَرِيفٍ فِي غَيْرِ هَيْئَةٍ، وَقَدْ أَعْقَبَ تَبَايُنُ تِلْكَمُ الهَيْئَاتِ تَبَايُنًا فِي الدِّلَالَاتِ وَالإِيحَاءَاتِ:

- فَهُنَاكَ مَشْيَةٌ حَمَالَةٌ لِذِلَالَةِ الوَقَارِ.
- وَأُخْرَى حَمَالَةٌ لِذِلَالَةِ الكِبَرِ وَالتَّبَخْتُرِ.
- وَثَالِثَةٌ دَالَّةٌ عَلَى الحَيَاءِ.
- وَرَابِعَةٌ عَلَى الجِدِّ وَالعِنَايَةِ.
- وَخَامِسَةٌ بَاعِثَةٌ عَلَى إِثَارَةِ الشَّهْوَةِ.
- وَسَادِسَةٌ عَلَى الطَّمَأْنِينَةِ وَالْأَنَانَةِ.

لِنَنْظُرُ فِي الآيَاتِ الكَرِيمَاتِ:

- "وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الجِبَالَ طَوْلًا"<sup>(3)</sup>.
- "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا"<sup>(4)</sup>.
- "ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى"<sup>(5)</sup>.
- "فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ"<sup>(6)</sup>.
- "وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى المَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى"<sup>(7)</sup>.
- "وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ"<sup>(8)</sup>.
- "وَلَا يَصْرِيحُ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ"<sup>(9)</sup>.

(1) انظر ذلك كله: الثعالبي، فقه اللغة، 198-199.

(2) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 199.

(3) الآية (الإسراء، 37).

(4) الآية (الفرقان، 63).

(5) الآية (القيامة، 33).

(6) الآية (القصص، 25).

(7) الآية (ياسين، 20).

(8) الآية (لقمان، 19).

(9) الآية (النور، 31).

أما في الآية الأولى ففيها نهي صراح عن مشية ذات هيئة تثير في النفس اختيالاً؛ ذلك أنها تومئ إلى الكبر، والتطاؤل، والشدة، والمقصد من هذا النهي الزباني أمران:

- أولهما تهكم بالمختال الظان بنفسه ظنَّ السوء.
- وثانيهما التفرير بأنه لن يجعل فيها خرقاً بدوِّسه لها، وشدة وطأته، ولن يبلغ الجبال بتطاؤله<sup>(1)</sup>.

وقد جاء في "الإنصاف": "وفي هذا التهكم والتفريع لمن يعتاد هذه المشية كفاية في الانزجار عنها، ولقد حفظ الله عوام زماننا عن هذه المشية، وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا"<sup>(2)</sup>، وقد قرن الحق - تعالى - بين المرح والكبر؛ ذلك أن غلبة السرور والفرح يضحبها التكبر والاختيال، ولذلك علل بقوله: "إنك لن تحرق الأرض..."، والمعنى أنك لن تحرق بمشيك على عقينك كبراً وتتعمأ، ولن تبلع الجبال بالمشي على صدور قدميك تفاخراً وطولاً، ونظيره: "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً"<sup>(3)</sup>.

أما التمطي في الآية الثالثة فهو التبختر، وقد تباین وجه القول على أصله الاشتقائي، فقيل إن الجذر المؤلف هو من "المطأ"، وهو الظهر، والمعنى المتعين: يلوي مطأه، وقيل أصله "ينمطط"، والمعنى المتعين التمدد من التناقل والتكسل، فكأنه يتناقل عن الداعي إلى الحق، وفي هيئة تلك المشية دلالة على التبخر وقلة الأكتراث، قال المصنف: "فالمطيطاء التبخر ومد اليد في المشي"<sup>(4)</sup>، وقيل إن الآية نزلت في أبي جهل، "وإنها كانت مشيته ومشيته قومه بني مخزوم، وكان يكثر منها"<sup>(5)</sup>.

وفي مقابل هذه المشية المذمومة والمذموم آتيتها مشية أخرى مندوبة ظهرت في سياق الآية الثانية، وهي مشية المؤمن في تودة، وسكينة، وحسن سمت، فلا يضرب بقدمه، ولا يخفق بئغله أشرًا ولا بطراً<sup>(6)</sup>، ولذلك وصف الرسول في شمائله الشريفة بأنه كان يتكفاً في مشيه

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 449/2.

(2) انظر: ابن المنير، الإنصاف، 449/2.

(3) الآية (الفرقان، 63)، وانظر: أبو حيان، البحر المحيط، 34/6.

(4) انظر: القرطبي، الجامع، 75/19.

(5) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 381/8.

(6) انظر: الزمخشري، الكشاف، 99/3، وأبو حيان، البحر المحيط، 469/6.

كَأَنَّمَا يَمْشِي فِي صَبَبٍ<sup>(1)</sup>. وَفِي الْآيَةِ الرَّابِعَةِ تَظْهَرُ مِشْيَةُ الْمُتَأَدِّبِ الْمُسْتَحْيِي، فَقَدْ جَاءَتْهُ تَمْشِي مُتَحَفِّزَةً مُسْتَحْيِيَةً<sup>(2)</sup>.

أَمَّا مِشْيَةُ السَّعِيِّ فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى الْجِدِّ وَالْعِنَايَةِ، وَلِلسَّعِيِّ أَمْسٌ مَعْنَى مُفَارِقٍ لِمَا رَانَ عَلَيْهِ الْفَنَاءُ اللَّغَوِيُّ الْيَوْمَ؛ ذَلِكَ أَنَّنَا إِذَا أَنْعَمْنَا النَّظَرَ فِي دِلَالَتِهَا بِإِعْتِبَارِ الْأَصْلِ لَا الْحَالِ، فَإِنَّا سَنَجِدُ أَنَّهَا كَانَتْ تَدُلُّ عَلَى الْإِسْرَاعِ فِي الْمَشْيِ<sup>(3)</sup>، وَقَدْ جَاءَ فِي اللِّسَانِ أَنَّ "السَّعِيَّ عَدُوٌّ دُونَ الشَّدِّ، وَفِي الْحَدِيثِ "إِذَا أَتَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعُونَ، وَلَكِنْ أَتُوهَا وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ"...، فَالسَّعِيُّ هُنَا الْعَدُوُّ، سَعَى إِذَا عَدَا"<sup>(4)</sup>.

وَتَظْهَرُ دِلَالَةُ الْحَرَكَةِ الْجَسَدِيَّةِ الْمُتَعَيِّنَةُ مِنْ هَيْئَةِ هَذِهِ الْمِشْيَةِ "السَّعِي" فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: "وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى"<sup>(5)</sup>، وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: "وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْقَوْمَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ..."<sup>(6)</sup>، فَقَدْ قِيلَ إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَانَ مَنْزِلُهُ عِنْدَ أَقْصَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ قَوْمَهُ قَدْ كَذَّبُوا الرُّسُلَ، وَهَمَّوْا بِقَتْلِهِمْ، "جَاءَ يَعْدُو وَيَسْتَدُّ..."<sup>(7)</sup>.

وَأَمَّا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى فَقَدْ شَرَحَ هَيْئَةَ هَذِهِ الْمِشْيَةِ وَدِلَالَتَهَا أَبُو حَيَّانَ فَقَالَ: "يَسْعَى: يَسْتَدُّ فِي مَشْيِهِ، وَلَمَّا أَمَرَ فِرْعَوْنُ بِقَتْلِهِ خَرَجَ الْجَلَاوِزَةُ مِنَ الشَّارِعِ الْأَعْظَمِ لِطَلْبِهِ، فَسَلَكَ الرَّجُلُ طَرِيقًا أُخْرَى أَقْرَبَ إِلَى مُوسَى"<sup>(8)</sup>، وَلِلْقَارِي أَنَّهُ يَتَخَيَّلُ كَيْفَ سَتَكُونُ هَيْئَةُ مِشْيَةِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ لِأَخْرَ يَهُمُّهُ أَمْرُهُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكَ لِيَقْتُلُوكَ... إِنَّهَا السَّعِيُّ وَالرَّكُضُ.

(1) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 469/6، وقد أخرج الحديث الترمذي في السنن، باب ما جاء في

صفة النبي صلى الله عليه وسلم (3638)، 5/599، وابن حبان في الصحيح، ذكر وصف التكفي،

(6310)، 14/217، وابن أبي شيبة في المصنف، (31805)، 6/328.

(2) انظر: الزمخشري، الكشاف، 3/171، وأبو حيان، البحر المحيط، 7/109.

(3) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "سعى"، وابن قتيبة، تأويل المشكل، 509.

(4) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "سعى"، والراغب في مفرداته يرى أن السعي المشي السريع، وهو

دون العدو، انظر: المفردات، 261.

(5) الآية (ياسين، 20).

(6) الآية (القصص، 20).

(7) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 8/202.

(8) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 7/106، والجلالوزة مفردتها الجلوز، وقيل معناها الشُرطِي.



أَمَّا مَشِيَّةُ الْإِثَارَةِ وَصَرْبُ الْأَرْضِ بِالرَّجْلِ الْهَابِا وَتَهْيِيجًا فَبَاعِثَةٌ عَلَى لَفْتِ النَّوَظِرِ،  
وَاسْتِدْعَاءِ الشَّهْوَةِ مِنْ مَكَامِنِهَا، وَسَيَّاتِي فَضْلُ بَيَانٍ مُجَلِّ لَهَا بَعْدًا فِي بَابِ الْقَوْلِ عَلَى الْمُتَمَّمَاتِ  
الْمُسَانِدَةِ فِي هَذِهِ الْمَبَاحِثَةِ.

### الْمُتَمَّمَاتُ الْمُسَانِدَةُ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ

يَشِيعُ فِي دَرْسِ لُغَةِ الْجَسَدِ مَطْلَبٌ مِنَ الْبَحْثِ فِي الْمُتَمَّمَاتِ الْمُسَانِدَةِ الَّتِي تُسَمَّى  
"الْإِكْسُورَاتِ"؛ كَالنَّظَّارَةِ، وَالسَّيْجَارَةِ، وَالسَّيْجَارِ، وَالْقَلَمِ، وَالْهَاتِفِ، وَالْعَصَا، وَاللِّبَاسِ، وَالْحِذَاءِ،  
وَعَبْرَ ذَلِكَ كَثِيرٌ كَثِيرٌ<sup>(1)</sup>، وَالظَّاهِرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا تُمَدَّنَا بِمَعَانٍ مَخْصُوصَةٍ؛ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَهَا  
تَوَابِعٌ لِأَعْضَاءِ الْجَسَدِ الْمَوْمِنَةِ، وَكَوَاشِفٌ لِلْحَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَالذَّهْنِيَّةِ الَّتِي تَعْتَرِي صَاحِبَهَا، فَهَيْئَةُ  
حَمَلِ الْمَرْءِ لِقَلَمِهِ لَهَا دِلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ كَتَبَ، أَوْ يَكْتُبُ، أَوْ يُفَكِّرُ مُطَرِّقًا مُمَسِّكًا بِقَلَمِهِ، وَقَدْ يَصِلُ  
الْأَمْرُ أحيانًا إِلَى قَضْمِ الْقَلَمِ<sup>(2)</sup>.

وَلنَضْرِبُ مِثَالًا سَرِيعًا مِنْ ثَرَاتِنَا الْعَرَبِيِّ عَلَى دِلَالَةِ بَعْضِ تَلْكَ الْمُتَمَّمَاتِ الْمُسَانِدَةِ،  
فَالْحَجَّاجُ لَمَّا خَرَجَ يُرِيدُ الْعِرَاقَ وَالْيَا عَلَيْهَا، بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَدَخَلَهُ، فَقَالَ لَمَّا كَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ:

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَائِيَا      مَتَى أَضَعُ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي<sup>(3)</sup>.

وَالَّذِي أَرَادَهُ الْحَجَّاجُ، وَمِنْ قَبْلِهِ الْقَائِلُ وَمَنْ أَتَى مِثْلَ هَذِهِ الْحَرَكَةِ، التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ  
الْمُتَحَقِّقَانِ مِنْ حَرَكَةٍ جَسَدِيَّةٍ لِلْمُتَمَّمَاتِ الْمُسَانِدَةِ، وَهِيَ الْعِمَامَةُ، وَدِلَالَةُ اطَّرَاجِهَا الْمُفْضِيَّةِ إِلَى  
أَنَّ يَغْدُوَ صَاحِبُهَا حَاسِرَ الرَّأْسِ هِيَ الْجِدُّ وَالنَّشَاغُلُ عَنْهَا بِهِمْ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْجَاحِظَ فِي "الْبَيَانِ"  
قَدْ نَقَعَتْ إِلَى هَذِهِ الْمُتَمَّمَاتِ الْمُسَانِدَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ تَعْرِيجَتُهُ عَلَى الْإِشَارَةِ الَّتِي قَدْ تَقَعُ بِالنُّوبِ  
وَبِالسَّيْفِ، فَقَدْ يَتَهَدَّدُ رَافِعُ السَّيْفِ وَالسُّوْطِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ زَاجِرًا، وَمَانِعًا رَادًّا، وَقَدْ يَكُونُ وَعِيدًا  
وَتَحْذِيرًا<sup>(4)</sup>.

وَقَدْ كَانَ لِلْمُتَمَّمَاتِ الْمُسَانِدَةِ ظُهُورٌ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ، وَفَضْلٌ فِي الْإِبَانَةِ وَالنَّوَاصِلِ،  
وَلنُنْظُرُ فِي ثَلَاثَةِ مُتَمَّمَاتٍ وَرَدَتْ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ اسْتِشْرَافًا لِذِلَالَتِهَا مِنْ جِهَةٍ، وَمَا رَمَى إِلَيْهِ  
الْحَقُّ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

- أَمَّا أَوْلَاهَا فَالْنَّعْلُ الَّتِي بَدَأَ أَنْ خَلَعَهَا مَجْلَبَةً لِلتَّبَرِّكِ.

(1) انظر: باكو، لغة الحركات، 70-75، وانظر: Pease, Body Language, P.155-162

(2) تربط باكو هذه الحركة بالسعادة والانفعال أحيانًا. انظر: لغة الحركات، 70.

(3) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 308/2.

(4) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 77/1.

- وَأَمَّا ثَانِيهَا فَالْقَمِيصُ الَّذِي كَانَ مُنْبَهَةً عَلَى حَصَصَةِ الْحَقِّ، مَدْعَاةً إِلَى الْوُقُوفِ عَلَى حَقِيقَةِ زَعْمِ رُمِي بِهِ بَرِيءٌ.
- وَأَمَّا ثَالِثُهَا فَالْخَلْخَالُ الَّذِي هُوَ مَفْسَدَةٌ فِي سِيَاقِ لَفْتِ النَّظَرِ وَإِبْدَاءِ الزَّيْنَةِ لِغَيْرِ مَنْ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهَا، وَقَدْ تَجَلَّى ذَلِكَ كُلُّهُ فِي الْآيَاتِ الشَّرِيفَاتِ الْآتِيَاتِ:
  - "فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى" (1).
  - "وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ" (2).
  - "إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ" (3).

أَمَّا "خَلْعُ النَّعْلَيْنِ" فَحَرَكَةٌ جَسَدِيَّةٌ تَنْتَسِبُ إِلَى الْمُتَمِّمَاتِ الْمُسَانِدَةِ، وَلَعَلَّ لَهَا دِلَالَاتٌ مُتَبَايِنَةٌ وَهِيَ مُجَرَّدَةٌ مِنْ سِيَاقِهَا، فَقَدْ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ آتِيَهَا بِهِ أَدَى مِنْ رِجْلَيْهِ، أَوْ بِهِ مَسٌّ، أَوْ تَوَاضَعٌ فِي مَقَامٍ مَا فَخَّلَعَ نَعْلَيْهِ تَبَرُّكًا وَتَطَامُنًا، وَلَعَلَّ الدِّلَالَةَ الْأَخِيرَةَ هِيَ الْمُتَعَيَّنَةُ مِنْ ذَلِكَ السِّيَاقِ، فَقَدْ قِيلَ إِنَّ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- أُمِرَ بِذَلِكَ لِيُبَاشِرَ الْوَادِيَّ بِقَدَمَيْهِ مُتَبَرِّكًا بِهِ، وَقِيلَ لِأَنَّ الْحَفْوَةَ تَوَاضَعٌ لِلَّهِ، وَمِنْ ثَمَّ طَافَ السَّلْفُ بِالْكَعْبَةِ حَافِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ اسْتَعْظَمَ دُخُولَ الْمَسْجِدِ بِنَعْلَيْهِ (4).

وَالَّذِي يَتَجَلَّى فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: "وَلَا يَضْرِبَنَّ" أَنَّ ثَمَّ نَهْيًا عَنِ الْإِثْيَانِ بِحَرَكَةِ جَسَدِيَّةٍ تَسْنُدُهَا بَعْضُ الْمُتَمِّمَاتِ الْمُسَانِدَةِ، أَعْنِي الْخَلْخَالَ، وَالْمَعْنَى الْمُتَعَيَّنُ أَنَّ الْمَرَّةَ لَا يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَضْرِبَ الْأَرْضَ بِرِجْلِهَا إِذَا مَشَتْ لِتُسْمِعَ صَوْتَ خَلْخَالَهَا؛ وَلَعَلَّ النَّهْيَ عَنِ ذَلِكَ كَالنَّهْيِ عَنِ إِبْدَاءِ الزَّيْنَةِ، فَاسْمَاعُ صَوْتِ الزَّيْنَةِ، وَهِيَ مِنَ الْمُتَمِّمَاتِ الْمُسَانِدَةِ، كإِبْدَاءِ الزَّيْنَةِ فِي مَذْهَبِ الْقُرْطُبِيِّ (5)، وَالْعَرَضُ مِنْ هَذَا النَّهْيِ عَنِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ هُوَ التَّسْتُرُ، وَلَعَلَّ سَبَبَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ مَا وَقَعَ حَقًّا بِسَبَبِ مِنْ هَذِهِ الْفِعْلَةِ الَّتِي أَتَتْهَا امْرَأَةٌ اتَّخَذَتْ بُرْتَيْنِ مِنْ فِصَّةٍ، فَمَرَّتْ عَلَى الْقَوْمِ

(1) الآية (طه، 12).

(2) الآية (النور، 31).

(3) الآية (يوسف، 26-27).

(4) انظر: الزمخشري، الكشاف، 531/2.

(5) انظر: القرطبي، الجامع، 158/12.

فَصَرَبَتْ بِرِجْلِهَا الْأَرْضَ فَوَقَعَ الْخَلْخَالُ فَصَوَّتْ، "وَسَمَاعُ هَذِهِ الزَّيْنَةُ أَشَدُّ تَحْرِيكًا لِلشَّهْوَةِ مِنْ إِبْدَائِهَا"<sup>(1)</sup>.

وَقَدْ ذَهَبَ ابْنُ حَزْمٍ بَعِيدًا فِي تَلْمُسِ خَفَايَا النَّفْسِ الْأَنْثَوِيَّةِ فِي إِيْتِيَانِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ وَالْمُتَمِّمِ الْمُسَانِدِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا مَرَّتْ عَلَى الرَّجَالِ قَدْ لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهَا، وَلَا يُشْعَرُ بِهَا، وَهِيَ تَكْرَهُ الْأَ يُنْظَرُ إِلَيْهَا، فَإِذَا فَعَلَنَ ذَلِكَ نَبَّهَنَ عَلَى أَنْفُسِهِنَّ، وَذَلِكَ بِحُبِّهِنَّ فِي تَعَلُّقِ الرَّجَالِ بِهِنَّ، "وَهَذَا مِنْ خَفَايَا الْإِعْلَامِ بِحَالِهِنَّ"<sup>(2)</sup>.

أَمَّا الْقَمِيصُ، وَهُوَ مِنَ الْمُتَمِّمَاتِ الْمُسَانِدَةِ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- فَكَانَ ذَا سُهْمَةٍ كَبِيرَةٍ فِي تَشْكِيلِ الْقِصَّةِ وَحِكْمِهَا مِنْ مُفْتَتِحِهَا إِلَى مُنْتَهَاهَا:

- فَقَدْ كَانَ سَبِيلاً مِنْ سُبُلِ التَّنَسُّرِ فِي إِخْفَاءِ جَرِيْمَةِ طَرْحِ يُوسُفَ أَرْضًا.
- وَسَبِيلاً أُخْرَى مِنْ سُبُلِ دَرْءِ التَّهْمَةِ عَنِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ.
- وَسَبِيلاً مُعْجَزَةً فِي شِفَاءِ النَّبِيِّ أَبِي التَّيْبِيِّ.

وَقَدْ ظَهَرَ فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ التَّالِيَةِ:

- "فَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ"<sup>(3)</sup>.
- "وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنْ كَيْدِكُنَّ عَظِيمٌ"<sup>(4)</sup>.
- "الذُّهْبُ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْفُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا"<sup>(5)</sup>.

وَفِي بَابِ الْقَوْلِ عَلَى دَرْءِ التَّهْمَةِ كَانَ لِلْقَمِيصِ بَعْدَ الْمُرَاوَدَةِ صُورَةٌ وَدِلَالَةٌ أَفْضَلُ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَى الْحَقِيقَةِ الَّتِي غَدَتْ سَائِرَةً عَلَى لِسَانِ نِسْوَةٍ فِي الْمَدِينَةِ قَائِلَاتٍ: امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا!! وَلَعَلَّ أَنْظَرَ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْمُعْجَبَةَ، وَالْمُنْتَبِرَةَ فِي حَالِ ذَلِكَ الْقَمِيصِ، وَسَيْلَةً مِنْ وَسَائِلِ التَّحَقُّقِ وَالتَّنَبُّتِ فِي مَوْقِعِ الشُّبْهَةِ أَوْ الْجَرِيْمَةِ، وَلَيْسَ يَفُوتُنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ فِي أَيَّامِنَا

(1) انظر: القرطبي، الجامع، 158/12، وانظر ما قيل في هذه الحركة والتمتم المساند: الطبرسي، مجمع البيان، 192/7، وأبو حيان، البحر المحيط، 414/6.

(2) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 414/6، وانظر قول ابن حزم في طوق الحمامة، 121.

(3) الآية (يوسف، 18).

(4) الآية (يوسف، 26-28).

(5) الآية (يوسف، 93).

هذه يَتَشَبَّهُونَ بِمِثْلِ تِلْكَ التَّفْصِيْلَاتِ فِي مَسْرَحِ الْحَدَثِ، وَيَجْعَلُونَهَا مِنَ الدَّلَائِلِ الْهَوَادِي لِلْحَقِيقَةِ فِي غَايَتِهِمْ، وَلِلْمَعْنَى فِي غَايَتِنَا.

وَكَذَلِكَ كَانَ الْقَمِيصُ، فِي تَشْكِيلِ آخَرَ، وَإِخْرَاجِ مَشْهَدِيٍّ مُبَايِنٍ لِحَالِهِ بَعْدَ الْمُرَاوَدَةِ، وَسَيْلَةً مِنْ أُخْوَةِ يَوْسُفَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الذَّنْبَ قَدْ أَكَلَهُ، فَاسْتَعَانُوا عَلَى مَقْصُودِهِمْ بِالْوَسِيلَتَيْنِ:

- الصَّائِنَّةُ، وَهِيَ كَلَامُهُمْ وَقَوْلُهُمْ لِأَبِيهِمْ.
- وَالصَّامِتَةُ، وَهِيَ اسْتِزْفَادُ الدَّلَالَةِ مِنَ الْمُتَمَمَاتِ الْمُسَانِدَةِ الَّتِي تَوْهَمُوهَا فِي مَسْرَحِ الْجَرِيْمَةِ الْمُصْطَنَعَةِ.

وَكَانَ الْقَمِيصُ فِي سِيَاقِ ثَالِثٍ ذَا دِلَالَةٍ مُعْجَزَةٍ؛ إِذْ كَانَ رَدِيقًا لِلدَّوَاءِ، مَجْلَبَةً لِلشِّفَاءِ، مَشْهَدَةً بِحَيَاةِ صَاحِبِهِ وَوُجُودِهِ الَّذِي طَالَ انْتِظَارُهُ، "فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا تَعْلَمُونَ" (1).

### الْحَرَكَةُ الْجَسَدِيَّةُ فِي جَنْبِ اللَّهِ:

وَقَدْ تَكُونُ الْحَرَكَةُ الَّتِي هِيَ فِي جَنْبِ اللَّهِ مِمَّا لَا يُحْمَلُ عَلَى مَحْمَلِ الْحَقِيقَةِ؛ ذَلِكَ أَنَّهَا تَسْتَحِيلُ عَلَى اللَّهِ، وَقَدْ يَكُونُ الْبَاعِثُ عَلَى وَصْفِ الْحَرَكَةِ الْجَسَدِيَّةِ، أَوْ إِثْبَاتِهَا فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ، تَوْضِيحُ أَمْرٍ مَا بِالْتَّمَثِيلِ وَالتَّشْبِيهِ، "فَلِلْعَرَبِ الْمَجَازَاتُ فِي الْكَلَامِ، وَمَعْنَاهَا طُرُقُ الْقَوْلِ وَمَاخُذُهُ، فَفِيهَا الْاسْتِعَارَةُ، وَالتَّمَثِيلُ، وَالْقَلْبُ، وَالتَّقْدِيمُ، وَالتَّأْخِيرُ، وَالْحَدْفُ، وَالتَّكْرَارُ، وَالْإِخْفَاءُ، وَالْإِظْهَارُ، وَالتَّعْرِيضُ، وَالْإِفْصَاحُ، وَالْكِنَايَةُ، وَالْإِيضَاحُ، .. مَعَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ سَتَرَاهَا فِي "أَبْوَابِ الْمَجَازِ"، وَبِكُلِّ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ نَزَلَ الْقُرْآنُ" (2).

وَمِنْ ذَلِكَ الْيَدُ الْجَارِحَةُ فِي جَنْبِ اللَّهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: "يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ" (3)، وَلَا يَخْفَى أَنَّ هَذِهِ الْحَرَكَةَ الْجَسَدِيَّةَ إِنَّمَا يَأْتِيهَا الْمُتَحَالِفُونَ وَالْمُتَبَايِعُونَ، فَهَلْ لِلَّهِ يَدٌ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ؟ وَبِذَا سَيُحْمَلُ هَذَا الْخِطَابُ الْقُرْآنِيُّ عَلَى وَجْهِ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ، أَمْ كَانَتْ تِلْكَ الْحَرَكَةُ فِي سِيَاقِهَا تَوْضِيحًا عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ، وَبِذَا سَيُفْهَمُ عَلَى وَجْهِ مِنَ التَّنْزِيهِ؟ وَقَدْ أُوْلِتِ الْيَدُ فِي تِلْكَ الْآيَةِ بِالنَّعْمَةِ، أَيْ نِعْمَةِ اللَّهِ فِي الْمُبَايَعَةِ لِمَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ مَحَاسِنِهَا، وَقِيلَ: قُوَّةُ اللَّهِ

(1) الآية (يوسف، 96).

(2) انظر: ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، 21.

(3) الآية (الفتح، 10).

فَوْقَ قُورِهِمْ فِي نَصْرِكِ وَنَصْرِهِمْ، وَقَالَ الرَّمَحْشَرِيُّ: "أَكَّدَ تَأْكِيدًا عَلَى طَرِيقَةِ التَّخْيِيلِ، فَقَالَ: يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ، وَاللَّهُ -تَعَالَى- مُنَزَّةٌ عَنِ الْجَوَارِحِ، وَعَنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ"<sup>(1)</sup>، وَقِيلَ: يَدُ اللَّهِ فِي الثَّوَابِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فِي الْوَفَاءِ<sup>(2)</sup>.

وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ الْحَرَكَةَ الْجَسَدِيَّةَ وَمَا هُوَ مِنْ نَحْوِهَا فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ مِمَّا أُلْحِقَ بِآيَاتِ الصِّفَاتِ، وَقَدْ عُدَّتْ مِنَ الْمُتَشَابِهِ<sup>(3)</sup>، وَأَسْتِ إِخَالٌ أَنْ مَلَمَحَ التَّشَابُهَ فِيهَا آتٍ مِنْ جِهَةٍ كَوْنِهَا مُشْكَلَةً حَقًّا، وَأَمَّا هُوَ آتٍ مِنْ تَبَايُنِ الْوُجْهَاتِ فِي الْمُعْتَقَدِ، وَطَرَائِقِ التَّفْكِيرِ وَالِاسْتِدْلَالِ، وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْوَارِدِ مِنْهَا فَكَانُوا عَلَى ثَلَاثِ شُعَبٍ:

- أَوْلَاهَا: تَغْيِيبُ التَّأْوِيلِ وَإِنْتِقَاؤُهُ، فَالآيَاتُ مُحْكَمَاتٌ تُفْهَمُ عَلَى ظَاهِرِهَا.

- وَثَانِيهَا: الْاِعْتِقَادُ بِالتَّأْوِيلِ مَعَ الْإِمْسَاكِ عَنْهُ.

- وَثَالِثُهَا: الْاِعْتِقَادُ بِالتَّأْوِيلِ مَعَ الْإِقْدَامِ عَلَيْهِ بِمَا يَلِيقُ بِهِ عَزَّ<sup>(4)</sup>.

وَلَعَلَّ الَّذِينَ قَالُوا بِتَغْيِيبِ التَّأْوِيلِ وَإِنْتِقَاؤِهِ قَدْ عَوَّلُوا عَلَى مُطَابَقَةِ الْمَعْنَى لِظَاهِرِ اللَّفْظِ، أَمَّا الَّذِينَ اِعْتَقَدُوا بِوُجُوبِ حَمْلِ الْكَلَامِ عَلَى خِلَافِ الْمَفْهُومِ مِنْ حَقِيقَتِهِ فَقَدْ بَدَأَ لَهُمْ اسْتِحَالَةُ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ فِي حَقِّ اللَّهِ، وَمِنْ ذَلِكَ ذِكْرُ "الْوَجْهِ"، فَقَدْ تَرَدَّدُوا بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ؛ مَنْزِلَةَ الْأَخْذِ بِالظَّاهِرِ، وَمَنْزِلَةَ التَّأْوِيلِ<sup>(5)</sup>.

وَمِنْ نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ صِفَةُ الْقُرْبِ، وَالْفَوْقِيَّةِ، وَالْمَجِيءِ، وَالرِّضَا، وَالْعَضْبِ، وَالْعَجَبِ<sup>(6)</sup>، وَالَّذِي يَبْدُو أَنَّ تِلْكَ الصِّفَاتِ مَا جَاءَتْ إِلَّا فِي سِيَاقِ لُغَوِيٍّ كَرِيمٍ يَجْرِي مَجْرَى لُغَةِ الْعَرَبِ فِي مُخَاطَبَاتِهَا، وَكُلُّ صِفَةٍ تَسْتَحِيلُ حَقِيقَتُهَا عَلَى اللَّهِ تُفَسَّرُ بِإِلْزَامِهَا<sup>(7)</sup>، وَعِنْدَ هَذَا يَظْهَرُ الْمُتَدَبَّرُ بِرَوِيَّةٍ وَأَلْفِ نَظَرٍ مُتَجَافِيًا عَنِ مَذْهَبِ الشُّطْطِ وَالتَّكَلُّفِ فِي تَغْيِيبِ التَّأْوِيلِ أَوْ اسْتِحْضَارِهِ، بَلْ يَقْصِدُ إِلَى الْعَرَضِ الْمُتَعَيِّنِ مِنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ كَمَا يَنْظُرُ إِلَى الْمَعْنَى مِنْ سِثْرِ رَقِيقٍ، فَيَعْوَلُ

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 543/3، وأبو حيان، البحر المحيط، 92/8.

(2) انظر: القرطبي، الجامع، 177/16.

(3) انظر: الراغب، المفردات، 254، والزرکشي، البرهان، 78/2، والسيوطي، الإتيان، 685.

(4) انظر: الزرکشي، البرهان، 78/2.

(5) انظر: الزرکشي، البرهان، 80/2.

(6) انظر: السيوطي، الإتيان، 688.

(7) انظر: السيوطي، الإتيان، 692.

عَلَى الْمَعْنَى الْكُلِّيِّ السِّيَاقِيَّ؛ ذَلِكَ أَنَّ جَمِيعَ الْأَغْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ: أَعْنِي الرَّحْمَةَ، وَالْفَرَحَ، وَالسَّرُورَ، وَالغَضَبَ، وَالْحَيَاءَ، وَالْمَكْرَ، وَالِاسْتِهْزَاءَ، لَهَا أَوَائِلٌ وَلَهَا غَايَاتٌ.

وَمِنْ ذَلِكَ "الغَضَبُ"، فَإِنَّ أَوْلَهُ غَلِيَانُ دَمِ الْقَلْبِ، وَغَايَتُهُ إِرَادَةُ إِصَالِ الضَّرْرِ إِلَى الْمُغْضُوبِ عَلَيْهِ، فَلَفِظُ الغَضَبِ فِي حَقِّ اللَّهِ لَا يُحْمَلُ عَلَى أَوْلِهِ الَّذِي هُوَ غَلِيَانُ دَمِ الْقَلْبِ، بَلْ عَلَى غَرَضِهِ الَّذِي هُوَ إِرَادَةُ الإِضْرَارِ، وَكَذَلِكَ الْحَيَاءُ،...، لَهُ أَوْلٌ، وَهُوَ انْكِسَارٌ يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ، وَلَهُ غَرَضٌ وَهُوَ تَرْكُ الْفِعْلِ، فَلَفِظُ الْحَيَاءِ فِي حَقِّ اللَّهِ عَلَى تَرْكِ الْفِعْلِ لَا عَلَى انْكِسَارِ النَّفْسِ<sup>(1)</sup>.

### المَقُولَاتُ الْكُلِّيَّةُ:

لَعَلَّهُ يَسْتَقِيمُ بَعْدَ هَذَا الْعَرَضِ أَنْ يُقَالَ إِنَّ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ نَمَطًا تَوَاصُلِيًّا يُمَكِّنُ أَنْ يُسَمَّى "لُغَةً الْجَسَدِ"، أَوْ "التَّوَاصُلَ غَيْرَ اللَّفْظِيِّ"، وَجُلُّ مَا تَقَدَّمَ قَبْلًا مِنْ دِلَالَتِ، وَهَيْئَاتِ، وَحَرَكَاتِ، كَانَ تَمَازِجَ جُزْئِيَّةً يُرَادُ مِنْهَا تَجْلِيَّةُ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ عَامَّةً، وَبَيَانُ بَعْضِ تَجْلِيَّاتِهَا فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ خَاصَّةً، وَالَّذِي يَأْتِي عَقَبَ ذَلِكَ هُوَ الْمُوجِّهَاتُ الْكُلِّيَّةُ الَّتِي تَجْمَعُ نِشَارَ مَا تَقَدَّمَ، وَتَجْعَلُهُ كَالْعَقْدِ الَّذِي يَنْتَظِمُهُ سِلْكٌ جَامِعٌ لِأَشْتَاتِهِ، وَقَدْ قَسَمْتُ تِلْكَ الْمَقُولَاتِ الْكُلِّيَّةِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

- أَوْلَاهَا الْإِحْتِرَاسُ.
- وَثَانِيهَا التَّقْسِيرُ.
- وَثَالِثُهَا الْإِسْتِدْرَاكُ.

### أَوْلَى: الْإِحْتِرَاسُ

أَمَّا الْإِحْتِرَاسُ فَهُوَ آخِذٌ فِي غَوْرَيْنِ اثْنَيْنِ:

أَوْلُهُمَا أَنْ مَا وَرَدَ هُنَا قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ يَحْتَاجُ إِلَى مُصَنَّفٍ قَائِمٍ بِرَأْسِهِ حَتَّى يَسْتَعْرِقَهُ بَحْثًا وَاسْتِشْرَافًا، فَتَمَّ الْإِشَارَةُ، وَالرَّمْزُ، وَالْوَحْيُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَمِنْ ذَلِكَ إِشَارَةُ مَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - لَمَّا صَامَتْ عَنِ الْكَلَامِ، فَلَمْ تُكَلِّمْ فِي يَوْمِهَا ذَاكَ إِنْسِيًّا، فَاسْتَرْفَدَتْ مِنْ لُغَةِ الْجَسَدِ عَامَّةً، وَالْإِشَارَةُ خَاصَّةً، التَّوَاصُلَ وَالْإِبَانَةَ عَنْ مَكْنُونِ لَفْظِهَا، وَخَاصَّ جَوَابِهَا وَمُرَادِهَا، فَكَانَ

(1) انظر: السيوطي، الإتقان، 692.

ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَرَدَّ عَلَيْهَا قَوْمُهَا وَفَاءً بِمَا كَانَ مِنْهَا مِنْ لُغَةٍ جَسَدِيَّةٍ صَامِتَةٍ غَيْرِ صَائِتَةٍ: "كَيْفَ نَكَلِّمْ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا"<sup>(1)</sup>.

وَكَذَلِكَ زَكَرِيَّا الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ آيَتَهُ أَلَّا يَكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَإِيحَاءً قَائِمِينَ عَلَى التَّوَاصُلِ غَيْرِ اللَّفْظِيِّ<sup>(2)</sup>، وَمَا كَانَ أَكْثَرَ حُضُورَ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ إِيْمَاءَاتٌ تَوَاصُلِيَّةٌ، وَكَوَاشِفٌ لِحَالَاتِ نَفْسِيَّةٍ، وَدَوَالٌ عَلَى مَعَانٍ مَعْنَوِيَّةٍ، كَالْفَرَحِ، أَوْ الْحُزَنِ، أَوْ الْجَرَخِ، أَوْ الْخَوْفِ، وَهُنَاكَ وَهُنَاكَ الْكَثِيرُ مِنْ مَعِينٍ خَالِدٍ لَا يَنْصُبُ، وَهَذَا يَكْثُرُ إِنْ تَتَّبَعْتَهُ، وَقَدْ أُوْرِدَتْ أَمْثَلَةٌ تُنَبِّهُ عَلَى الْغَرَضِ الَّذِي قَصَدْتُهُ.

وَتَانِيهِمَا أَنْ تَعْيِينَ مَعْنَى حَرَكَةٍ جَسَدِيَّةٍ مَا عَلَى وَجْهِ الْإِحْكَامِ يَجِبُ أَلَّا يَكُونَ بِمَعْرِزٍ عَنِ السِّيَاقِ الَّذِي تَرُدُّ فِيهِ، وَلَيْسَ يُنْسَى الْإِلْتِقَاتُ إِلَى مَا يُصَاحِبُهَا مِنْ حَرَكَاتٍ أُخْرَى تَتَرَاوَدُّ وَتَتَضَافِرُ فِي الْإِبَانَةِ وَالْبَيَانِ<sup>(3)</sup>، فَالْحَرَكَةُ -وَقَدْ تَقَدَّمَتْ إِمَاحَةً إِلَى هَذَا- كَالْكَلِمَةِ، فَلَهَا دِلَالَةٌ مُجَرَّدَةٌ مَبْنُوْتَةٌ فِي بَطْنِ الْمُعْجَمَاتِ، وَلَهَا دِلَالَةٌ أَوْ دِلَالَاتٌ أُخْرَى تَتَّبَإَيْنُ بِتَبَإَيْنِ السِّيَاقَاتِ، وَتَبَإَيْنِ مَا يُصَاحِبُهَا مِنْ كَلِمَاتٍ أُخْرَى، وَهَذِهِ هِيَ حَالُ الْحَرَكَةِ الْجَسَدِيَّةِ فِي لُغَةِ الْجَسَدِ، وَمِنْ الْمُثَلِّ الْمَجَلِّيَّةِ لِهَذِهِ الْفِكْرَةِ صُورَةٌ نَاطِقَةٌ بِالْإِبَانَةِ عَنْ وَصْفِ حَالِ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَصَفًا قَلْبِيًّا وَقَالِبِيًّا، فَالْحَقُّ يَقُولُ: "إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ، مُهْطِعِينَ مُقْنَعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ"<sup>(4)</sup>، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَصَفٌ ذُو دِلَالَاتٍ لِحَرَكَاتٍ جَسَدِيَّةٍ نَسْتَعِينُ عَلَى تَعْيِينِهَا بِدِلَالَةِ السِّيَاقِ الْكُلِّيَّةِ الَّتِي تَتَجَلَّى عَلَى جَوَارِحِهِمْ عَيْنًا، وَرَأْسًا، وَطَرْفًا، وَمَشْيَةً<sup>(5)</sup>.

### ثَانِيًا: التَّفْسِيرُ

أَمَّا التَّفْسِيرُ فَالْمَقْصِدُ مِنْهُ بَيَانُ سُهْمَةِ الْحَرَكَاتِ وَفَضْلِهَا فِي الدِّلَالَةِ، وَالْإِبَانَةِ، وَالتَّوَاصُلِ عَلَى وَجْهِ كُلِّيٍّ ذِي عُمُومٍ اسْتِكْمَالًا لِمُتَطَلِّبَاتِ الدَّرْسِ، وَاسْتِشْرَافًا لِلْأَنْظَارِ التَّفْسِيرِيَّةِ، فَقَدْ بَدَأَ لِي

(1) الآية (مريم، 29).

(2) كان ذلك مصداقا لقوله -تعالى-: "قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا"، الآية (آل عمران، 41).

(3) انظر:

Pease, Body Language, P.17.

(4) الآية (إبراهيم، 43).

(5) انظر ما قيل في هذه الآية: الطبرسي، مجمع البيان، 9/6-70، والقرطبي، الجامع، 9/247، وأبو حيان، البحر المحيط، 5/418-419، والشريف الرضي، تلخيص البيان، 113.

أَنَّ الحَرَكَةَ الجَسَدِيَّةَ فِي سِيَاقِهَا القُرْآنِيَّ الشَّرِيفِ تُؤَدِّي أَعْرَاضًا وَوِظَائِفَ مُتَعَدِّدَةً، وَأَنَّ بِمُكْنَتِهِ أَنْ يَتَنَاوَلَهَا مِنْ وَجْهَاتٍ مُتَبَايِنَاتٍ؛ كَالوَجْهَةِ الدَّلَالِيَّةِ، وَالوَجْهَةِ النَّفْسِيَّةِ، وَالوَجْهَةِ اللَّفْظِيَّةِ، وَالوَجْهَةِ البَلَاغِيَّةِ الجَمَالِيَّةِ، وَالوَجْهَةِ التَّرْبِيويَّةِ، وَالوَجْهَةِ التَّوْضِيحِيَّةِ.

- أَمَّا الوَجْهَةُ الدَّلَالِيَّةُ فَقَدْ تَكُونُ الحَرَكَةُ الجَسَدِيَّةُ مِنَ الرِّوَاغِدِ الَّتِي تُعْذِي المَعْنَى، وَتُعَزِّزُ فِكْرَتَهُ وَدِلَالَتَ هَذِهِ الكَلِمَةِ؛ وَذَلِكَ نَحْوُ قَوْلِ الحَقِّ -تَعَالَى-: "إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ، وَتَنظَنُونَ بِاللهِ الظُّنُونَا"<sup>(1)</sup>، وَلَعَلَّ اسْتِشْرَافَ السِّيَاقِ البِنْيَوِيِّ يُفْضِي إِلَى أَنْ تَكُونَ الحَرَكَةُ الجَسَدِيَّةُ المُتَعَيِّنَةُ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: "وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ" تَدُلُّ عَلَى الخَوْفِ وَرَمِي النَّظْرِ فِي تَخَوُّفٍ وَتَحَطُّفٍ، وَلَيْسَ يَخْفَى، مِنْ وَجْهَةٍ أُخْرَى، أَنَّ هَذِهِ الدَّلَالَةَ تَتَعَيَّنُ مِنْ قَوْلِهِ -تَعَالَى- الَّذِي جَاءَ عَقِبَهَا: "وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ"، فَالْحَرَكَةُ الجَسَدِيَّةُ هُنَا رَافِدٌ مُهِمٌّ يُعَزِّزُ المَعْنَى المُتَشَكَّلَ فِي سِيَاقِهِ البِنْيَوِيِّ اللَّفْظِيِّ، وَلَعَلَّ أَصْدَقَ مَيْسَمٍ يُمَكِّنُ أَنْ يُسَبَّغَ عَلَى هَذِهِ الحَرَكَةِ، وَعَلَى مَا هُوَ مِنْ نَحْوِهَا، أَنَّهَا مِنَ الرِّوَاغِدِ المُعَزِّزَةِ لِلْمَعْنَى.

- وَأَمَّا الوَجْهَةُ النَّفْسِيَّةُ فَقَدْ تَكُونُ الحَرَكَةُ مِنَ الكَوَاشِفِ لِحَالَاتِ نَفْسِيَّةٍ؛ ذَلِكَ أَنَّهُا وَرَدَتْ فِي سِيَاقِهَا الشَّرِيفِ عَلَى سَبِيلِ وَصْفِ حَقِيقَةٍ عَاشَهَا قُطْبٌ مِنْ أَقْطَابِ الحَدِيثِ أَوْ الحَدَثِ الكَلَامِيِّ؛ ذَلِكَ أَنَّهُا وَقَعَتْ فِعْلاً؛ ثُمَّ وَصَفَهَا اللهُ لَنَا عَلَى أَنَّهَا كَوَاشِفٌ لِحَالَاتِ نَفْسِيَّةٍ، وَمِنْهَا دِلَالَاتُ الرُّأْسِ الخَفِيضِ المُتَطَامِنِ فِي مَقَامِ التَّنْكِيسِ وَالأَزْتِكَاسِ، وَمِنْهَا كَذَلِكَ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: "تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ"<sup>(2)</sup>، فَالدَّلَالَةُ المُتَعَيِّنَةُ مِنْ هَذِهِ الحَرَكَةِ الجَسَدِيَّةِ مُنْبِئَةٌ عَنِ حَالِ نَفْسِيَّةٍ تَعْتَرِي أَهْلَهَا فِي ذَلِكَ السِّيَاقِ وَمَا يَلْتَفُّ بِهِمْ مِنْ أَحْوَالٍ، وَأَهْوَالٍ، وَقَرَائِنٍ.

- وَأَمَّا الوَجْهَةُ اللَّفْظِيَّةُ فَقَدْ تَعْدُو الحَرَكَةُ الجَسَدِيَّةُ مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّ كَلِمَةٍ، أَوْ كَلَامٍ، أَوْ كَلِمَاتٍ، فَيَكُونُ الوَوصْفُ الحَرَكَيُّ فِي سِيَاقِهِ الشَّرِيفِ قَائِمًا عَلَى مَبْدَأِ الاِعتِيَاضِ، كَمَا فِي قَوْلِ الحَقِّ -تَقَدَّسَ اسْمُهُ-: "فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاطِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا"<sup>(3)</sup>، وَلَعَلَّ قَوْلَهُ "يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ" يَعْني فِي مُعْجَمِ الحَرَكَاتِ الجَسَدِيَّةِ فِي هَذَا السِّيَاقِ النَّدَمَ، وَكَأَنَّ السِّيَاقَ اللَّفْظِيَّ: "فَأَصْبَحَ نَادِمًا عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا..."، فَكَانَتْ تِلْكَ الحَرَكَةُ مِنَ البَدَائِلِ الَّتِي تَقُومُ مَقَامَ سِيَاقِ لَفْظِيٍّ، إِنْ كَلِمَةً، وَإِنْ جُمْلَةً، وَإِنْ كَلَامًا كَمَا فِي قَوْلِ الحَقِّ: "فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ"<sup>(4)</sup>.

(1) الآية (الأحزاب، 10).

(2) الآية (الأحزاب، 19).

(3) الآية (الكهف، 42).

(4) الآية (مريم، 29).



- وَأَمَّا الْوَجْهَةُ الْبِلَاغِيَّةُ الْجَمَالِيَّةُ فَقَدْ تَعَدُو الْحَرَكَةُ الْجَسَدِيَّةُ فِي سِيَاقِهَا الشَّرِيفِ ذَاتِ أَلْقٍ مُشِيعٍ يَبْعَثُ فِي نَفْسِ الْمُتَلَقِّي إِعْجَابًا وَاسْتِرْجَاعًا لِلْقَوْلَةِ الْمَأْثُورَةِ الْمُفْضِيَّةِ إِلَى التَّقْرِيرِ بِأَنَّ لَهُ حَلَاوَةً، وَأَنَّ عَلَيْهِ طَلَاوَةً، وَأَنَّ أَعْلَاهُ لِمُتَمَرٍّ، وَأَنَّ أَسْفَلَهُ لِمُعَدِّقٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ بَشَرٍ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: "يُقَلِّبُ كَفَيْهِ"<sup>(1)</sup>، فَلِمَرَّ أَنْ يُعِيدَ عَلَى صَاغِي سَمْعِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الرُّوِيَّةِ وَالتَّدْبِيرِ الْبَوْنِ الْمُتَجَلِّي بَيْنَ قَوْلِ النَّاسِ "أَصْبَحَ نَادِمًا"، وَقَوْلِ رَبِّ النَّاسِ: "أَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ".

- وَأَمَّا الْوَجْهَةُ التَّرْبُويَّةُ فَقَدْ تَعَدُو الْحَرَكَةُ الْجَسَدِيَّةُ فِي سِيَاقِهَا الثَّرَانِي الشَّرِيفِ ذَاتِ أَفْقٍ تَرْبُويٍّ يَصْرِفُ الْأَبْصَارَ تِلْقَاءَ مَا هُوَ مُنْدُوبٌ يُبِيحُهُ الشَّارِعُ، فَيَحْتُ عَلَيْهِ، أَوْ مَا هُوَ مَكْرُوهٌ يَمُجُّهُ الشَّارِعُ فَيُعَاقِبُ عَلَيْهِ، وَمِنْ تَجَلِّيَاتِ الْأُولَى قَوْلُ الْحَقِّ فِي حَضْرَةِ قُدْسِ الذَّاتِ، وَالتَّجَلِّي، وَالتَّكْلِيمِ: "فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوى"<sup>(2)</sup>، وَمِنْ تَجَلِّيَاتِ الْأُخْرَى قَوْلُ الْحَقِّ مُؤَدِّبًا، وَمُحَدِّثًا، وَمُنْكَرًا عَلَى مَنْ يَأْتِي هَذَا الْمَخْظُورَ الْمُسْتَهْجَنَ مِنَ الْحَرَكَاتِ الْجَسَدِيَّةِ، وَالْمُنْمَثِّلِ فِي وَصْفِهِ جَسَدِيًّا وَحَرَكَيًا: "وَلَا تُصَعِّرْ حَدَّكَ لِلنَّاسِ"<sup>(3)</sup>، وَ"وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا"<sup>(4)</sup>، وَ"وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلَيْهِ"<sup>(5)</sup>.

### ثَالِثًا: الْاسْتِذْرَاكُ

أَمَّا ثَالِثَةُ الْأَتَافِي فِي بَابِ الْقَوْلِ عَلَى الْمَقُولَاتِ الْكَلِمَةِ فَالْاسْتِذْرَاكُ، وَبِاسْتِجْمَاعِ ذَلِكَ كُلِّهِ قَدْ تَكُونُ الْحَرَكَةُ الْجَسَدِيَّةُ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ مِنَ الرُّوَافِدِ، أَوْ الْكَوَاشِفِ، أَوْ السَّوَادِ، أَوْ النَّوَاقِلِ، أَوْ الْمَحَاسِنِ:

- مِنَ الرُّوَافِدِ الْمُعَزَّزَةِ لِلْمَعْنَى.
- أَوْ الْكَوَاشِفِ الْمَجَلِّيَّةِ لِلْأَحْوَالِ النَّفْسِيَّةِ وَالْهَيْئَاتِ الْمَقَامِيَّةِ.
- أَوْ السَّوَادِ الْقَائِمَةِ مَقَامَ بَسْطِ مِنَ الْكَلَامِ وَتَطْوِيلِ.
- أَوْ النَّوَاقِلِ الَّتِي تَنْقُلُ لَنَا صُورَةَ الْحَدِيثِ بِلَفْظِهِ وَحَرَكَتِهِ الَّتِي وَقَعَتْ حَقًّا لَا تَجُوزًا.
- أَوْ الْمَحَاسِنِ الْبَيَانِيَّةِ الْمُعْجَبَةِ الْبَاعِثَةِ فِي النَّفْسِ إِمْتَاعًا وَمُؤَانَسَةً.
- وَقَدْ تَجَنَّمَعُ هَذِهِ الدَّلَالَاتُ جَمِيعُهَا أَوْ جُلُّهَا فِي حَرَكَةٍ وَاحِدَةٍ مُتَشَكِّلَةٍ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ، كَمَا فِي قَوْلِ الْحَقِّ -تَقَدَّسَ اسْمُهُ-: "فَصَكَّتْ وَجْهَهَا"، فَهَذِهِ الْحَرَكَةُ مِنَ السَّوَادِ الَّتِي

(1) تقدم تخريجها.

(2) الآية (طه، 12).

(3) الآية (لقمان، 18).

(4) الآية (الإسراء، 37).

(5) الآية (النور، 31).

سَدَّتْ مَسَدًا قَوْلَنَا: "فَتَعَجَّبْتُ مُنْكَرَةً مُسْتَهْجِنَةً"، وَمِنْ الْكَوَاشِفِ النَّفْسِيَّةِ الْمُنبِئَةِ عَنِ حَوَاشِي نَفْسِ امْرَأَةٍ عَجُوزٍ يُبَشِّرَتْ بِحَمَلٍ فَوِلَادَةٍ، وَمِنْ التَّوَاقِلِ الَّتِي وَصَفَتْ لَنَا ذَلِكَ الْحَدِيثَ الْكَلَامِيَّ، فَتَقَلَّ لَنَا بِنَصِّهِ وَبِصَلِّ الْوَجْهِ الَّذِي قَامَتْ بِهِ الْعُجُوزُ حَقًّا لَا تَجُوزًا، وَمِنْ الْمَحَاسِنِ الْبَيَانِيَّةِ الْمُعْجَبَةِ الَّتِي تُثِيرُ فِي النَّفْسِ اسْتِحْسَانًا، وَمِنْ الرِّوَاغِدِ الْمُعَزَّزَةِ لِلْمَعْنَى فِي سِيَاقِهِ اللَّفْظِيِّ الْقَائِمِ عَلَى هَيْئَةٍ قَصَصٍ يَشْتَمِلُ عَلَى خِطَابِ فُرَّانِيٍّ حِوَارِيٍّ أَوْ سَرْدِيٍّ ذِي طَرَافَةٍ، بَلْ فَرَادَةٍ، بَلْ إِعْجَازٍ.

وَبَعْدُ، فَهَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ، وَأَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِهَذِهِ الْمُبَاحَثَةِ فَاتِحَةٌ لَا خَاتِمَةٌ، فَاتِحَةٌ لِأَبْحَاطِ أُخْرٍ: لِمَعْجَمٍ لُغَوِيٍّ يَرْتَصِدُ أَلْفَاظَ الْحَرَكَةِ الْجَسَدِيَّةِ فِي لُغَةِ التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ، أَوْ لِكِتَابٍ يَسْتَشْرَفُ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ اسْتِشْرَافًا شَامِلًا وَاقِيًا يَجْمَعُ بَيْنَ الْأَنْظَارِ اللَّغَوِيَّةِ، وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالنَّفْسِيَّةِ، وَهَذَا مَا يَعْكَفُ عَلَيْهِ الْبَاحِثُ.

#### ثبت المصادر والمراجع:

- إبراهيم أبو عرقوب، الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، ط1، دار مجدلاوي، عمان، 1993م.
- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، دار صادر، بيروت، د.ت.
- أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1986م.
- الأخفش، أبو الحسن سعيد بن مسعدة (215هـ)، معاني القرآن، تحقيق هدى قراعة، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990م.

- الأصفهاني، أبو بكر محمد بن أبي سليمان (297هـ)، الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، 1985م.
- الأنباري، أبو البركات، عبد الرحمن بن محمد (577هـ)، أسرار العربية، ط1، تحقيق فخر صالح قدارة، دار الجيل، بيروت، 1995م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (256هـ)، صحيح البخاري، ط3، تحقيق قاسم الرفاعي، دار الأرقم، بيروت، 1997م.
- بيز، ألن، مهارات تحقيق المبيعات الناجحة، ط1، الدار العربية للعلوم، بيروت، 1999م.
- تمام حسان، اللغة العربية: معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، د.ت.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (429هـ)، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، دار الفكر، دمشق، 1997م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (255هـ)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1990م.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (471هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1989م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (392هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط4، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1990م.
- جيرو، بيير، علم الإشارة، ترجمة منذر عياشي، ط1، دار طلاس، دمشق، 1992م.
- أبو حيان، محمد بن يوسف (745هـ)، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م.
- خليل عمايرة، في التحليل اللغوي، ط1، مكتبة المنار، الزرقاء، 1987م.
- خليل عمايرة، في نحو اللغة وتراكيبها، ط1، عالم المعرفة، جدة، 1984م.
- دي سوسير، فصول في علم اللغة العام، ترجمة أحمد الكراعين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1982م.
- الراغب، أبو القاسم حسين بن محمد (502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد الكيلاني، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1961م.

- ابن رشيق، أبو عليّ الحسن القيرواني (456هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط3، مطبعة السعادة، القاهرة، 1963م.
- روي آرمز، لغة الصورة في السينما المعاصرة، ترجمة سعيد عبد المحسن، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1992م.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، 1987م.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (538هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، القاهرة، 1977م.
- سمير دبابنة، نافذة على تعليم الصم، مؤسسة الأراضى المقدسة (منشورات منظمة المبادرات "initiatives" لتعليم الصم)، السلط، ط1، 1996م.
- -سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (180هـ)، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (911هـ)، الإتيقان في علوم القرآن، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، بإشراف عبد المنعم إبراهيم، ط2، مكتبة نزار الباز، الرياض، 1998م.
- الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن الحسين (406هـ)، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ط1، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، 1986م.
- الطبرسي، الفضل بن الحسن (-5هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (310هـ)، جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت، 1978م.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (328هـ)، العقد الفريد، شرح أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري، دار الأندلس، بيروت، 1996م.
- أبو عبيدة، مَعْمَر بن المثنى (210هـ)، مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، محمد الخانجي، القاهرة، 1962م.
- علي زيعور، اللاوعي الثقافي ولغة الجسد والتواصل غير اللفظي في الذات العربية، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1991م.
- الغزالي، الإمام أبو حامد، محمد بن محمد (505هـ)، المستصفى في علوم الأصول، تحقيق إبراهيم رمضان، دار الأرقم، بيروت، 1994م.

- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (207هـ)، معاني القرآن، تحقيق أحمد نجاتي، ومحمد النجار، الدار المصرية، القاهرة، 1955م.
- القالي، أبو عليّ إسماعيل بن القاسم (356هـ)، الآمالي، تحقيق محمد عبدالجواد الأصمعي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (276هـ)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، 1973م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم (276هـ)، تفسير غريب القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م.
- القرطبي، محمد بن أحمد (671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996.
- ابن كثير، إسماعيل بن كثير (774هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، 1980م.
- أ. كوند راتوف، أصوات وإشارات: دراسة في علم اللغة، ترجمة إدور يوحنا، وزارة الإعلام، بغداد، (د.ت).
- ماجدة سيد عبيد، القاموس الإشاري للصم، ط1، نشر على نفقة المؤلفة، جامعة الملك سعود، الرياض، 1992م.
- مرفين لوشكي، التمثيل الصامت: فهم وأداء الصمت المعبر، ترجمة سامي صلاح، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002م.
- محمد عبادة، الجملة العربية: دراسة لغوية نحوية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1984م.
- محمد كشاش، لغة العيون: حقيقتها، مواضيعها، أغراضها، مفرداتها، ألفاظها، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1999م.
- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم (711هـ)، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- مهدي عرار، سياق الحال عند الإمام الغزالي في المستصفى: دراسة دلالية تواصلية، مجلة العربية، ع 39، أمريكا، 2002.
- مهدي عرار، ظاهرة اللبس في العربية: جدل التواصل والتفاصيل، ط1، دار وائل، عمان، 2003م.
- مهدي عرار، لغة الجسم وأثرها في الإبانة: نماذج من التراث اللغوي والبلاغي، مجلة دراسات، المجلد 33، العدد 1، 2006م.

- نازك عبد الفتاح، مشكلات اللغة والتخاطب في ضوء علم اللغة النفسي، ط1، دار قباء، القاهرة، 2002م.
- نتالي باكو، لغة الحركات، ط1، ترجمة سمير شيخاني، دار الجيل، بيروت، 1995م.
- النووي، محيي الدين يحيى بن شرف (676هـ)، شرح صحيح مسلم، ط3، دار القلم، بيروت، د.ت.
- ابن هشام، جمال الدين بن هشام (761هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق مازن المبارك، ومحمد حمد الله، ط2، مكتبة سيد الشهداء، (د.ن)، 1972م.
- اليزيدي، أبو عبد الرحمن عبد الله بن يحيى (237هـ)، غريب القرآن وتفسيره، تحقيق عبد الرزاق حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987م.

#### الإنجليزية:

- Albert E., Scheflen, Alice Scheflen, Body Language and Social Order: Communication as Behavioral Control, Prentice-Hall, Englewood Cliffs, 1972.
- Downes, W., Language and Society, 2<sup>nd</sup> edition, Cambridge University, Cambridge, 1998.
- Hess, E., The Tell-Tale Eye, Van Nostrand Reinhold, New York, 1975.
- Mitchell, M. E., How to Read the Language of the Face, Macmillan, New York, 1968.
- Paul, L., Visual Communication: Images with Messages, Wadsworth Publishing Company, California, 1995.
- Pease, A., Body Language: How to Read Others' Thoughts by Their Gestures, Camel Publishing Company, Australia, 1990.

بيان المحتوى

المباحثة الأولى

انفتاح الدلالة في النصّ القرآنيّ الشريف: وجه من وجوه الإعجاز المعجب

- تقديم

- في المستوى الصّوتيّ

- في المستوى الصّرفيّ

- في المستوى التركيبيّ

- في المستوى المعجمي
- احتراس وتقابل
- علة العلة
- المصادر والمراجع

### المباحثة الثانية

#### المحتكمات التي صدر عنها ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن

- تقديم
- مواضعه
- أولاً: مشكل في دلالة الصيغة الصرفية
- ثانياً: مشكل في دلالة الكلمة المفردة
- أولاً: المشكل الآتي من التطور الدلالي
- ثانياً: عمومية الدلالة واتساعها
- ثالثاً: ظاهرة المشترك اللفظي
- رابعاً: ظاهرة الأضداد
- ثالثاً: مشكل في دلالة التركيب
- أولاً: مشكل آت من الاجتزاء من السياق البنيوي
- ثانياً: الزيادة وتكرار الكلام
- ثالثاً: مشكل آت من تداخل حدود الجمل
- رابعاً: مشكل آت من التقديم والتأخير "رتبة الكلمات"
- خامساً: تناوب حروف المعاني في سياقها
- سادساً: مشكل آت من تردد التركيب بين الحقيقة والمجاز

رابعاً: مشكل آت من تغييب السياق

خامساً: مشكل معتدي

سادساً: مشكل آت من تباين اللهجات والقراءات

درجاته

- أولها



- وثانيها
- وثالثها
- بواعثه
- المصادر والمراجع

### المباحثة الثالثة

#### أثر استشراف التطور الدلالي في فهم النص القرآني

- مسوخ أولي
- تأسيس ومهاد
- تجلية وفضل بيان
- الإيمان
- الدابة
- السبات
- السعي
- الفتنة
- ننجيك
- ما أشبه الليلة بالبارحة
- علة العلة
- تحوط واستدراك
- ثبت المصادر والمراجع

### المباحثة الرابعة

#### تحليل الظواهر النحوية في قراءة ابن محيصة المكي الشاذة

- في مقاصد العنوان
- المقرئ ابن محيصة
- قراءة ابن محيصة الشاذة
- تحليل الظواهر النحوية
- أولاً: الاجتزاء
- أولاً: الاجتزاء الظاهر

- حذف حركة الإعراب
- اجتزاء على مستوى الكلمة
- اجتزاء من بنية الكلمة
- ثانيا: الاجتزاء المقدر

ثانيا: التعلّق

- تردّد في الموصوف
- تردّد في المستثنى منه
- تردّد بين التأكيد والخبر
- تردّد في المعطوف عليه

ثالثا: تعاور حروف المعاني

- تعاور المعاني والمباني
- ثانيا: تعاور المعاني دون المباني
- ثالثا: تعاور للمباني دون المعاني

رابعا: الحمل على المعنى

خامسا: أثر تغيّر بنية الفعل في السّياق البنيويّ

سادسا: الوقف

- بين حدود الجمل
- بين حدود الكلمات
- الأسماء المنقوصة

صفوة المستخلص

ثبت المصادر والمراجع

### المباحثة الخامسة

#### لغة الجسد في النّصّ القرآنيّ الشّريف

في مقاصد العنوان

تلمّس الدّلالة بين لغة الجسد وجسد اللّغة:

أولا: جسد اللّغة

ثانيا: لغة الجسد

## لغة الجسد في التنزيل العزيز

- من دلالات حركة الرأس وهيئاتها
  - الرأس الخفيض المتطامن
  - تلوية الرأس
  - إنغاض الرأس
- من دلالات حركة العين وهيئتها
  - العين المزدرية الهازئة
  - العين الكارهة الساخطة
  - العين الدائرة الوجلة
  - العين الهامزة الغامزة
  - العين المائلة الزائغة
  - العين الضيقة الكليلة
- من دلالات حركة اليد
  - حركة اليد بين إيماءة السكوت وإبداء الغيظ
  - من دلالات حركة الأصابع
    - من دلالات الوجه وإيحاءاته
    - تصعير الخد
    - ثني العطف
    - من دلالات المشية وإيحاءاته
    - المتمّمات المساندة في التنزيل العزيز
    - الحركة الجسديّة في جنب الله
    - المقولات الكلّيّة
      - أولاً: الاحتراس
      - ثانياً: التفسير
      - ثالثاً: الاستدراك

ثبت المصادر والمراجع